



مركز الفكر للدراسات والنشر
الرياض - المملكة العربية السعودية

بلايين وبلايين

أفكار حول الحياة والموت على حافة الألفية

تأليف : كارل ساجان
ترجمة : عزت عامر

562

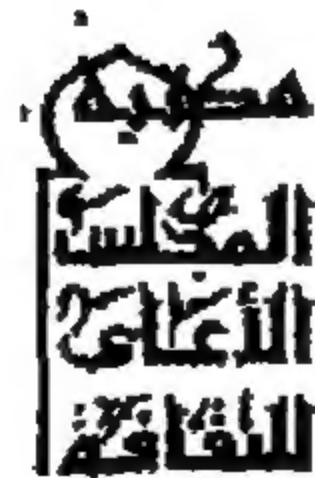
المشروع القومي للترجمة

بلايين وبلايين

أفكار حول الحياة والموت على حافة الألفية

تأليف : كارل ساجان

ترجمة : عزت عامر



٢٠٠٣

المشروع القومي للترجمة

إشراف : جابر عصفور

— العدد : ٥٦٢

— بلايين وبلايين (أفكار حول الحياة والموت على حافة الألفية) .

— كارل ساجان

— عزت عامر

— الطبعة الأولى : ٢٠٠٣

ترجمة لكتاب :

BILLIONS AND BILLIONS

Thoughts on Life and Death

at the Brink of the Millennium

By

CARL SAGAN

BALLANTINE BOOKS

NEW YORK

1998

حقوق الترجمة والنشر بالعربية محفوظة للمجلس الأعلى للثقافة

شارع الجبلية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة ت ٧٣٥٢٣٩٦ فاكس : ٧٣٥٨٠٨٤

El Gabalaya St, Opera House, El Gezira, Cairo

Tel. : 7352396 Fax: 7358084.

تهدف إصدارات المشروع القومي للترجمة إلى تقديم مختلف الاتجاهات والمذاهب الفكرية للقارئ العربي وتعريفه بها ، والأفكار التي تتضمنها هي اجتهادات أصحابها في ثقافتهم ولا تعبر بالضرورة عن رأي المجلس الأعلى للثقافة .

المحتويات

9	* شكر وتنويه
11	* قيل عن هذا الكتاب
15	* المؤلف «كارل ساجان»
19	* إهداء
21	* تنويه بالفضل

الجزء الأول : قوة وجمال القياس

27	الفصل الأول : بلايين وبلايين
39	الفصل الثانى : لوحة الشطرنج الفارسية
53	الفصل الثالث : الصيد مساء الإثنين
67	الفصل الرابع : نظرة الإله المحدث والصنبور المتقطر
85	الفصل الخامس : أربع أسئلة كونية
95	الفصل السادس : كثير من الشمس ، كثير من العوالم

الجزء الثانى : علام يحافظ المحافظون ؟

105	الفصل السابع : العالم الآتى مع البريد
113	الفصل الثامن : أين الحذر فى التعامل مع البيئة ؟
123	الفصل التاسع : كريسوس وكاساندر
131	الفصل العاشر : ثقب فى السماء
149	الفصل الحادى عشر : فح : ارتفاع درجة حرارة العالم
173	الفصل الثانى عشر : النجاة من الفح
195	الفصل الثالث عشر : تحالف الدين والعلم

الجزء الثالث : حيث تتصادم القلوب والعقول

211	الفصل الرابع عشر: العدو المشترك
	الفصل الخامس عشر: الإجهاض: هل يمكن الدفاع عن "حق الحياة" و "حق
227	الاختيار" معاً؟ (كتابة مشتركة مع آن درويان)
247	الفصل السادس عشر: قواعد اللعبة
263	الفصل السابع عشر: جيتسبورج والآن (كتابة مشتركة مع آن درويان) ...
277	الفصل الثامن عشر: القرن العشرون
289	الفصل التاسع عشر: في وادي الظلال
299	خاتمة بقلم آن درويان

قائمة الصور التوضيحية

- صورة فوتوغرافية لكارل ساجان مع جوني كارسون فى برنامج
عرض "هذه الليلة" ٣٠ مايو ١٩٨٠ 25
- إحصاء الأرقام الضخمة - ستة اسكتشات رسمها باتريك مكدونيل 34
- جائزة الصدر الأعظم - ثلاث اسكتشات رسمها باتريك مكدونيل ... 41
- النمو الأسى للتكاثر البكتيرى ، لتوضيح تسطح المنحنى 43
- النمو الأسى للتكاثر البشرى ، لتوضيح تسطح المنحنى 47
- تموج الماء على سطح بحيرة ، يوضح إطار الموجة 68
- طيف الموجة الكهرومغناطيسية - لاحظ الجزء الصغير الذى نعرفه
باسم الضوء المرئى 76
- خواص الانعكاس السطحى للصبغات العادية فى الضوء المرئى 82
- تركيز ثانى أكسيد الكريون فى الغلاف الجوى للأرض خلال الزمن 159
- الخط الزمنى لدرجات الحرارة فى العالم 164
- ظاهرة التصوب - اسكتش من رسم باتريك مكدونيل 175
- الطاقة النووية - اسكتش من رسم باتريك مكدونيل 182
- الطاقة الشمسية - اسكتش من رسم باتريك مكدونيل 186

- تطور الجنين البشرى - صورتان توضحان الجنين عند الحمل
وعند ثلاثة أشهر 238
- تطور الجنين البشرى - صورتان توضحان الجنين عند خمسة
أسابيع وعند ١٦ أسبوعًا 239
- تطور الجنين البشرى - صور توضح تشابه الجنين البشرى على
التتالى مع أجنة دودة ، حيوان برمائي ، حيوان من الزواحف ،
وحيوان من الرئيسيات 241

شكروتنويه

كان الأجدد منى بترجمة هذا الكتاب د. سمير حنا صادق بعد أن عرضه بأسلوبه الرشيق وحبه الواضح لمؤلفه ، ضمن ثلاثة كتب لكارل ساجان فى سلسلة كراسات "عروض" تحت عنوان "هكذا تحدث كارل ساجان". وقد شجعتنى هذا العرض على الإقدام على هذه الترجمة مستوحياً أسلوب عاشق العلم د. سمير حنا صادق فى التعامل بحب وصدق مع روح النص وإضافته عليه جاذبية خاصة لا يمكن تقليدها .

عزت عامر

قيل عن هذا الكتاب

إنه من أعمال كارل ساجان "الأكثر شجاعة".

"تفيض كتابته بالتفاؤل والوضوح والشفقة"

ف. ت. لوديردال سان - سينتينيل

يستعين ساجان بالضوء المسلط على شهرته ليلقي ضوءاً على هاوية النفايات التي قد يدفعنا إليها الغباء والجشع والتلف على القوة. وكل هذه الأمور والقضايا المهمة مثارة في بلايين وبلايين.

واشنطن بوست بوك وورد

لم يستمر عالم الفلك كارل ساجان حياً ليشهد الألفية، لكنه قد يكون فعل أكثر مما فعل أي عالم مشهور آخر ليجعلنا مستعدين لاستقبال هذه الألفية.

أتلانتا جورنال أند كونستيتيوشن

يمكن تشبيه بلايين وبلايين بـ "الربيع الصامت للجيل المعاصر.. وشهد التاريخ الإنساني عدداً من الرواد ذوي عقول جبارة أعطونا نظريات حول الكون والتطور تتعارض مع العقيدة الدينية. توصل جاليليو إلى أن الأرض تدور حول الشمس، وليس العكس. وتحدى داروين نظرية الخلق بكتابه تطور الأنواع. والآن أعطى ساجان العالم أحدث تحدياته: بلايين وبلايين.

سان أنطونيو إكسپريس - نيوز

يعيش إبداع ساجان وشغفه اللامحدود بالمعرفة فى عطايا عمله.

سياتل تايمز أند بوست أتيليجنسر

هل كنت عاجزًا عن الاستمرار يقظًا أثناء حصة العلوم فى مدرستك الثانوية ؟
يتيح لك هذا الكتاب استدراك ما فقدت . ويدمج كارل ساجان بين منطقته ومعرفته
وخفة الدم وحس الدعابة ، ليجعل موضوعًا يميل إلى الصرامة العلمية قابلاً للقراءة
بمتعة.

دالاس مورننج نيوز

فى بلايين وبلايين يوضح ساجان لماذا كان أحد مفسرى العلم المعاصرين
الأكثر وضوحًا بالنسبة للجمهور العام. وهنا – بلا رطانة – بعض القضايا المهمة
التي تواجهها البشرية، وهى قضايا نتجاهلها معرضين أنفسنا لمخاطر ضخمة.

سافانا مورنينج نيوز

صوت ساجان ... يبرز بلطف من كل صفحة ... عطاءً وداعيًا رشيقيًا متعمقًا
فى الفكر من مُعلمٍ عظيم إلى فصله الدراسى. والزمن هو الكفيل الوحيد بإظهار ما
إذا كان هذا الفصل (الجنس البشرى) سيحفظ هذه الدروس والمحاضرات من
صميم القلب.

ونستون – ساليم جورنال

تتدفق من الكتاب الأفكار والقضايا الجديدة. إن ساجان يستبق الاكتشافات
المثيرة للشعريرة، ويتأمل أربعًا من أكثر المشاكل إثارة للاهتمام التى كان عليه
أن يختارها ليعمل على حلها.

دينير بوست

مجموعة رائعة من المقالات عن العلم الفلك والوعى الاجتماعى ... تقدم هذه الموضوعات التسعة عشر ما قد يكون أعظم عطاياها : القدرة على توضيح العلم المعقد .. للمقارئ العادى .. والمحاضرة الأخيرة .. تأمل مؤثر حول التفكير النفاذ والمعتقدات ومنجزات العمر".

دايتون ديلى نيوز

الأكثر تعلقاً بشخصه، والأكثر إثارة للمشاعر بكثير، مقارنة بأى من الأعمال التى قدمها سابقاً.

هارتفورد كورانت

أحد مفسرى العلم الأكثر وضوحاً للجمهور العام. تستعين تلك الكتابات الموجزة بالمعرفة العلمية فى استكشاف القضايا الأساسية حول البيئة ومستقبل العالم بأسلوب فاتن وبوضوح خلّاب ... كان ساجان متفائلاً حتى النهاية ، ومؤمناً حقيقياً بقدرة البشرية على تخطى أسوأ نزواتها . ويقدم هذا الكتاب روح ساجان فى أفضل صورها ."

كيركاس ريفيو

(عرض حائز على مرتبة عالية)

يتوهج بشجاعة ساجان، دهشته، وإنسانيته.

بوكليست

يجبر ساجان قراءه على تأمل الحياة.

بيلشرز ويكلى

المؤلف "كارل ساجان"

كان كارل ساجان بروفيسور "دافيد دونكان" للفلك وعلوم الفضاء ومدير مختبر الدراسات الكوكبية في جامعة كورنيل. ولعب دورًا مهمًا في برنامج الفضاء الأمريكي منذ بدايته. كان خبيرًا ومستشارًا لناسا منذ الخمسينيات، أعطى تعليمات نهائية لرواد الفضاء قبل رحلتهم إلى القمر، وكان مشاركًا في التجارب في رحلات مارينير، وفيكينج، وفوياجير، وجاليليو إلى الكواكب. وساعد في حل ألغاز درجة الحرارة المرتفعة على كوكب الزهرة (النتيجة: ظاهرة تصوب ضخمة)، والتغيرات الموسمية على المريخ (النتيجة: غبار ناتج عن الرياح الشديدة)، والغيم الضارب إلى الحمرة على تيتان^(*) (النتيجة: جزيئات عضوية معقدة).

ونظرا لأعماله، حصل الدكتور ساجان على أوسمة ناسا للإنجازات العلمية الممتازة ، وحصل مرتين على الخدمة العامة المميزة، إضافة إلى جائزة أبولو للإنجازات. وتم تسمية الكويكب "٢٧٠٩ ساجان" على اسم كارل ساجان. حصل أيضًا على جائزة جون كنيدي لعلوم الملاحة في الفضاء بين الكواكب من الجمعية الأمريكية للملاحة الفضائية ، وجائزة نادي المستكشفين في الاحتفال السنوي ٧٥، وسام كونستانتين تسيولكوفسكي لاتحاد رواد الفضاء السوفييتي ، وجائزة ماسورسكي للجمعية الفضائية الأمريكية "نظرا لمساهماته الرائعة في تطور علم النجوم .. كعالم خبير في كل من علم الفلك والبيولوجي ، قدم الدكتور ساجان مساهمات تنطوي على بذور التطور المستقبلي في الدراسات حول طبقات الجو الكوكبية، وأسطح الكواكب ، وتاريخ الأرض، والبيولوجيا الخارجية. وكثير من أغلب علماء الكواكب النشطين في هذا المجال حاليًا هم طلاب حاليون وسابقون ومساعدون له".

(*) أكبر أقمار زحل . (المترجم)

حصل أيضًا على وسام الخدمة العامة، أعلى جائزة للأكاديمية القومية للعلوم لمساهماته المميزة في تطبيق العلم في مجال الخدمة العامة .. أحرز كارل ساجان نجاحًا باهرًا في التعريف بروعة وأهمية العلم. وتعتبر قدرته على جذب خيال الملايين وعلى تفسير الأفكار الصعبة بمصطلحات قابلة للفهم، إنجازًا ضخماً .

تم انتخاب الدكتور ساجان رئيسًا لقسم العلوم الكوكبية في الجمعية الفلكية الأمريكية، ورئيسًا لقسم علم الكواكب في الجمعية الأمريكية لفيزياء الأرض، ورئيسًا لعلم الفلك في الجمعية الأمريكية لتطوير العلوم. وكان - لمدة اثني عشرة عامًا - المحرر الأول في "إكاروس"، (وهي أهم مجلة متخصصة في الأبحاث الكوكبية) وشارك في تأسيس وترأس الجمعية الكوكبية، وهي منظمة تضم ١٠٠٠٠٠ عضو وتعتبر أضخم تجمع للمهتمين بالفضاء في العالم، و"العلماء الزائرين المميزين"، ومختبر الدفع النفاث، ومعهد كاليفورنيا للتقنية.

حصل على جائزة بولتزر عن كتابه "تنينات عدن: تأمل في تطور الذكاء البشري"، وكان الدكتور ساجان صاحب مؤلفات انضمت إلى قائمة الكتب الأكثر مبيعاً، منها "الكون"، الذي أصبح الكتاب الأكثر مبيعاً في كل ما نشر في إنجلترا. وصاحب ذلك الفوز بجائزة إيمي وبيبودي، وهي مسلسلات تليفزيونية نالت شهرة وشاهدها نحو ٥٠٠ مليون شخص في ستين دولة. حصل على اثنتين وعشرين درجة فخرية من الكليات والجامعات الأمريكية لمساهماته في مجالات العلم، والأدب، والتعليم، والمحافظة على البيئة، وعلى كثير من الجوائز بسبب أعماله حول النتائج بعيدة المدى للحرب النووية والحد من سباق التسلح النووي. وروايته "الاتصال" أصبحت الآن فيلماً مهماً.

وخلال منح الدكتور ساجان أعظم درجات التكريم بعد وفاته، قالت المؤسسة العلمية القومية إن "أبحاثه غيرت علم الكواكب ... وكانت عطاياها للجنس البشري بلا حدود".

تتضمن العائلة الحالية للدكتور ساجان(*) زوجته معاونته لمدة عشرين عامًا، (أن درويان) أطفاله : دوريون ، جيريمي ، نيكولاس ، ساشا ، وسام، وحفيده تونيو.

(*) يقصد المحرر وقت تدوين هذا الكتاب . (المترجم)

هذا هو الكتاب الثلاثون الذى كتبته ساجان، أو شارك فى كتابته ، أو حرره .

وهذه بعض كتبه الأخرى :

١ - الحياة الذكية فى الكون (مع آى . إس . شكلوفسكى) .

٢ - تنينات عدن .

٣ - مخ بروكا .

٤ - الكون .

٥ - اتصال (رواية) .

٦ - مذبذب (مع آن درويان) .

٧ - طريق لم يفكر فيه إنسان (الشتاء النووى ونهاية سباق التسليح)

(مع ريتشارد توركو) .

٨ - ظلال أسلاف منسيين (بحث حول من نكون) .

(مع آن درويان) .

٩ - نقطة زرقاء باهتة (رؤية لمستقبل الإنسان فى الفضاء) .

١٠ - عالم تحكمه العفاريت (العلم كشمعة فى الظلام) .

إهداء

إلى أختي (كاري)
واحدة من ستة بلايين

كارل ساغان

تنويه بالفضل(*)

كما هي العادة دائماً، تم إعداد هذا الكتاب وتحسينه بدرجة كبيرة بالاستعانة بتعليقات أنى درويان ذات البصيرة النفاذة، وباقتراحاتها حول المحتوى ولباقة الأسلوب وكتاباتهما. وعندما نمت خبرتي تمنيت أن أكون مثلها.

أمدني كثير من الأصدقاء والزلاء ببعض أو كل التعليقات المفيدة على هذا الكتاب، وأوجه بالغ امتناني لهم جميعاً. ومن بينهم دافيد بلاك، وجيمس هانسين، وجوناثان لونين، وجوف مارسى، وريتشارد توركو، وجورج ويزيريل. والذين استجابوا بسخاء لما طلبناه من معلومات، من بينهم ليندين بلو من "جنرال أتوميكس"، وجون بريسون من "ساوثرن كاليفورنيا إديسون"، وجان كالين وجيري دوناهو من وزارة التجارة الأمريكية، ويونام شوهان، وجولي ريكمان من البنك الدولي، وبيتر ناتانيلز من قسم الفسيولوجيا في معهد الطب البيطري في كورنيل، وجيمس راشيلز من جامعة ألاباما في برمنجهام، وبوباكار توريه من منظمة الزراعة والأغذية التابعة للأمم المتحدة، وتوم ويلش في وزارة الطاقة الأمريكية. وأشكر ليزلى لاروكو من قسم اللغات الحديثة وعلوم اللغة في جامعة كورنيل، لخدمات الترجمة حول مقارنة نسختي "باراد" و"أجونيوك" لمقالة "العدو المشترك".

وأقدر المعرفة والدعم اللذين تلقيتهما من مورت جانكلو وسينثيا كانيل من جمعيتي "جانكلو ونيسبيت"، وأن جودوف، وهاري إيفانس، وألبرتو فيتال، وكاثي روسينبلوم، ومارتا شوارتز من "راندوم هاوس".

(*) توفي الدكتور ساجان قبل أن يكون قادراً على إتمام هذا التنويه بالفضل. ويعتذر محررو الكتاب من إغفال بعض الأسماء أو أى أشخاص أو مؤسسات كان يمكن أن يضيفها لو أتاحت له القدرة على استكمال هذه الملحوظات. (***) وضع هذا التنويه في نهاية النشرة الأصلية للكتاب، ورأينا أن نضعه في نهاية الافتتاحيات والإهداء في هذا النشرة العربية. (المترجمك)

وأوجه امتناني بشكل خاص إلى وليام بارنيت على النسخ شديد التدقيق، والمساعدة في البحث، وتصحيح البروفات، ولتوجيه المخطوطة خلال المراحل المختلفة لاستكمالها. وأنجز بيل كل ذلك خلال صراعى مع المرض الخطير. وكان شعورى بأن فى استطاعتى الاعتماد عليه بثقة تامة، نعمة تستحق الشكر. وأمدنى أندريه بارنيت ولوريل باركر من جامعة كورنيل التى أنتمى إليها بمراسلات مهمة ودعم فى البحث. وأشكر أيضا كارين جوبريتش وسيندى فيتا فوجيل من مكتب أنى لمساعدتهما المهمة.

بينما تم تنقيح كل مادة هذا الكتاب من جديد أو تعتبر مادة جديدة، فإن نواة كثير من الفصول قد تم نشره سابقاً فى "برادا"، وأشكر والتر أندرسون (المحرر الأول) ودافيد كورير (كبير المحررين) لهذا النشر وللدعم المستمر الذى تلقيته منهما عبر سنوات.

ظهرت أجزاء من بعض الفصول فى طبعات "مجلة الفيزياء الأمريكية، وفوربس والبيئة فى خطر، وأنتونى وولبارست". وفى (واشنطن العاصمة، مؤسسة سميثسون للطباعة)، (ومن محاضرة لى فى وكالة حماية البيئة، واشنطن العاصمة)، وفى مؤسسة لوس أنجلوس تايمز للنشر، و"أعرنى أذنيك": الخطب العظيمة فى التاريخ، وليام سافير مطبوعة (نيويورك: دبليو. دبليو نورتون ١٩٩٢).

وافق باتريك مكدونيل بكل كرم على تضمين رسوماته التخطيطية فى هذا الكتاب، وأشكر أيضا مجموعة كارسون للإنتاج لسماعها باستخدام صور أظهر فيها مع جونى كارسون، وأشكر باربارا بوتشير للرسم التوضيحي الجرافيكى، وجيمس هانسين لسماعه باستخدام رسومات توضيحية فى الفصل ١١، ولينارت نيلسون لسماعه باستخدام رسومات اعتمدت على صور الفوتوغرافية الرائدة للأجنة البشرية فى الرحم.

الجزء الأول

قوة وجمال القياس



كارل ساجان مع بوني كارسون في برنامج عرض هذه الليلة

الفصل الأول

بلايين وبلايين

يوجد بعض الناس . الذين يظنون أن عدد (حبّات) الرمل لا نهائى . وهناك البعض الذين لا ينظرون إلى العدد على أنه لانهائى ، ويرون أنه لم يتم التوصل بعد إلى رقم ضخم بما فيه الكفاية لكننى سأحاول أن أقدم لك (أرقامًا) لا تتخطى فقط عدد الحبات الذى يحتوى عليه مقدار من الرمل مساو للأرض وهى ممثلة ... لكنها تتجاوز أيضا عدد الحبات فى كتلة مساوية فى حجمها للكون .

أرشميدس

"عداد الرمل" (حوالى ٢٧٨ - ٢١٢ ق.م.)

لم أقل ذلك أبداً بصراحة. مهلاً، قلت ربما يكون هناك ١٠٠ بليون^(*) مجرة و ١٠ بلايين تريليون نجم . من الصعب التحدث عن الكون دون استخدام أرقام كبيرة. قلت "بليون" مرات كثيرة خلال مسلسلات الكون التلفزيونية ، التى شاهدتها عدد ضخم من الناس . لكنى لم أقل أبداً "بلايين وبلايين". لسبب واحد، أن ذلك غامض تماماً. كم عدد البلايين فى "بلايين وبلايين" ؟ قليل من البلايين ؟ عشرون بليوناً ؟ مائة بليون ؟ "بلايين وبلايين" شىء غامض إلى حد ما . عندما أعدنا ترتيب المسلسلات وتحديثها ، راجعت الأمر، ولدى ما يكفى من الثقة بأننى لم أقلها أبداً .

(*) البليون هو ما اصطلح عليه العلم فى الولايات المتحدة وهو المليار (المترجم)

لكن جوني كارسون - الذي ظهرت في برنامجه "عرض هذه الليلة" نحو ثلاثين مرة خلال سنوات - قالها . كان يرتدى جاكيت قطنيًا مخمليًا ، وسترة ذات قبة، وشيء يشبه كتلة الشعر الكثيفة كنوع من الشعر المستعار. كان قد قدم محاكاة تقريبية عنى ، نوع من القرين ، الذى طاف قائلا "بلايين وبلايين" فى تلفزيون الليل المتأخر . كان يزعجنى عادة بعض الشيء أن أجد تقليدا زائفا لشخصيتى يتسكع بمفرده، يقول أشياء قد يحكيها لى أصدقائى وزملائى فى الصباح التالى. (رغم التنكر، كان يمكن لكارسون - كفلكى هاوجاد - أن يجعل شبيهى يقول علما حقيقيا) .

مما يثير الدهشة أن "بلايين وبلايين" بقيت . أحب الجمهور مغزاها . وحتى فى أيامنا هذه ، قد يوقفنى أشخاص فى الشارع أو على متن طائرة أو فى حفلة ويسألون بشيء من الخجل : إذا ما كان يمكننى أن أقول لهم فقط "بلايين وبلايين".

أقول لهم " أنتم تعلمون ، إننى لم أقلها بالفعل".

يردون " لا بأس ، قلها أيًا كان الأمر".

قيل لى إن شارلوك هولمز لم يقل أبدا "الجوهري ، يا عزيزى واطسون" (على الأقل فى كتب آرثر كونان دويل) ، لم يقل جيمى كاجنى أبدا " أنت أيها الجرد القذر"، ولم يقل هامفري بوجارت أبدا "اعزفها مرة أخرى، يا سام". لكنهم قد يكونون قالوا ذلك أيضا ، لأن هذه الأقوال المشكوك فى صحة نسبتها إليهم قد دست نفسها بقوة فى الثقافة الشعبية .

ما زال يُقتبس عنى كلما جرى ترويج تلك الجملة الساذجة فى مجالات الكمبيوتر (كما قد يقول كارل ساجان : إنها تتطلب بلايين وبلايين من البايتات) ، وفى مبادئ اقتصاديات الصحافة ، ومناقشات أجور اللاعبين فى الألعاب الرياضية الاحترافية ، وما يشبه ذلك .

لم يحدث - ولو فى مرات قليلة ، إذا استثنينا حالات إثارة الفضول الصبغانية - أن رُوجت أو كتبت هذه الجملة حتى عندما كان يُطلب منى ذلك . لكنى قد تجاوزت الآن هذا الأمر ولهذا - ولتسجيل رقم قياسى - دعها تنطلق :

بلايين وبلايين

ما الذى جعل "بلايين وبلايين" على هذه الدرجة من الشعبية ؟ كان من العادة استخدام "ملايين" كنموذج لعدد كبير من الأرقام. كان الأغنياء بالغوا الثراء هم المليونيرات . وكان عدد سكان الأرض فى زمن المسيح نحو ٢٥٠ مليوناً. وكان هناك نحو ٤ ملايين نسمة فى الولايات المتحدة وقت انعقاد المؤتمر الدستورى عام ١٧٨٧ ، ووصل هذا العدد مع بداية الحرب العالمية الثانية إلى ١٣٢ مليوناً. تبعد الأرض عن الشمس بنحو ٩٣ مليون ميل (١٥٠ مليون كيلو متر) . بلغ عدد القتلى فى الحرب العالمية الأولى نحو ٤٠ مليون قتيل، ووصل عددهم فى الحرب العالمية الثانية إلى نحو ٦٠ مليوناً. توجد ٣١.٧ مليون ثانية فى العام (وهو أمر من السهولة بحيث يمكن التأكد منه). احتوت ترسانات القنابل النووية على المستوى العالمى مع نهاية الثمانينيات على ما يساوى قوة تدميرية كافية لإفناء مليون مدينة مثل مدينة هيروشيما. ولكثير من الأغراض ولمدة طويلة كان "المليون" هو الرقم الكبير المثالى.

لكن الأزمنة تغيرت، وأصبح فى العالم الآن حفنة من البليونيرات ، وليس فقط بسبب التضخم المالى. وثبت أن عمر الأرض ٤,٦ بليون عام، ويقترب التعداد البشرى من ٦ بلايين نسمة، وكل ميلاد ليوم جديد يمثل رحلة أخرى حول الشمس طولها بليون كيلو متر (تدور الأرض حول الشمس بسرعة أعلى بكثير من سرعة المركبة الفضائية فوياجير خلال ابتعادها عن الأرض) . تصل تكلفة أربعة قاذفات قنابل ب ٢ إلى بليون دولار، (يقول البعض إنها ٢ أو حتى ٤ بلايين) . وميزانية الدفاع الأمريكية، إذا تم أخذ التكاليف السرية فى الحسبان ، تتخطى ٣٠٠ بليون دولار سنوياً . ويقدر العدد الفورى للضحايا فى حالة نشوب حرب نووية شاملة بين الولايات المتحدة وروسيا بنحو بليون شخص. وتمثل بضعة بوصات بليوناً من الذرات. متراصة بجانب بعضها البعض. وهناك أيضاً كل تلك البلايين من النجوم والمجرات .

فى ١٩٨٠، خلال العرض الأول لمسلسل الكون Cosmos ، كان الجمهور مُعَدّاً لتقبل رقم البليون؛ حيث أصبح مجرد بضعة ملايين تعتبر دخلاً محدوداً بعض

الشيء ، وليس على مستوى الطبقات العليا ، ووصفًا للبؤس . وفى الحقيقة ، فإن وقع الكلمتين يتشابه بما فيه الكفاية حتى إنك تحتاج إلى بذل جهد جاد للتمييز بينهما. ولهذا السبب كنت أنطق فى " الكون " كلمة "بلايين" بتضخيم حرف "ب" بوضوح وهذا ما اعتبره بعض الناس كأنه خاصية فى اللهجة أو عيب فى النطق. وبدا البديل – الذى كان رواده المعلقون فى التلفزيون – أن تقول "إنها بلايين بتوضيح حرف ب" كثر إثارة للإزعاج.

وهناك نكتة قديمة عن محاضر كان يشرح نموذجًا يمثل النظام الشمسى ويقول للمشاهدين إن الشمس ستتضخم لتصبح عملاقًا أحمر منتفخًا ، تبتلع كوكبى عطارد والزهرة حتى إنها قد تلتهم الأرض فى آخر الأمر. بعدئذ أكرهه أحد الحضور القلقين على الإجابة عن سؤاله : معذرة ، يا دكتور، هل قلت إن الشمس ستحرق الأرض بعد ٥ بلايين عام ؟

رد عليه المحاضر : نعم ، تقريبًا .

فقال : الحمد لله . ظننت للحظة أنك قلت ٥ ملايين .

سيان كانت المدة ٥ ملايين أو ٥ بلايين، فإن تأثير ذلك ضعيف على حياتنا الخاصة، ويثير اهتمامًا بقدر ما تثيره طبيعة المصير النهائى للأرض. لكن التمييز بين الملايين والبلايين له أهمية أكبر بكثير فى مجالات مثل الميزانيات القومية، وتعداد سكان العالم، وضحايا الحرب النووية.

فى الوقت الذى لم تتلاش فيه تمامًا شعبية "بلايين وبلايين"، تصبح هذه الأرقام أيضًا ذات مقياس صغير بدرجة ما ، تعبر عن ضيق أفق الخيال ، وأصبحت عتيقة . وعلى الأفق الآن أرقام أكثر عصرية بكثير، أو أصبحت أقرب من ذلك. لدينا الآن ما يقترب من التريليون.

تقترب النفقات العسكرية على مستوى العالم حاليًا من تريليون دولار سنويًا. ويقترب إجمالى مديونيات كل الدول النامية للبنوك الغربية من ٢ تريليون دولار (وكان ٦٠ بليون دولار عام ١٩٧٠). وتدنو الميزانية السنوية لحكومة الولايات

المتحدة أيضًا من ٢ تريليون دولار. والدين القومي نحو ٥ تريليون دولار. وكانت تقديرات تكلفة مشروع حرب النجوم المقترح - والمشكوك في جدواه التقنية، في عهد ريجان - قد تراوحت بين ١ تريليون دولار و ٢ تريليون دولار. وتزن كل النباتات على الأرض تريليون طن. وبين النجوم والتريليونات صلة قرابة: فالمسافة بين نظامنا الشمسي وأقرب نجم ألفا قنطورس تصل إلى ٢٥ تريليون ميل (نحو ٤٠ تريليون كيلو مترًا).

الخلط بين الملايين والبلايين والتريليونات مازال داءً مستوطنًا في الحياة اليومية، ويندر أن يمر أسبوع دون حدوث مثل هذا الاختلاط في أخبار التلفزيون (وبشكل عام الخلط بين الملايين والبلايين). لذلك قد يكون لي العذر في أن أقضي دقيقة في التمييز بين هذه الأرقام: المليون ألف ألف، أو واحد تليه ستة أصفار، البليون ألف مليون، أو واحد تليه تسعة أصفار، والتريليون ألف بليون (أو يساوي مليون مليون)، وهو واحد يليه ١٢ صفرًا.

وهذا هو العرف الأمريكي. ولمدة طويلة كانت الكلمة البريطانية "بليون" تماثل "التريليون" الأمريكي، مع الاستخدام البريطاني - المقنع تمامًا - لعدد (ألف مليون) للتعبير عن البليون. وفي أوروبا كانت كلمة "مليار" هي الكلمة المعبرة عن البليون. وحيث إنني من هواة جمع الطوابع منذ طفولتي، لدى طابع بريدي لم يبلغ يعود إلى ذروة التضخم الألماني في ١٩٢٣ وتقرأ عليه "٥٠ مليار". وكان إرسال خطاب بالبريد يحتاج إلى ٥٠ تريليون مارك (حدث ذلك عندما كان الناس يدفعون عربة يد مليئة بالعملة إلى المخبز أو البقالة). لكن بسبب التأثير العالمي الراهن للولايات المتحدة أصبحت تلك الاصطلاحات البديلة في حالة تراجع، واختفى "المليار" تقريبًا.

وهناك طريقة لا التباس فيها لتحديد الرقم الكبير محل البحث تتمثل ببساطة في إحصاء عدد الأصفار بعد الواحد، لكن إذا كان هناك الكثير من الأصفار قد تصبح هذه الطريقة مملة إلى حد ما؛ وهذا هو سبب وضعنا فواصل أو فراغات بعد كل مجموعة أصفار. من هنا يكون التريليون ١,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠ أو ١ ٠٠٠ ٠٠٠ ٠٠٠ ٠٠٠ (في أوروبا يتم وضع النقاط مكان الفواصل). وبالنسبة للأرقام الأكبر من التريليون، عليك أن تحصى عدد ثلاثيات الأصفار

الموجودة . ويمكن الحصول على مزيد من التبسيط ، حيث يمكنك - إذا أردت التعبير عن رقم كبير - أن تقول فقط بلا تردد : كم صفراً يوجد بعد الواحد .

ولأن العلماء وعلماء الرياضيات أشخاص عمليون ، فقد عملوا ذلك بالضبط وتسمى هذه الطريقة الترقيم الأسّي . حيث يكتب الرقم ١٠ ، ثم فوقه يكتب رقم صغير على اليمين^(*) كرمز أعلى الرقم ، الذي يعبر عن عدد الأصفار الموجودة بعد الواحد. بذلك تكون ١٠ = ١٠ ، ١٠٠٠ ، ١٠٠٠٠ ، ١٠٠٠٠٠ = ١٠ ، ١٠٠٠٠ ، ١٠٠٠٠٠٠ ، ١٠٠٠٠٠٠٠ ، وهكذا . ويطلق على هذه الرموز الصغيرة الأسس أو القوى ، مثال لذلك ١٠ يتم التعبير عنها على أنها "١٠ مرفوعة إلى القوة ٩" أو ، بطريقة مماثلة "١٠ إلى التاسعة" (باستثناء ١٠ ، ١٠ التي يطلق عليها "١٠ تربيع" ١٠ تكعيب" على التوالي). وتزحف هذه الجملة "إلى القوة" - مثلها مثل كلمة "بارامتر" وعدد من المصطلحات العلمية والرياضية الأخرى - إلى لغة الحياة اليومية ، ولكن مع طمس المعنى وتشويهه باطراد .

إضافة إلى الوضوح ، يتمتع الترقيم الأسّي بفائدة جانبية: يمكن ضرب أي رقمين بمجرد جمع أسّيهما. وهكذا فإن ١٠٠٠×١٠٠٠٠٠٠٠٠٠ تكون $١٠^{٢٠}$ $١٠ = ١٠^{١٠}$. ولناخذ أرقامًا أكبر : إذا كان هناك $١٠^{١٠}$ نجم في المجرة النموذجية وتوجد $١٠^{١٠}$ مجرة ، فيكون هناك $١٠^{٢٠}$ نجم في الكون .

لكن مازال الترقيم الأسّي يشهد مقاومة من الأشخاص الذين يعانون من نرفزة شديدة في مواجهة الرياضيات (رغم أنها تبسط فهمنا ولا تعقده) وممن يجمعون الحروف المطبعية ، ويبدو أنهم يعانون من الضيق عندما يطبعون $١٠^{١٠}$ وتكون النتيجة $١٠^{١٠٠}$ (**). (جامعو الحروف في راندام هاوس يمثلون استثناء سارًا ، كما ترى بنفسك). ويوضح الإطار المرفق أول ستة أرقام كبيرة أصبح لها أسماء. وكل منها أكبر بمقدار ١٠٠٠ ضعف من الرقم الذي قبله . ولا يتم عادة استخدام الأرقام فوق التريليون . إذا أمكنك عد رقم كل ثانية ، نهارًا وليلاً ، قد تحتاج إلى أكثر

(*) على اليسار في العربية. (المترجم)

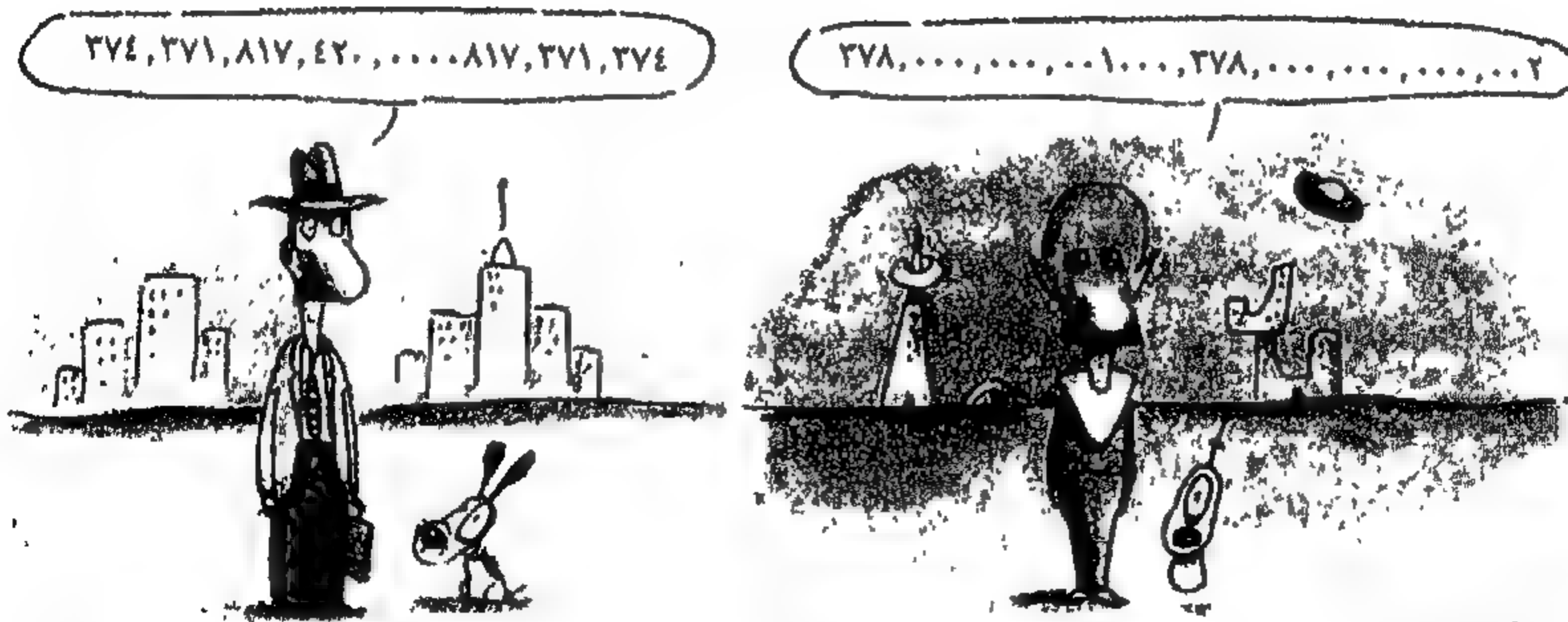
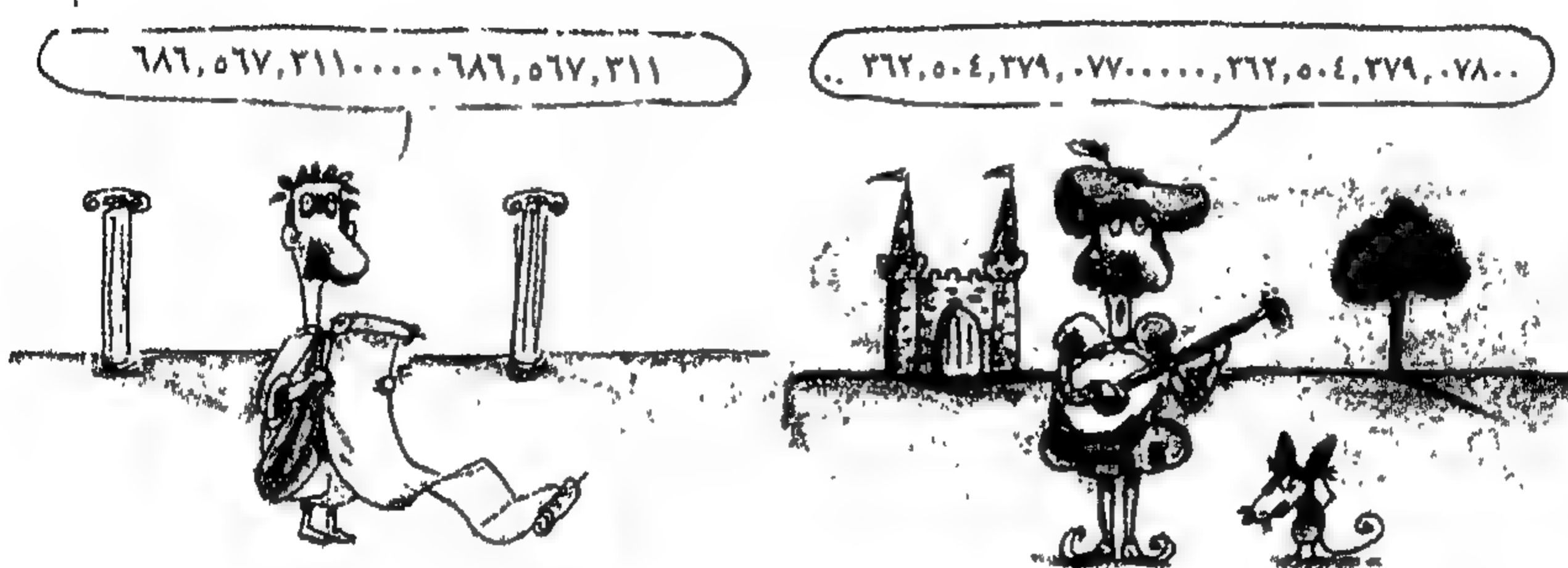
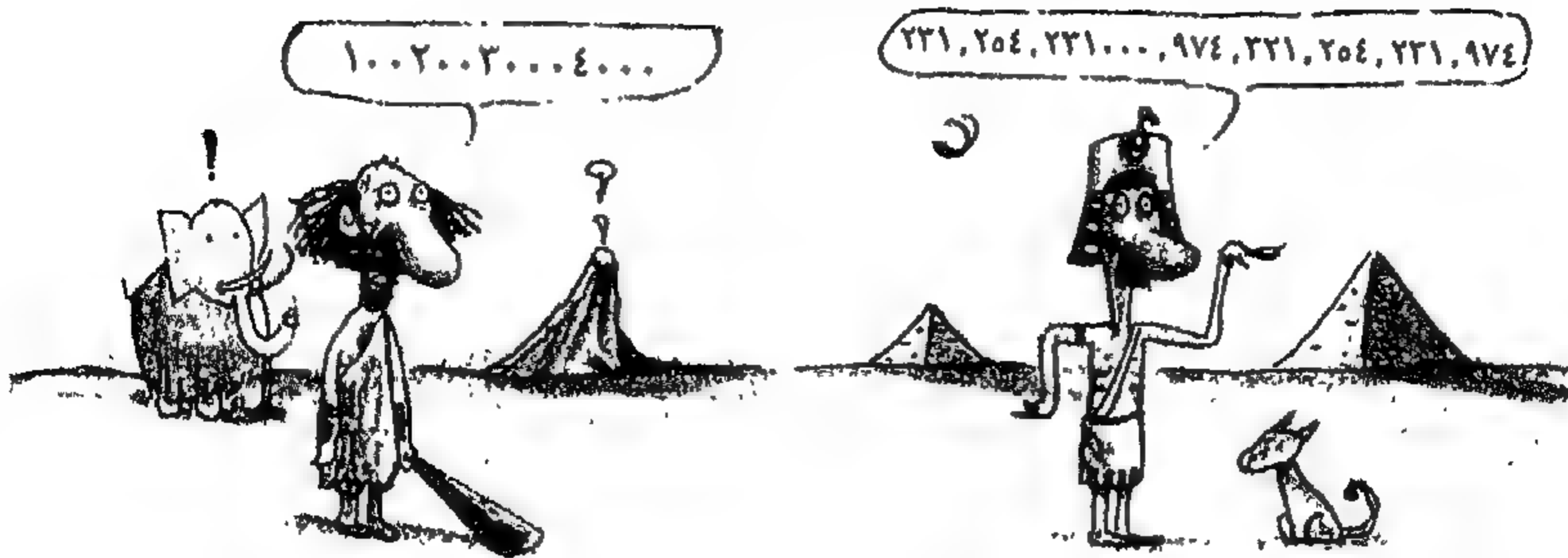
(**) في اللغة العربية $١٠^{١٠}$. (المترجم)

من أسبوع للعد من واحد إلى مليون وقد يستغرق عد البليون نصف
عمرك، ولا يمكنك الوصول إلى الكوينتليون إذا كان لك عمر الكون لتنتهى من العد
خلال عمرك .

بعد أن تكون قد برعت فى استخدام الترقيم الأسى، يمكنك التعامل بدون جهد
مع الأرقام الهائلة، مثل العدد التقريبى للميكروبات فى ملء ملعقة صغيرة من
التراب (١٠^٨)، أو عدد حبيبات الرمل على كل شواطئ الكرة الأرضية (قد يصل إلى
١٠^{٢٠})، أو عدد الكائنات الحية على الأرض (١٠^{٢١})، أو الذرات فى كل الحياة على
الأرض (١٠^{٤٠})، أو النوى الذرية فى الشمس (١٠^{٧٠}) ، أو عدد الجسيمات الأولية
(الكترونات، بروتونات، نيوترونات) فى الكون كله (١٠^{٨٠}) . ولا يعنى ذلك أنه
يمكنك تخيل بليون أو كينتيليون شىء فى مخك - ولا يستطيع أحد أن يفعل ذلك.
ولكن، باستخدام الترقيم الأسى، يمكننا التفكير فى مثل هذه الأرقام وحسابها .
وكان من حسن حظ الكائنات التى تعلم نفسها بنفسها والتى انطلقت فى حياتها
دون ممتلكات أن استطاعت أن تحصى رفاقها على أصابع يديها وقدميها .

تعتبر الأرقام الكبيرة فى الحقيقة جزءاً لا يتجزأ من العلم الحديث، لكننى
لا أريد أن أترك انطباعاً بأنه تم اختراعها فى زمننا .

مليارات ومليارات



الأرقام الكبيرة

الاسم	الرقم	الرقم	كم من الوقت
(الولايات المتحدة)	(بالكتابة)	(بالترقيم العلمي)	يلزم لعد هذا الرقم
			من صفر (عددًا واحدًا
			كل ثانية، ليلا ونهارا)
واحد	١	١٠	١ ثانية
ألف	١,٠٠٠	٢١٠	١٧ دقيقة
مليون	١,٠٠٠,٠٠٠	٦١٠	١٢ يومًا
بليون	١,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠	٩١٠	٣٢ عامًا
تريليون	١,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠	١٢١٠	٣٢,٠٠٠ عامًا
			(أطول من عمر الحضارة على الأرض)
كادريون	١,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠	١٣١٠	٣٢ مليون عام
			(أطول من عمر الإنسان على الأرض)
كوينتليون	١,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠	١٤١٠	٣٢ بليون عام
			(أكثر من عمر الكون)
والأرقام الأكبر يطلق عليها سيكستليون (١٠ ^{٢١})، سيبتليون (١٠ ^{٢٢})،			
أوكتيليون (١٠ ^{٢٣})، نونيليون (١٠ ^{٢٤})، وديشيلون (١٠ ^{٢٥}). وللأرض كتلة تصل إلى			
٦ أوكتليونات جرام.			

يتم أيضًا وصف هذا الترقيم العلمي أو الأسى بالكلمات، وبالتالي تكون أبعاد الإلكترون بتمامه فيمتومتر (10^{-10} م) وللضوء الأصفر طول موجي نصف ميكرومتر (0.5 ميكرو م) ، ويمكن للعين البشرية أن ترى بالكاد حشرة أبعادها عُشر ملليمتر (10^{-4} م)، ويصل نصف قطر الأرض إلى 6300 كيلومترًا (6300 كم $= 6.3$ مليون م) ، ويمكن أن يصل وزن جبل إلى 100 بيتاجرام (100 ب ج $= 10^{17}$ ج) . ويطلق على كل بادئة تعبر عن الوحدات الأساسية اسمٌ مثل بادئة الكيلو في الكيلو جرام والكيلومتر، وفيما يلي قائمة كاملة تتضمن هذه الوحدات:

الاسم	الرمز	القيمة	الاسم	الرمز	القيمة
أتو - atto	a	10^{-18}	ديكا - deka	-	10^1
فيمتو - femto	f	10^{-15}	هكتو - hecto	-	10^2
بيكو - pico	p	10^{-12}	كيلو - kilo	k	10^3
نانو - nano	n	10^{-9}	ميغا - mega	M	10^6
ميكرو - micro	u	10^{-6}	جيجا - giga	G	10^9
ميللي - milli	m	10^{-3}	تيرا - tera	T	10^{12}
سنتي - centi	c	10^{-2}	بيتا - peta	P	10^{15}
ديسي - deci	d	10^{-1}	إكسا - exa	E	10^{18}

كان علم الحساب الهندي لمدة طويلة قادرًا على التعامل مع الأرقام الكبيرة. يمكنك أن تعثر بسهولة في الصحف الهندية المعاصرة على إشارة عن فرض غرامة أو إنفاق بمائة ألف lakh أو عشرة ملايين crore روبية . ومفتاح هذه الرموز هو: $10 = \text{das}$, $100 = \text{san}$, $1000 = \text{hazar}$, $10^4 = \text{lakh}$, $10^5 = \text{crore}$, $10^6 = \text{arahb}$, $10^7 = \text{carahb}$, $10^8 = \text{nie}$, $10^9 = \text{padham}$, $10^{10} = \text{sankh}$. وقبل أن يبيد الأوروبيون حضارة المايا في المكسيك القديمة كان المايا قد ابتكروا مقياسا

زمنيا عالميًا قلل بعض الآلاف الضئيلة من السنوات التي كان الأوروبيون يعتقدون أنها قد مرت منذ خلق العالم. ويوجد من بين الآثار التي أخذت في الاندثار في كويا، في كوينتانارو، نقوش توضح أن المايا كانوا يتوقعون عمراً للكون يصل إلى ١٠٠ عامًا. كان الهندوس يعتقدون أن عمر التجسد الراهن للكون يعود إلى ٨,٦ × ١٠، وهو صحيح تقريبًا. وفي القرن الثالث قبل الميلاد افترض عالم الرياضيات الصقلي أرشميدس ، في كتابه "عداد الرمل" ، أن الأمر قد يحتاج إلى ١٠ من حبيبات الرمل لملء الكون. وفي المجالات الواقعية الضخمة، كانت بلايين وبلايين تعتبر عملة صغيرة حتى في ذلك الوقت .

الفصل الثانى

لوحة الشطرنج الفارسية

"ليست هناك لغة أوسع انتشارًا على المستوى العالمى وأكثر بساطة ، وأكثر تحررًا من الأخطاء والغموض، أى أكثر قدرة على التعبير عن العلاقات الدائمة بين الأشياء الطبيعية، ... أكثر من (الرياضيات) التى تعتبر موهبةً للعقل البشرى مكرسةً لتعويض قصر الحياة ونقص الحواس"

جوزيف فورييه

النظرية التحليلية للحرارة، معالجة تمهيدية (١٨٢٢)

حسب سماعى للقصة أول مرة، وقعت أحداثها فى بلاد فارس. لكنها قد تكون وقعت فى الهند أو الصين. وعلى أى حال، فقد حدثت فى قديم الزمان . كان الصدر الأعظم (أهم مستشارى الملك) قد اخترع لعبة جديدة، كانت تتم ممارستها بتحريك قطع على رقعة مربعة تتكون من ٦٤ مربعًا أحمر وأسود، وكانت أهم قطعة هى التى تمثل الملك. والقطعة التالية فى الأهمية هى التى تمثل الصدر الأعظم – تمامًا كما يجب أن نتوقع من لعبة يخترعها الصدر الأعظم. كان هدف اللعبة أن يموت ملك اللاعب المنافس، لذلك أطلق على اللعبة بالفارسية، الشاه "مات" ، والشاه هو الملك، و"مات" أى توفى . الموت للملك. ومازال يطلق عليها بالروسية "شاخمات"، الذى قد يعبر عن رأى ثورى متوارث .

وحتى فى إنجلترا مازالت ظلال الاسم موجودة - حيث يطلق على الحركة الأخيرة فى اللعبة^(*) check mate "أى الشاه معرض للموت". واللعبة هى الشطرنج بالطبع. وبمرور الزمن تم تطوير القطع وحركاتها وقواعد اللعبة ، ولم يعد هناك - مثلاً - الصدر الأعظم، حيث تحوّل بمثل فعل السحر إلى ملكة^(**) ، بسلطات أكثر ضخامة بكثير.

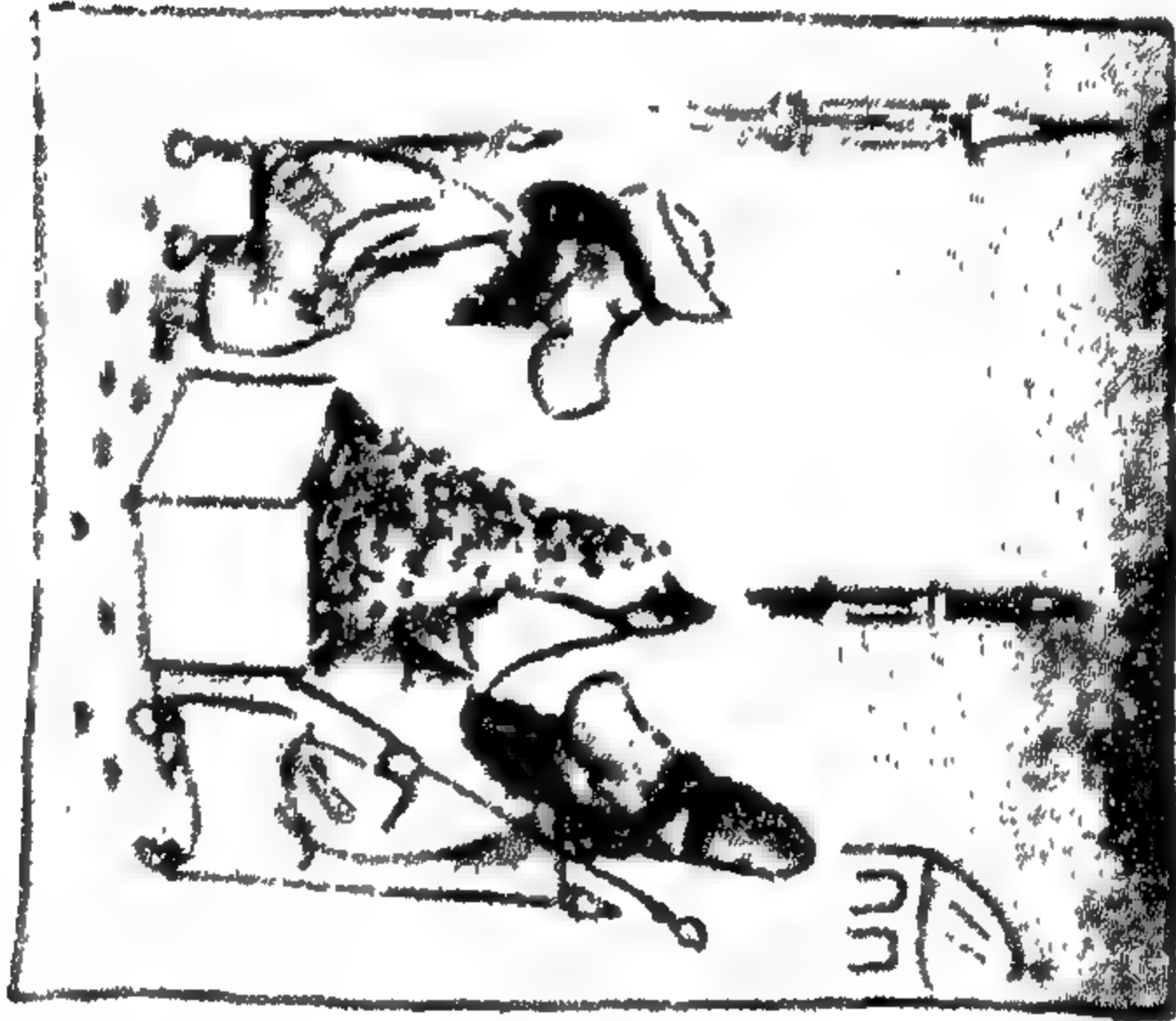
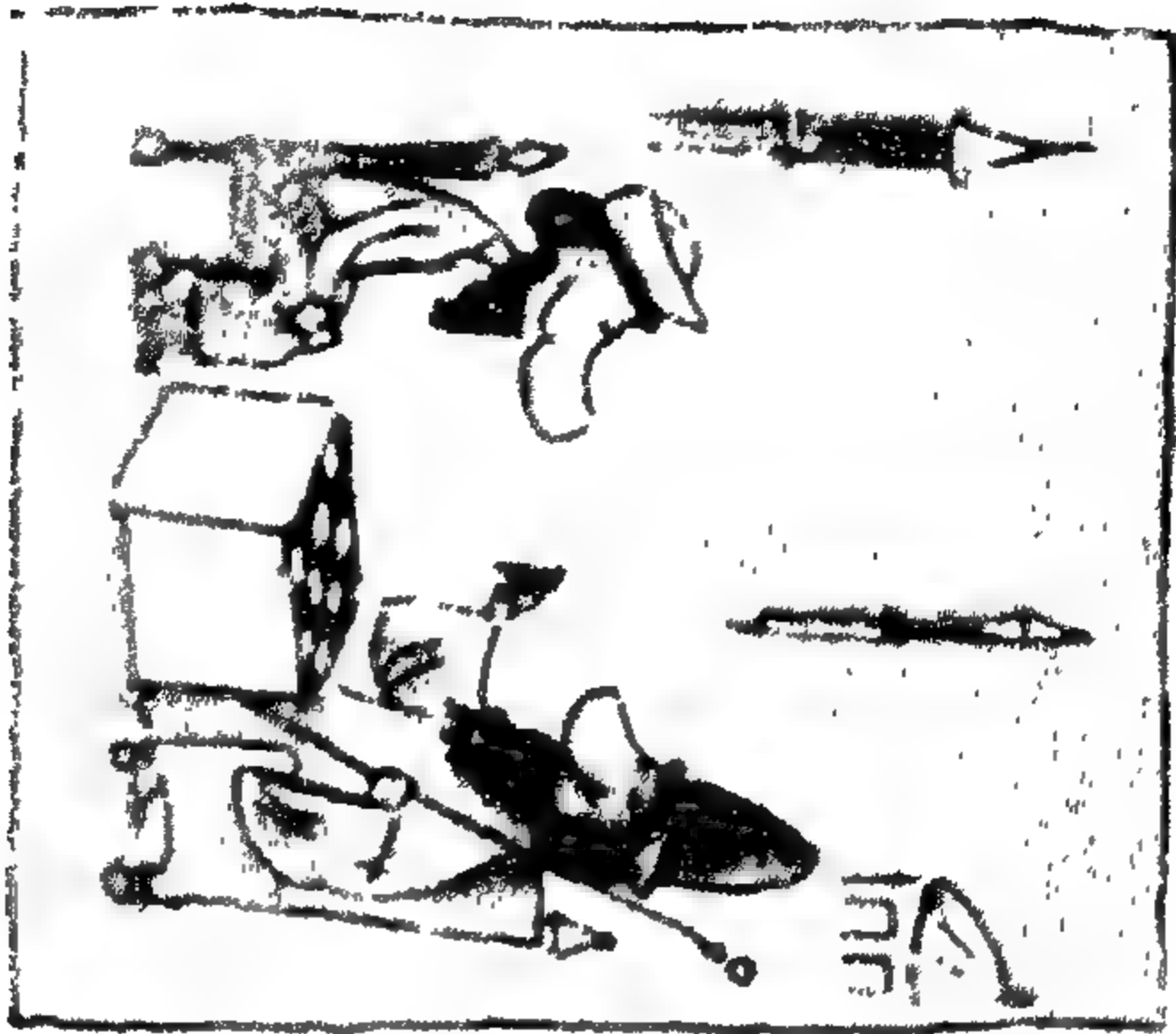
وما يجعل ملكاً يبتهج بلعبة يطلق عليها "الموت للملك"، إلا سر من الأسرار. لكن هكذا تستمر الحكاية ، كان الملك فى حالة سرور بالغة حتى إنه طلب من الصدر الأعظم أن يختار جائزته بنفسه تقديرًا له على هذا الاختراع العظيم . كانت إجابة الصدر الأعظم جاهزة ؛ كان رجلاً متواضعًا - كما قال للشاه - لم يكن يريد سوى جائزة متواضعة. ومع إيماءة منه تجاه الأعمدة الثمانية والصفوف الثمانية على رقعة اللعبة التى ابتكرها، طلب من الملك إعطاءه حبة قمح واحدة فى المربع الأول ، وضعف ذلك فى المربع الثانى، وضعف ذلك فى المربع الثالث ، وهكذا حتى يتم ملء كل مربع بنصيبه المحدد من القمح . احتج الملك قائلاً : لا، هذه مكافأة بالغة التواضع لمثل هذا الابتكار العظيم. وعرض على الصدر الأعظم جواهر وراقصات وقصورًا ؛ لكن الصدر الأعظم رفضها جميعًا ، وقد أرخى عينيه فى خجل. كان ما يتوق إليه مجرد أكوام صغيرة من القمح. ولما كان الملك معجبًا فى سيرته بتواضع وتحفظ مستشاره، فقد وافق.

وعلى كل حال عندما بدأ المسئول عن مخزن القمح الملكى عد حبات القمح ، واجه الملك مفاجأة غير سارة . بدأ عدد حبات القمح صغيرًا إلى حد ما : ٨ ، ١٦ ، ٣٢ ، ٦٤ ، ١٢٨ ، ٢٥٦ ، ٥١٢ ، ١٠٢٤ لكن مع الاقتراب من المربع الرابع والستين أصبح الرقم ضخماً إلى حد مذهل. وفى الواقع يصل هذا الرقم إلى نحو ١٨,٥ كوينتليون . ربما سيحصل الصدر الأعظم على وليمة دسمة .

ماذا يكون مقدار ١٨,٥ كوينتليون من حبات القمح؟ إذا كان حجم كل حبة ملليمترًا واحدًا فإن كل الحبوب معا قد يصل وزنها إلى ٧٥ بليون طن متري، وهو

(*) "كيش مات" كما تُقال فى العامية المصرية. (المترجم)

(**) أو الوزير. (المترجم)



ما يتجاوز بكثير ما قد يكون مخزوننا في مخازن قمح الشاه. وفي الواقع تناظر هذه الكمية من القمح نحو ما ينتجه العالم حاليًا من القمح لمدة ١٥٠ عامًا. ولم يصل إلينا ما حدث بعد ذلك. وليس متاحا لنا أن نعرف ما إذا كان الملك - العاجز عن الوفاء بوعده - قد لام نفسه على غفلته خلال دراسته للحساب، أو سلم المملكة لوزيره، أو ما إذا كان الوزير قد واجه محنة لعبة جديدة باسم "مات الوزير".

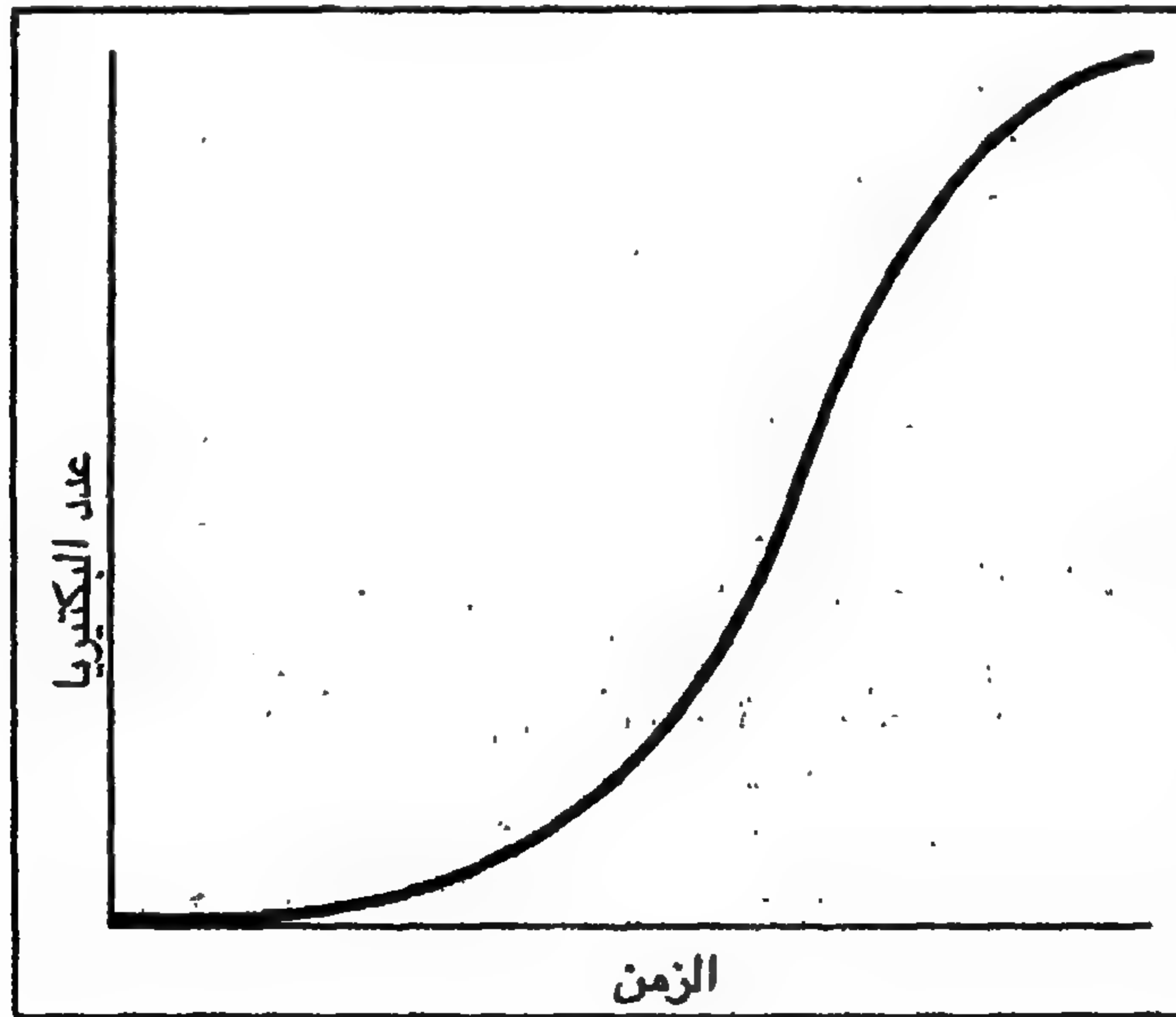
قد تكون قصة الشطرنج الفارسية مجرد خرافة. لكن الفرس والهنود القدامى كانوا روادًا أذكياء في الرياضيات، وفهموا الأرقام الضخمة الناتجة عن استمرار مضاعفة الأرقام. ولو كانت لوحة الشطرنج تتكون من ١٠٠ (١٠ × ١٠) مربع بدلا من ٦٤ (٨ × ٨) مربعًا، ل زاد وزن حبوب القمح المطلوبة عن وزن الكرة الأرضية. ويُطلق على مثل هذا التتابع للأرقام، حيث يكون كل رقم ضعف الرقم السابق عليه، "التتابع الهندسي"، ويطلق على العملية "التزايد الأسّي".

ويظهر التزايد الأسّي في كل أنواع المجالات المهمة، المؤلف منها وغير المؤلف، مثال لذلك الفائدة المركبة. فلو أن أحد أجدادك وضع ١٠ دولارات في البنك منذ مائتي عام مضت، أو بعد قليل من الثورة الأمريكية، وكانت تستحق فائدة ثابتة مقدارها ٥ في المائة، فإنها قد تصل الآن إلى ١٠ × (١,٠٥) ^{٢٠٠} دولار، أو ١٧٢٩٢٥,٨١ دولار. لكن قليلاً من الأجداد يكون لديهم مثل هذا الجزع على مصائر أحفادهم البعيدين، إضافة إلى أن ١٠ دولارات كانت مبلغًا ضخماً من المال في ذلك الزمن. "يعني الرقم (١,٠٥) ^{٢٠٠} مضاعفة الرقم ١,٠٥ نفسه ٢٠٠ مرة". وإذا حصل ذلك الجد على فائدة ٦ في المائة، كنت ستحصل الآن على أكثر من مليون دولار، وإذا كانت الفائدة ٧ في المائة تحصل على أكثر من ٧,٥ مليون دولار، وإذا ارتفعت إلى ١٠ في المائة، يتضخم المبلغ إلى ١,٩ بليون دولار.

وهكذا يكون التضخم أيضًا. إذا كان معدل التضخم ٥ في المائة فإن الدولار يساوي ٠,٩٥ دولار بعد عام واحد، (٠,٩٥) ^٢ = ٠,٩١ دولار بعد عامين، ٠,٦١ دولار بعد عشرة أعوام، ٠,٣٧ دولارًا بعد ٢٠ عامًا، وهكذا. وهذا أمر عملي جدًا بالنسبة للمتقاعدين الذين تصل معاشاتهم إلى مبلغ ثابت من الدولارات سنويًا بدون أي مراعاة للتضخم.

والحالة الأكثر شيوعًا للتضاعف المتكرر، وبالتالي للنمو الأسّي، تتمثل في

التكاثر البيولوجي . فلننظر أولاً إلى حالة بسيطة لجرثومة تتكاثر بانقسامها هي نفسها إلى اثنتين . بعد قليل ينقسم كل من الجرثومتين الشقيقتين بنفس الطريقة . وطالما يتوافر الطعام الكافي ولا توجد سموم في البيئة، تنمو مستعمرة الجراثيم أسياً ، وتحت ظروف ملائمة تماماً يمكن أن تحدث عملية التضاعف كل ١٥ دقيقة تقريباً . ويعنى ذلك أربع عمليات تضاعف كل ساعة و ٩٦ عملية تضاعف يومياً، ورغم أن وزن الجرثومة لا يتجاوز واحداً من ترليون من الجرام ، سيقترّب إجمالي وزن نسلها من وزن جبل، بعد يوم من المبالغة الجنسية الجامحة (التناسل)، وفي أكثر من يوم ونصف بقليل سيصل إلى ما يساوى وزن الكرة الأرضية ، وخلال يومين سيتجاوز وزن الشمس .. وقبل وقت طويل سيكون كل شيء في الكون مكوناً من الجراثيم . ليس ذلك مشهداً مبهجاً البتة ، ولحسن الحظ أنه لن يحدث أبداً . لماذا؟ لأن النمو الأسى من هذا النوع يصطدم دائماً ببعض العقبات الطبيعية . فالجراثيم تهرب من الطعام، وإلا فإنها تسمم بعضها البعض، أو أنها تكون خجلة من عملية التناسل في حالة صعوبة توافر أية عزلة خاصة . ولا يمكن للعمليات الأسية أن تستمر إلى الأبد، لأنها ستزدد كل شيء . وقبل ذلك بكثير ستواجه بعض الإعاقات . ويعتدل المنحنى الأسى عندئذ . (انظر الشكل).



وتعتبر هذا السمة بالغة الأهمية بالنسبة لوباء الإيدز ، فحتى الآن، ينمو عدد الأشخاص المصابين بأعراض الإيدز فى كثير من البلدان بشكل أسى ، وزمن التضاعف عام تقريبا . أى أنه خلال كل عام يوجد ضعف حالات الإيدز التى كانت موجودة فى العام السابق له . لقد أخذ منا الإيدز ضريبة باهظة ، ولو استمر بشكل أسى ، كان من الممكن له أن يصبح كارثة غير مسبوقة، حيث سيكون هناك بعد ١٠ سنوات حالات إيدز مضاعفة آلاف المرات، وفى ٢٠ عاما تتضاعف ملايين المرات، لكن المضاعفة ملايين المرات لعدد المصابين فعلا بالإيدز أكثر بكثير من عدد سكان الكرة الأرضية . إذا لم تكن هناك إعاقات طبيعية لعملية التضاعف المستمرة لحالات الإيدز سنويا وإذا كان المرض مميتا لا محالة (ولم يُعثر على علاج له) فسيموت كل شخص على الكرة الأرضية بسبب مرض الإيدز ، ولن يستغرق ذلك وقتا طويلا ، ومع ذلك يبدو لدى بعض الناس مناعة طبيعية ضد الإيدز . وأيضا - تبعا لمركز الأمراض المعدية للخدمات الصحية العامة فى الولايات المتحدة - كان التضاعف الأولى فى أمريكا محصورا بشكل كامل تقريبا بين المجموعات المعرضة للإصابة والمعزولة جنسيا عن باقى السكان، خاصة الذكور الشواذ جنسياً ، والمصابون بالنزف الدموى ، مدمنو تناول المخدرات عن طريق الأوردة . وإذا لم يتوافر علاج لمرض الإيدز، فإن أغلب مدمنى المخدرات عن طريق الأوردة الذين يستخدمون نفس الإبر تحت الجلد يموتون، ولن يموتوا جميعا، حيث يوجد بعض الذين لديهم مقاومة طبيعية، لكن سيموت معظمهم . ونفس الشيء حقيقى بالنسبة للرجال الشاذين جنسيا متعددى الشركاء الذين يمارسون جنسا غير آمن، وليس هو نفس الأمر بالنسبة لمستخدمى الواقيات اللازمة، هؤلاء أصحاب العلاقات الأحادية طويلة، الأمد ومرة أخرى يستثنى من ذلك عدد قليل ممن لديهم مناعة طبيعية .

ومرض الإيدز بعيد تماما عن الأزواج الأسوياء تماما فى الانجذاب إلى الجنس المخالف وتمتد علاقاتهم الأحادية إلى مدى طويل يمتد إلى بدايات الثمانينيات ، أو من يتصفون بالحذر فى ممارسة الجنس الآمن ، هؤلاء الذين لا يستخدمون إبراً

مشتركة ، ويوجد منهم الكثير . ويعد أن اعتدلت منحنيات المجموعات السكانية الأكثر تعرضًا لهذا المرض ، سوف تحل محلهم مجموعات أخرى ، وفى أمريكا حاليًا يبدو أن هذه المجموعات هى الشباب الشاذون جنسيا بالنسبة لكلا الجنسين ، حيث قد تطفئ الشهوة على الحذر فيمارسون جنسًا غير آمن . سوف يموت الكثير منهم ، قد يكون بعضهم محظوظا أو لديه مناعة طبيعية، أو غير مسرفين ، وسوف تحل محلهم مجموعة أخرى أكثر تعرضا للمرض ، ربما تكون الجيل الثانى من الرجال الشاذين جنسيًا .

وأخيرًا يتوقع أن يعتدل المنحنى الأسى الخاص بنا جميعًا ، بعد أن يكون المرض قد قتل عددا كبيرا أقل بقليل من كل سكان الأرض ، (بعض العزاء لضحايا هذا المرض الكثيرين ومن يحبونهم) .

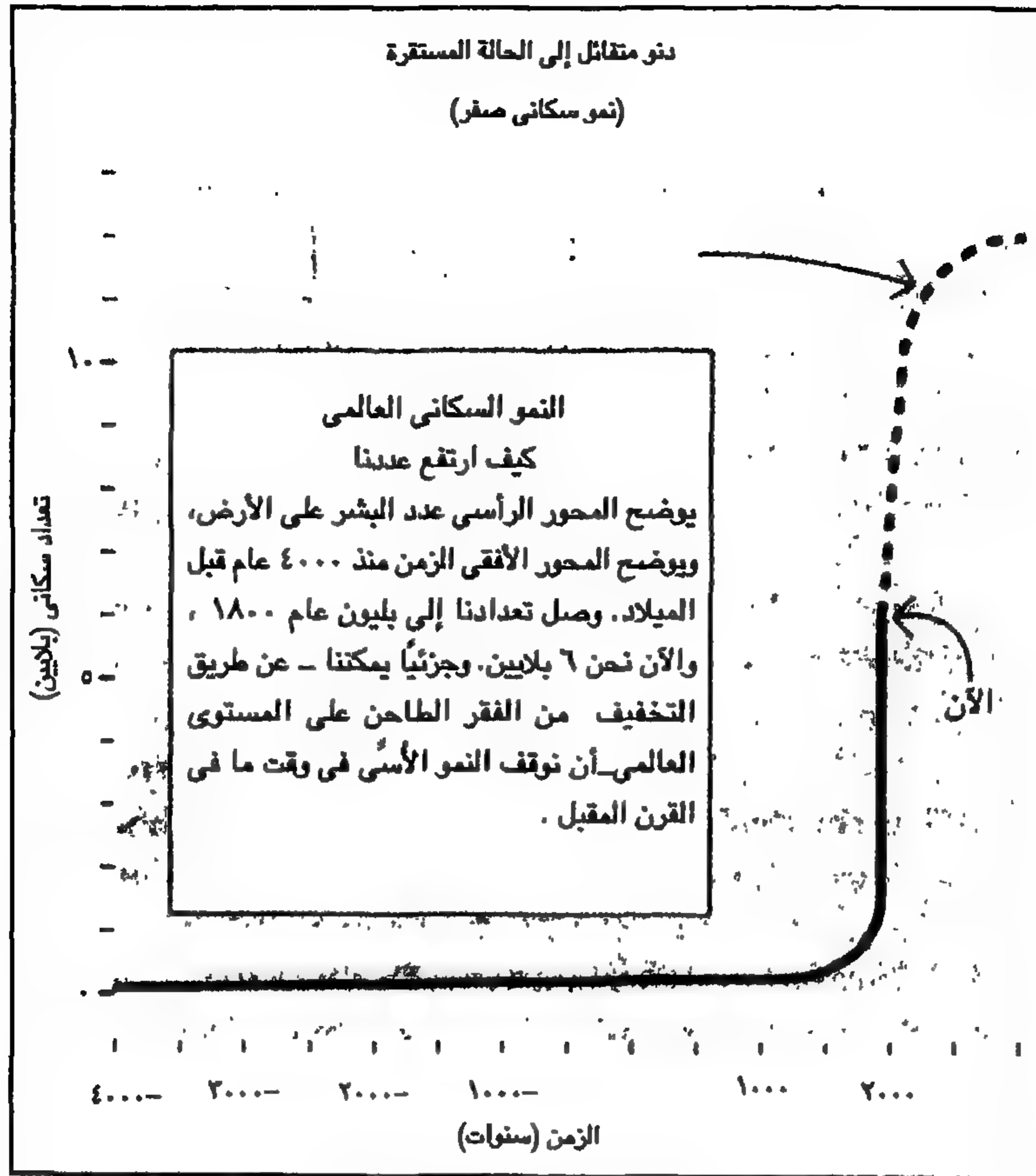
وعمليات النمو الأسى تعتبر أيضا التفسير الأساسى لأزمة الزيادة السكانية فى العالم ، وفى معظم الزمن الذى عاشه البشر على الأرض كان تعداد السكان متوازنًا ، ويطلق على هذا الوضع "حالة مستقرة" ، بعد اكتشاف الزراعة - بما فى ذلك زراعة وحصاد حبوب القمح التى كان الصدر الأعظم يتوق إليها - بدأ البشر سكان هذا الكوكب فى الزيادة ، داخلين بذلك فى مرحلة أسية تبعد تمامًا عن الحالة المستقرة.

وحتى الآن يصل زمن التضاعف لتعداد السكان عالميا إلى نحو ٤٠ عامًا . أى كل ٤٠ عاما سيكون هناك ضعف عددنا الراهن . وكما أوضح القس الإنجليزى توماس مالتوس فى عام ١٧٩٨ ، سوف تتجاوز حاجة السكان الذين يزداد عددهم أسيا - وهو ما وصفه مالتوس بأنه تتابع هندسى - أية زيادة قابلة للتصور فى الموارد الغذائية. فلا يمكن لأية ثورة خضراء ، أو زراعة مائية بعيدا عن التربة ، أو حتى جعل الصحراء نضرة بالمزروعات ، التغلب على النمو السكانى الأسى .

ولا يوجد أيضا حل لهذه المشكلة من خارج كوكب الأرض. وحتى الآن يوجد نحو ٢٤٠٠٠٠ مولود بشرى يتجاوزون عدد الوفيات يوميا . وكم هو بعيد جدًا أن نستطيع شحن ٢٤٠٠٠٠ شخص إلى الفضاء يوميا .

ولا يمكن لأي عمليات استيطان لمدار الأرض أو على القمر أو أى كواكب أخرى أن يتيح تأثيرًا ملموسًا على الانفجار السكاني . حتى لو كان من الممكن نقل كل شخص على الأرض إلى كواكب النجوم البعيدة بسفن فضائية تنطلق بسرعة أعلى من سرعة الضوء ، لن يغير ذلك من الأمر كثيرًا – حيث ستمتلئ تمامًا كل الكواكب القابلة للسكنى فى مجرة درب التبانة خلال ألف عام تقريبًا . هذا إذا لم نبطئ من معدل نمونا السكاني ، من هنا يجب أن لا نقلل من خطورة التزايد الأسى .

ويوضح الشكل التالى تعداد سكان الكرة الأرضية الذى نما مع الزمن، ومن الواضح أننا فى (أو على وشك الخروج من) مرحلة نمو أسى حاد . لكن كثيرًا من الدول ، مثل الولايات المتحدة ، وروسيا ، والصين قد وصلت أو على وشك الوصول إلى وضع يكون فيه تعدادها السكاني قد توقف ، حيث إنها وصلت إلى وضع أقرب ما يكون إلى الحالة المستقرة. ويطلق على هذا الوضع أيضًا النمو السكاني الصفري ZPG. ولأن الزيادة الأسية بالغة القوة ، يبقى أن نقول إنه حتى لو واصل جزء صغير من المجتمع البشرى النمو أسيا بعض الوقت فسوف يظل الموقف هو نفسه من الناحية الأساسية – أى زيادة التعداد السكاني العالمى أسيا ، حتى لو ظل كثير من البلدان عند وضع النمو السكاني الصفري .



يوجد ارتباط مؤثق جيداً على المستوى العالمي بين الفقر وارتفاع معدلات المواليد ، ففي البلدان الصغيرة أو الكبيرة ، والبلدان الرأسمالية أو الشيوعية ، والبلدان الكاثوليكية أو الإسلامية ، والبلدان الغربية أو الشرقية يتباطأ أو يتوقف النمو السكاني الأسّي ، في أغلب تلك الحالات ، عندما يختفي الفقر الطاحن ، ويطلق على هذه الحالة التحول الديموجرافي ، وهذا هو سبب أن مساعدة البلدان الأخرى في الاعتماد على النفس ليس مجرد موقف أساسي أخلاقي فاضل ، لكنه أيضاً اهتمام بالنفس لدى البلدان الأغنى القادرة على المساعدة . من هنا فإن أحد القضايا الأساسية في أزمة السكان العالمية هو الفقر .

والاستثناءات فى مجال التحول الديموجرافى من الأمور المثيرة، فمازال لدى بعض البلاد التى تتمتع بارتفاع الدخل لكل شخص ارتفاع فى معدل المواليد ، ولكن يندر فى تلك البلاد أن تكون وسائل منع الحمل متاحة ، وتفتقر النساء إلى قوة سياسية فعّالة ، أو يكون هذا الافتقار وحده هو السبب ، وليس من الصعب فهم العلاقة بين السببين .

يوجد فى الوقت الحالى نحو ٦ بلايين إنسان ، وإذا استمر زمن التضاعف ثابتا خلال ٤٠ عاما سيكون هناك ١٢ بليوناً بعد ٨٠ عاما ٢٤ بليوناً ، وبعد ١٢٠ عاماً ٤٨ بليوناً ... وقلّ من يصدق أن الأرض يمكنها إعالة كل هؤلاء البشر. وبسبب قوة هذا التزايد الأسى ، فإن التعامل مع الفقر العالمى الآن سيكون أقل تكلفة وأكثر إنسانية بكثير - على ما يبدو- مقارنة بأية حلول قد تكون متوافرة لدينا لعدة عقود لاحقاً ، والمطلوب منا أن نضمن تحولا ديموجرافيا ، وأن نضمن الحصول على منحني أسى معتدل عن طريق التخلص من الفقر الطاحن، والتوصل إلى طرق آمنة وفعّالة لتنظيم المواليد تكون متوافرة على نطاق واسع، وإتاحة مزيد من القوة السياسية الحقيقية (تنفيذية ، وتشريعية ، وقضائية ، وعسكرية ، وفى المؤسسات المؤثرة على الرأى العام) للنساء، فإذا فشلنا فى ذلك ستقوم بعض العمليات الأخرى - وستكون قدرتنا على السيطرة عليها أقل - بهذه المهمة نيابة عنا .

لنتحدث عن أى منها ...

تم التفكير فى الانشطار النووى لأول مرة فى لندن فى سبتمبر عام ١٩٣٣ بواسطة عالم الفيزياء المجرى اللاجئ ليو سزىلارد كان يتساءل حول ما إذا كانت الموهبة البشرية قادرة على اكتشاف الطاقات الهائلة المختبئة فى نواة الذرة، وسأل نفسه ماذا يمكن أن يحدث إذا تم قذف نيوترون على نواة ذرية ، (ولأن النيوترون ليس له شحنة كهربائية ، لن يواجه بمقاومة كهربائية من البروتونات فى النواة، وبدلاً عن ذلك فإن النيوترون يتصادم مباشرة بالنواة) ، وخلال انتظاره لتغير إشارة المرور فى تقاطع فى ساوثهامبتون رو ، بدا له أنه قد يكون ضرورياً وجود مادة ما ، عنصر كيميائى ما ، يمكن أن يخرج منه نيوترونان إذا ارتطم به نيوترون واحد ، ويمكن أن يطرد كل من النيوترونين مزيداً من

النيوترونات . وعندئذ تجلى فجأة فى عقل سزىلارد طيف تفاعل نووى متسلسل ، مع إنتاج أرقام أسية من النيوترونات وانشطارات للذرات شمالاً ويميناً .

وفى تلك الأمسية ، فى حجرته الصغيرة فى فندق ستراند بالاس، توصل سزىلارد بالحساب إلى أن بضعة أرتال فقط من المادة – إذا أمكن إجراء تفاعل نووى متسلسل منتظم لها – تنتج طاقة كافية لتغطية احتياجات مدينة صغيرة لمدة عام كامل ... أو ، إذا تم إنتاج الطاقة بشكل مفاجئ ، فإنها تكون كافية لتدمير تلك المدينة تماماً . وفى آخر الأمر هاجر سزىلارد إلى الولايات المتحدة ، وبدأ بحثاً منظماً حول كل العناصر الكيميائية لمعرفة ما إذا كان أحدها ينتج مزيداً من النيوترونات أكثر من تلك التى تتصادم معها ، بدا اليورانيوم أحد تلك العناصر المرشحة الواعدة. أقنع سزىلارد ألبرت أينشتاين بكتابة خطابه الشهير إلى الرئيس روزفلت مطالباً الولايات المتحدة بصنع قنبلة ذرية ، ولعب سزىلارد دوراً مهماً فى أول تفاعل نووى متسلسل فى شيكاغو عام ١٩٤٢ ، وهو الذى أدى فى الواقع إلى صنع القنبلة النووية ، وقضى ما تبقى من حياته محذراً من مخاطر الأسلحة التى كان أول من فكر فيها. لقد عثر – ولو بطريقة أخرى – على القوة المرعبة للنمو الأسى .

لكل شخص أبوان، وأربعة أجداد وثمانية آباء للأجداد ، و ١٦ جداً للأجداد ، وهكذا ، وكلما عدنا جيلاً إلى الوراء ، نجد ضعف عدد الأجداد الأعلى المباشرين ، يمكنك استنتاج أن أمامك ما يشبه تماماً نفس نوع مشكلة رقعة الشطرنج الفارسية ، إذا كان الجيل ٢٥ عاماً فإن ٦٤ جيلاً مضت تكون قد استغرقت $25 \times 64 = 1600$ عام مضت، أو قبل سقوط الإمبراطورية الرومانية بوقت قليل، وهكذا (انظر إلى الإطار) كل من يعيش منا الآن كان له عام ٤٠٠ نحو ١٨،٥ كوينتليون جد – أو نحو ذلك ، ولا يشير هذا إلى ما يتعلق بالأقارب ذوى القرابة البعيدة ، لكن ذلك أكثر بكثير من تعداد سكان الكرة الأرضية ، عندئذ أو الآن ، وهو أكثر بكثير من العدد الكلى للبشر الذين وجدوا حتى الآن .

شئ ما خطأ فى حساباتنا ، ما هو ؟ حسناً ، لقد افترضنا أن كل هؤلاء الأجداد المباشرين أشخاص مختلفون ، لكن بالطبع ليس هذا صحيحاً ، فنفس الجد يكون قريباً لنا عبر أصول مختلفة. فنحن نرتبط تضاعفياً بطريقة متكررة بكل من أقاربنا خلال مرات كثيرة بالنسبة للأقارب الأبعد .

بين المتكلمين باللغة الإنجليزية. عندما ينتمى شخصان لنفس الوطن أو الثقافة ، أو يكونان من نفس البقعة الصغيرة من العالم ، ويكون تلسل أنسابهما مسجلاً جيداً ، فإنه من المرجح إمكانية اكتشاف آخر جد مشترك لهما ، وسواء كان من الممكن اكتشاف ذلك أو لا فإن علاقات القرابة واضحة . كل منا يرتبط بعلاقات أبناء العم والخال مع كل من على الأرض .

هناك شكل آخر للنمو الأسّي يتمثل في فكرة العمر النصفى. ينحل عنصر "أصل" إشعاعى، البلوتونيوم مثلاً ، أو الراديوم إلى عنصر "وليد" آخر ، ربما يكون أكثر أمناً ، لكن ذلك لا يتم دفعة واحدة. لكنه ينحل بطريقة إحصائية ، هناك زمن محدد ينحل نصف العنصر خلاله ، ويطلق على هذا الزمن العمر النصفى . ثم ينحل الجزء الباقي خلال عمر نصفى آخر ، وهكذا. مثال لذلك ، إذا كان العمر النصفى عامّاً ، فالنصف ينحل فى عام ، ونصف النصف أو الكل ما عدا الربع ينحل خلال عامين ، والكل عدا الثمن فى ثلاث سنوات ، والكل عدا نحو جزء من ألف فى عشرة أعوام، إلخ. والعناصر المختلفة لها أعمار نصفية مختلفة. والعمر النصفى موضوع مهم عند محاولة تقرير ما يمكن عمله بالنسبة للنفاية المشعة الناتجة عن محطة توليد طاقة نووية أو فى معرفة حجم الغبار الذرى المشع المتوقع فى الحرب النووية. وتمثل هذه الظاهرة انحلالاً أسّياً ، بنفس طريقة تمثيل رقعة الشطرنج الفارسية للزيادة الأسّية.

والانحلال الإشعاعى يعتبر وسيلة رئيسية فى تحديد تاريخ فى الماضى؛ فإذا أمكننا قياس كمية مادة الأصل المشع وكمية انحلال وليده الموجود فى عينة ما، يمكن معرفة عمر هذه العينة بالتقريب. وبهذه الطريقة توصلنا إلى أن ما يطلق عليه كفن تورين ليس كفن قبر المسيح ، لكنه خدعة دينية من القرن الرابع عشر (عندما شجبتها السلطات الكنسية) ، وتوصلنا إلى أن البشر أشعلوا نيران المخيمات منذ ملايين السنين ، وأن معظم حفريات الحياة القديمة على الأرض تعود إلى ٣,٥ بليون سنة على الأقل ، وأن عمر الأرض نفسها ٤,٦ بليون سنة. وعمر الكون يبلغ، بالطبع، بلايين السنين حتى الآن . إذا فهمت العمليات الأسّية، فإن مفتاح كثير من أسرار الكون ستكون بين يديك.

إذا عرفت شيئاً ما بطريقة كيفية فإن معرفتك به لن تزيد عن كونها معرفة غامضة. فإذا عرفته كمياً - مدركاً بعض القياسات الرقمية التي تميزه عن عدد غير متناه من الاحتمالات الأخرى - ستكون قد بدأت في معرفته بشكل عميق، ستكون قد أدركت بعضاً من جماله وتحصل على مدخل إلى قوته والفهم الذي يتيح ذلك لك. وخوفك من القياس مساو لحرمانك نفسك من حقوقك، متخلياً عن أحد أهم الإمكانات المهمة في فهم وتغيير العالم .

الفصل الثالث

الصيد مساء الاثنين

لغريزة الصيد ... أصل عميق فى تطور الجنس البشرى .
يجتمع الصيد وغريزة القتال فى كثير من المظاهر ... ذلك لأن
الوحشية البشرية جزء بدائى داخلنا يصعب استئصاله، خاصة
عندما يعتبر القتال أو الصيد جزءاً من اللهو.

وليم جيمس

علم النفس ، ٢٤ (١٨٩٠)

لا يمكننا مقاومة هذا الأمر بأنفسنا. ففي أمسيات الأحد وفى ليالى الاثنين
مع خريف كل عام، نترك كل شىء لمشاهدة صور صغيرة متحركة لـ ٢٢ رجلاً
يجرون ويصطدمون ببعضهم البعض، ويسقطون، ويتحفظون، ويصوبون إلى الهدف
شيئاً ممدوداً مصنوعاً من جلد حيوان. وبين وقت وآخر، يندفع اللاعبون
والمشاهدون الجالسون إلى الانفجار أو اليأس تبعاً لأحداث المباراة. ويحدث أن
الجميع عبر أمريكا، كل الناس (أغلبهم من الرجال) يقعون مشلولين أمام شاشات
زجاجية، يهللون أو يدمدمون بنغمات منسجمة. وقد يبدو الأمر سفيهياً، ولكن بمجرد
تعلقك به يصبح من الصعب مقاومته، وأنا أتكلم من خلال تجربتى الخاصة .

تنطلق الألعاب الرياضية : الجرى، والقفز، والضرب، والتزلج، والقذف، وإصابة
الهدف، والإمساك بالخصم، مع الإثارة التى تصاحب رؤية الآخرين يمارسون

هذه الأنشطة. يتصارع الخصمان حتى يسقط كل منهما الآخر على الأرض، ويختطفون بعنف شيئاً سريع الحركة أسمر أو أبيض أو يضربونه أو يوجهونه إلى الهدف. وفي بعض المباريات يحاولون أن يسوقوا شيئاً ما تجاه ما يطلق عليه "مرمى"، وفي ألعاب أخرى يفر اللاعبون ثم يعودون إلى "الهدف". والعمل الجماعي هو كل شيء تقريباً، وتثير إعجابنا الطريقة التي تتآلف بها الأحداث الجزئية معاً لتجعل الابتهاج كاملاً.

لكن هذه الأنشطة ليست هي المهارات التي يكسب أغلبنا خبره اليومي بها. فلماذا علينا أن نشعر بأننا مجبرون على مشاهدة أناس يجرون ويضربون؟ ولماذا يكون هذا الاحتياج مشتركاً بين الثقافات المختلفة؟ (كان قدماء المصريين، والفرس، واليونانيون، والرومان، والمايانيون، والأزتك يلعبون أيضاً الكرة. ولعبة البولو أصلها من التبت).

من بين نجوم الرياضة من يكسب ٥٠ ضعف المرتب السنوي لرئيس الولايات المتحدة، وبعضهم يتم انتخابهم هم أنفسهم - بعد اعتزالهم - لشغل مراكز قيادية. وهم أبطال قوميون. لماذا بالضبط؟ هناك شيء ما مشترك يتجاوز اختلاف الأنظمة السياسية، والاجتماعية، والاقتصادية. شيء يعود إلى الماضي.

ترتبط أغلب الألعاب الرياضية الأساسية بدولة ما أو مدينة، وتحمل معها عناصر من الوطنية والافتخار بالمدينة. فريقنا "يمثلنا" - أينما كنا نعيش، فإنهم يمثلون شعبنا - ضد هؤلاء الأشخاص من مكان ما آخر، الذي يسكنه أناس غرباء قد يكونون معادين لنا (وفي الحقيقة فإن أغلب "لاعبينا" ليسوا في الواقع من هنا، فهم مرتزقة ينهون ولاءهم بشكل منتظم بضمير لا تشوبه شائبة للمدن المتنافسة مقابل تعويض مناسب: فمن فريق بيتسبورج بيريت من يعاد تأهيله لكاليفورنيا أنجل، ومن سان دييجو بادر من ينتقل إلى سانت لويس كاردينال، وهناك من يتم تتويجه في جولدن ستيت واريور ليلتحق بساكرامينتو كينج. وأحياناً يتم التقاط فريق كامل لترحيله إلى مدينة أخرى).

تعتبر الألعاب الرياضية التنافسية معارك رمزية، متنكرة بشكل غير متقن، ومن الصعب ادعاء أن هذا القول يمثل نفاذ بصيرة جديداً. كان لدى أفراد قبيلة

هنود الشيروكي في أمريكا الشمالية شكل قديم للعبة اللكروس^(٥) أطلقوا عليها "الأخ الصغير للحرب". أو ها هو ماكس رافيرتي (المشرف الأعلى السابق في كاليفورنيا على التعليم العام) بعد أن اتهم فريق كرة القدم في الكلية بأنهم "مجانين، تافهون شيوعيون وجوذيون صاخبون كثيفو الشعر" يعود ليقرر "لاعبو كرة القدم .. إنهم يملكون روحًا صافية مبتهجة ومحاربة وهو ما تتصف به أمريكا نفسها" (وهو ما يستحق التفكير فيه مليًا). ويشيع الاستشهاد برأي مدرب كرة القدم المحترف السابق فينس لومباردي القائل بأن الشيء الوحيد الذي يجب وضعه في الاعتبار هو الفوز. ويصيفها مدرب واشنطن ريدسكينس السابق جورج ألين بهذه الطريقة: "الهزيمة تعنى الموت".

حقًا، نحن نتكلم عن كسب وخسارة حرب كما نفعل عادة عندما نتحدث عن الفوز أو الخسارة في مباراة. وفي إعلان تليفزيوني عن التجنيد للجيش الأمريكي، نرى آثار التدريب على معركة بالمدفعات حيث تدمر إحدى الدبابات دبابة أخرى، وعلى رأس المشهد، يقول قائد الدبابة المنتصرة "عندما نفوز، يفوز الفريق كله _ وليس فرد واحد منه". والارتباط بين الألعاب الرياضية والمعركة أصبح بالغ الوضوح. ومعروف أن مشجعي الألعاب الرياضية fans (كلمة مأخوذة من Fanatics أي متعصبون) يعتدون على بعضهم البعض ويصل الأمر إلى الضرب بل والقتل أحيانًا، عندما يواجهون سخريه مهينة بسبب فريق خاسر، أو عندما يتم منعهم من تشجيع فريقهم الفائز، أو عندما يشعرون بأن ظلمًا وقع عليهم من قبل حكام المباراة.

اضطر رئيس وزراء بريطانيا في ١٩٨٥ إلى استنكار السلوك المشاكس السكير لمتعصبي كرة القدم البريطانيين الذين هاجموا أحد الإيطاليين بسبب وقاحة وجهت إليهم وهم يشجعون فريقهم. ومات العشرات بسبب انهيار المدرجات. وفي عام ١٩٦٩ - بعد معركة شرسة في ثلاثة مباريات كرة قدم، اقتحمت دبابات سلفادور حدود هوندوراس، وهاجمت قاذفات القنابل موانئ هندوراس وقواعدها العسكرية. وفي "حرب كرة القدم" هذه ، وصل عدد الضحايا إلى الآلاف.

(٥) لعبة يحاول المشتركون فيها تسديد الكرة بمضارب طويلة المقابض إلى مرمى الخصم . (المترجم)

كان رجال القبائل الأفغانية يلعبون البولو برءوس أعدائهم السابقين المقطوعة. ومنذ ٦٠٠ عام مضت، فيما يعرف الآن بمكسيكو سيتي، كان هناك ملعب كرة حيث كان النبلاء بالملابس الفاخرة بكل بهائهم يشاهدون فرقاً تتنافس مرتدية ملابس متماثلة، كان يتم قطع رأس قائد الفريق المهزوم، مع عرض جماجم القادة الخاسرين السابقين على حوامل - وهى طريقة إقناع قد تتضمن إجباراً أشد حتى من الإجبار فى حالة الفوز بمباراة من أجل جيبير Gipper^(*).

افترض أنك تنتقل بين أرقام برامج البث بكسل فى جهاز التليفزيون فى منزلك، وعثرت على مباراة لن تهبك أى انفعال عاطفى خاص، مثلاً مباراة كرة طائرة خارج الموسم بين ميانمار وتايلاند، كيف تأخذ قراراً بتشجيع فريق ما؟ انتظر لحظة: لماذا لا تشجع كليهما؟ لماذا لا تكتفى بمجرد التمتع بالمباراة؟ يواجه أغلبنا مشكلة تجاه حالة اللاتحيز هذه. نحب أن يكون لنا دور فى المنافسة، أن نشعر بأنفسنا كما لو كنا ضمن أفراد الفريق. يكتسحنا هذا الشعور بسهولة، وعندئذ ننتقل فى التشجيع، "هيا ميانمار". فى البداية قد تتذبذب ولأتينا، نتحمس أولاً لفريق ما ثم ينتقل حماسنا إلى الآخر. ونشجع أحياناً الفريق الخاسر. وفى أحيان أخرى قد يصل الأمر إلى تحويل ولائنا من الخاسر إلى الرابع كلما بدت النتيجة أكثر وضوحاً. (عندما تحدث سلسلة من الهزائم الموسمية، يميل ولاء المشجع إلى فريق آخر). إننا نبحث عن النصر بدون جهد. نريد أن نصبح مكتسحين بشيء ما مثل حرب صغيرة، آمنة، وناجحة.

(*) أطلق لقب جيبير Gipper على جورج جيب George Gipp الذى ولد فى ١٨٩٥ وحاز شهرة واسعة فى الألعاب الرياضية الأمريكية على مستوى الجامعات ثم فى كرة القدم على المستوى القومى. وأصيب بمرض أدى إلى وفاته وعمره ٢٥ عاماً وقبل وفاته أوصى مدربه بأنه فى حالة اقتراب الفريق من الهزيمة عليه أن يدعو اللاعبين إلى بذل أقصى ما فى وسعهم للفوز ولو "مرة واحدة من أجل جيبير"، مضيفاً "لا أعلم أين سأكون عندئذ، لكننى سأعرف ما حدث وسأكون سعيداً". وبعد ثمانى سنوات لعب رونالد ريجان دور جيبير فى فيلم عرض عام ١٩٤٠، وأصبح تعبير "هذه المرة من أجل جيبير" قولاً شائعاً بين الأمريكيين. (المترجم)

فى ١٩٦٦. نـم إىقاف مءمء عبء الرءوف، الذى كان ءىنئذ ءارس مرمى ءىنفر نوجىءس، بواءطء اءءاء كره السطء القومى. لماذا؟ لأن عبء الرءوف رقص الوقوف للءزف الإلزامى للنشىء الوطنى، كان العلم الأمريكى ىمئل له "رمزا للاضطءاء" ضء معئقءاءه الإسلامىة. أىء أغلب اللاعبىن الآءرىن ءق عبء الرءوف فى التعبىر عن معئقءاءه، رغم عءم مشاركئهم إىاه فىها، وأصابء الءىرة هارفى أراءون، كاءب الشئون الرىاضىة المشهور فى "نىوىورك تاىمز"؛ فقال إن عزف النشىء فى المبارىاء الرىاضىة "هو - ولنكن واضءىن - ءقلىء أبله فى العالم الءىء" وأضاف : "وبعكس الغرض الذى تم من أجله فى البءاءة، قبل مبارىاء الباسبول ءلال ءرب العالمىة الءانىة، لا ىذهب أءء إلى المبارىاء الرىاضىة للتعبىر عن وطنىة". وعلى العكس ، ىمكننى أن أبرهن على أن المبارىاء الرىاضىة ءءور غالباً ءول نوع من الوطنىة والقومىة ^(٥).

ءعود أول المبارىاء الرىاضىة المنظمة المعروفة إلى ٣٥٠٠ عام فى الىونان القءىمة. وكانء هناك هءنة ءءوقف ءلالها كل ءروب وءءل بىن المءن الءى ءمئل ءولاً فى الىونان، ءلال الألعاب الأولمبىة الأصلىة. كان الرجال يؤءون الألعاب عراىا، ولم ىكن ىسمء لأى امراة أن ءكون بىن المشاهءىن. وكانء الألعاب الأولمبىة فى القرن الءامن قبل المىلاء ءءضمن الجرى (أنواع وافرة من الجرى) ، والقفز ، ورمى الأشياء (بما فى ذاك الرماء)، والمصارعة (أءىاناً ءتى الموء). وبىنما لم ءكن أى من هءه المبارىاء ءتم بواءطء فرق رىاضىة ، فإنه من الواضء أنها الآن مبارىاء رئىسىة بىن الفرق الرىاضىة المعاصرة.

كانء المبارىاء ءءور أىضاً ءول الصىء بالأءواء منءفضة ءءقنىة. ولقد اعءبر الصىء ءقلىءىا ضمن الرىاضة، طالما أنك لا ءأكل ما ءصطاء، وهو شرط أكثر ىسرا بالنسبة للأغنىاء ىسءجبىون له أكثر من الفقراء، ومنذ الفراعنة الأوائل كان الصىء مقءرناً بالأرسءقراطىة العسكرىة. والقول المأءور لأوسكار وایلء ءول

(٥) تم ءل الأزمة عنءما وافق عبء الرءوف على الوقوف ءلال عزف النشىء، على أن ىءلوا عباءاء من الصلواء بءلا من الغناء .

صيد الثعلب الإنجليزي "ما لا يمكن وصفه عن المطاردة الشاملة لما لا يؤكل" يعطى تلميحاً مزدوجاً للتشابه. كان يطلق على الأنواع القديمة من كرة القدم، ولعبة كرة القدم الأمريكية، والهوكي، وأنواع الرياضة التي تعود إلى تلك الأصول "ألعاب الرعاع" من باب الازدراء، لتمييزها كبدائل للصيد؛ حيث كان الرجال في سن الشباب الذين يعملون من أجل لقمة العيش ممنوعين من الصيد.

ولا بد أن أسلحة الحروب المبكرة كانت أدوات صيد، وليست الفرق الرياضية مجرد محاكاة لأسلوب الحروب القديمة، حيث إنها تستجيب أيضاً لتوق، يكون منسياً غالباً، إلى الصيد.

وحيث إن عواطفنا تجاه الرياضة ذات جذور عميقة داخلنا وذات درجة انتشار واسعة، فإنه من المرجح أن تكون مغروسة داخلنا، ليس في عقولنا ولكن في الجينات الخاصة بنا. ولا يمثل مرور ١٠٠٠٠ عام منذ اكتشاف الزراعة زمناً كافياً لأن تتطور مثل هذه النزعات وتختفى. وإذا أردنا أن نفهم هذه النزعات علينا أن نعود بعيداً إلى الماضي.

يعود تاريخ الأجناس البشرية إلى مئات الآلاف من السنوات (والعائلة البشرية تعود إلى عدة ملايين من السنين). لقد شهدنا وجوداً مستقراً بعيداً عن الترحال، اعتمد على الزراعة واستئناس الحيوانات، عبر نحو ٣ في المائة على الأقل من هذه الفترة الزمنية، والتي تتضمن كل تاريخنا المسجل. وخلال نسبة ٩٧ في المائة الأولى من وجودنا على الأرض، ظهر تقريباً كل ما يرتبط سلوكياً بالبشر. من هنا فإن قليلاً من الحساب حول تاريخنا يوضح إمكانية أن نتعلم شيئاً عن هذه الأزمنة من خلال قلة من مجتمعات الصيادين - الجامعين الباقية حتى الآن والتي لم تفسدها الحضارة.

تجولنا، مع عددنا القليل وكل ممتلكاتنا على ظهورنا، تجولنا متابعين الصيد، باحثين عن عيون الماء. أقمنا مخيمات لبعض الوقت، ثم رحلنا. ولتوفير الطعام للجماعة، كان الرجال أساساً صيادين، والنساء يجمعن الثمار ومتطلبات الحياة، اللحم والبطاطس. فريق متجول نموذجي، يعتبر من الناحية الأساسية

توسّعًا عائليًا من الأقارب والأصهار، أعداد لا تتجاوز العشرات، رغم أن عددهم قد يصل سنويًا إلى بضع مئات، لهم نفس اللغة والثقافة، يتجمعون من أجل الطقوس الدينية، للتجارة، ولتنظيم الزيجات، ولحكى القصص. وتتوافر قصص كثيرة عن الصيد.

وأنا أركز هنا على الصيادين، وهم رجال، لكن النساء كانت لهن سلطة مهمة اجتماعية، واقتصادية، وثقافية. كن يجمعن الخامات الأساسية - البقول، والنقل، والفواكه، والدرنات، والجذور - تمامًا كما يجمعن الأعشاب الطبية، ويصطدن الحيوانات الصغيرة، ويقدمن معلومات الاستخبار الاستراتيجية عن التحركات الحيوانية الواسعة. كان الرجال يقومون ببعض عمليات الجمع أيضًا، وشيء من "العمل المنزلي" (حتى رغم أنه لم تكن هناك منازل). لكن الصيد كان للأكل فقط، وليس للتسلية، فكان المهنة التي يمارسها طوال الحياة كل ذكر قادر بدنيًا.

كان الأولاد تحت سن المراهقة يطاردون الطيور والحيوانات الصغيرة بالأقواس والسهام. وعندما يصلون إلى سن النضج يصبحون خبراء في الحصول على الأسلحة، وفي مطاردة الفريسة، وقنصها، وجزارتها، وفي حمل قطع اللحوم حتى المخيم. وكان النجاح الأول في قنص حيوان ثديي ضخم يشهد وصول الرجل الشاب إلى سن الصياد. ومن أجل الاحتفاء بانضمامه للصيادين، يتم شق جروح طقسية على صدره أو على ذراعيه مع فرك عشب في هذه الجروح، حتى تصبح - بعد شفائه - وشما نموذجيًا. يشبه الأمر أشربة الحملة، بنظرة واحدة إلى صدر حامل الأشرطة، يمكنك معرفة شيء عن خبرته في القتال.

من مجموعة مختلطة من آثار الحوافر، يمكننا بالطبع معرفة عدد الحيوانات التي مرت، وأنواعها، وجنسها، وأعمارها، وما إذا كان أي منها كسيحًا، ومنذ متى عبرت المكان، وإلى أي مدى ذهبت. ويمكن الإمساك ببعض الحيوانات الصغيرة بالمطاردة المباشرة في المكان المفتوح، والأخرى بالقذف بالمقلع أو بقطع الخشب المعقوفة، أو بمجرد رمي الأحجار بدقة وقوة. ويمكن الاقتراب بجرأة من الحيوانات التي لم تتعلم بعد الخوف من الرجال وضربها بالهراوات حتى الموت. ومن المسافات الأبعد، بالنسبة للفريسة الأكثر حذرًا، فنرمى عليها الرماح أو نطلق

الأسهم المسمومة. نكون محظوظين أحياناً، ويهجوم ماهر، يمكننا دفع قطع من الحيوانات إلى كمين أو إلى الوقوع من جرف.

وروح الفريق أمر أساسى بين الصيادين. إذا لم يكن علينا إخافة الفريسة، يجب أن نتصل ببعضنا البعض خلال لغة الإشارة. ولنفس السبب نحتاج إلى التحكم فى انفعالاتنا، فكل من الخوف والابتهاج خطران. ونكون متأرجحين بشأن الفريسة. نحترم الحيوانات، ندرك قرابتنا، نتطابق معها. لكن إذا فكرنا ملياً عن قرب بالغ فى ذكاء هذه الحيوانات وإخلاصها لصغارها، أو شعرنا بالشفقة تجاهها، وإذا تعرفنا عليها بعمق كأقارب لنا، سوف تتراخى قراراتنا فى الصيد، سنرجع لبيوتنا بطعام أقل، وقد يتعرض فريقنا للخطر. نحن مضطرون إلى وضع فجوة عاطفية بيننا وبينها.

من هنا يجب تأمل ما يلى: عبر ملايين السنين، وأسلافنا الذكور يعدون مسرعين، يقذفون الأحجار على الحمام، يطاردون صغار الطباء ويطرحونها أرضاً، يشكلون صفاً واحداً من الصيادين الصائحين المهرولين ويحاولون إرهاب قطع من الخنازير الوحشية الجافل فى اتجاه مهب الريح. كثير من ثقافتهم منسوج على نول الصيد. الصياديون الماهرون هم أيضاً محاربون ماهرون. عندئذ، بعد مدة زمنية طويلة - بضعة آلاف من القرون مثلاً - يؤدى نزوع طبيعى لكل من الصيد والعمل الجماعى إلى ضم كثير من المواليد الجدد من الأولاد. لماذا؟ لأن الصيادين غير الأكفاء أو غير المتحمسين يتركون ذرية أقل. ولن أفكر فى أن قطع رأس حربة من الحجر أو ترقيش السهم هو جزء من جيناتنا. هذا شئ يتم تعلمه أو اكتشافه. لكن من باب متعة المطاردة - أراهن على أن ذلك أمر متأصل - وساهم الانتقاء الطبيعى فى سبك أسلافنا على هيئة صيادين أجلاء.

والدليل الأكثر وضوحاً على نجاح أسلوب حياة الصيادين الجامعين هو الحقيقة البسيطة التى مؤداها أنها امتدت عبر ست قارات واستمرت ملايين السنين (مع استبعاد ذكر نزعات الصيد لدى الحيوانات الرئيسية غير البشرية). وتعبّر هذه الأرقام الضخمة بعمق بالغ عن هذا الأمر. بعد ١٠٠٠٠ جيل كان قتل الحيوانات خلالها الواقى لنا من الموت جوعاً، لا بد أن تظل هذه النزعات داخلنا. نتوق إلى

استخدامها، حتى ولو كان ذلك نيابة عن الآخرين. وتتيح الفرق الرياضية أحد الطرق إلى تحقيق ذلك.

يتشوق جزء من كينونتنا للانضمام إلى فرقة صغيرة من أشقائنا لتحقيق مطلب يحتاج جسارة وجرأة. ويمكننا التعرف على ذلك حتى فى تمثيل الأدوار وألعاب الكمبيوتر الشائعة بين الأولاد فى سن ما قبل البلوغ والمراهقة. والفضائل الرجولية التقليدية الحقة – قلة الكلام ، سعة الحيلة ، الاعتدال ، الدقة ، الاستقامة، المعرفة العميقة بالحيوانات، العمل الجماعى ، حب الهواء الطلق – كانت كلها سلوكا تكييفيا خلال أزمنة الصيد الجامع. ومازلنا نعلى من شأن هذه الصفات، رغم أننا نكون قد نسينا فى الغالب سبب إعجابنا بها.

وبجانب الألعاب الرياضية تتوافر بعض المتنفسات . مازلنا نتعرف فى ذكورنا المراهقين على الصياد الشاب، المحارب الطموح : القفز إلى أسقف الشقة، ركوب الدراجات البخارية بدون خوذة، الدخول فى مشاكل بسبب فريق فائز فى احتفالات ما بعد المباراة . وفى غياب من يعتمد عليهم ، قد تنحرف تلك الغرائز القديمة (رغم أن معدل القتل لدينا يدور حول نفس المعدل بين الصيادين الجامعين الباقين حتى الآن) . نحاول التأكد من أن متعة القتل لم تترك أثارا على البشر. ولا ننجح فى ذلك بشكل دائم.

يشغلنى المدى الذى تصل إليه قوة غرائز الصيد هذه ، وأنزعج . يقلقنى أن كرة قدم مساء الاثنين ليست متنفسا كافيا للصياد المعاصر ، المكتسى برداء العمل السروالى أو الجينز أو بذلة من ثلاث قطع . أفكر فى ذلك التراث القديم حول التعبير عن مشاعرنا، حول المحافظة على فجوة عاطفية بيننا وبين من نقتلهم، فتفتقد المباراة بعض المرح.

لا يمثل الصيادون الجامعون عامة أى خطر على أنفسهم؛ لأن اقتصادياتهم تميل لأن تكون صحية (كثير منهم لديه مزيد من وقت الفراغ أكثر مما لدينا)، لأنهم مثلهم مثل البدو، ليس لديهم سوى القليل من الممتلكات، فلا تحدث سرقات تقريبا،

والحسد قليل، لأن الجشع والتكبر لم يكونا يعتبران فقط شرين اجتماعيين ولكن أيضا قريبيين تمامًا من المرض العقلي، ولأن النساء كانت لديهن سلطة سياسية حقيقية وينزعن لأن يمثلن نفوذًا متوازنًا وملطفًا قبل بدء بحث الأولاد عن أسهمهم المسمومة، ولأنه عندما يتم ارتكاب الجرائم الخطيرة - مثل القتل - يجرى الفريق بشكل جماعي التحقيق ويوقع العقاب. وأسس كثير من الصيادين الجامعين ديمقراطيات تتسم بالمساواة. لم يكن لهم رؤساء، لم تكن هناك سلطة هرمية سياسية أو مشتركة للحلم بتسليقها، لم يكن هناك شخص ما للثورة ضده.

لذلك، لو جنحنا بضع مئات من القرون بعيدا عن هذا الزمن السابق وصفه الذي نتوق للوجود فيه - وإذا وجدنا أنفسنا (رغم عدم ارتكابنا خطأ ما) في عصر التلوث البيئي، والسلطة الاجتماعية، وعدم المساواة الاقتصادية، والأسلحة النووية، وذبول الآمال، مع عواطف العصر الحديث الأقرب (البليستوسينى) ولكن بدون أشكال الوقاية الاجتماعية لذلك العصر - ربما يغتفر لنا مباراة كرة قدم صغيرة مساء الاثنين.

فرق وطواطم

للفرق المرتبطة بالمدن أسماء: أسود سيبو، ونمور ديترويت، ودببة شيكاغو. أسود ونمور ودببة.. نسور وصقور البحر.. شعلات وشموس. وبأخذ الاختلافات في البيئة والثقافة في الاعتبار، فإن جماعات الصياد الجامع في العالم كله لديها أسماء مشابهة - يطلق عليها أحيانا الطواطم. totems.

تم تسجيل قائمة نموذجية للطواطم، تعود بشكل رئيسي إلى عصر ما قبل الاتصال بأوروبا، بواسطة عالم الأنثروبولوجيا ريتشارد لي خلال سنوات قضاها بين قبائل كونج! KUNG "البُشمان" في صحراء كالاهارى فى بوتسونا (كما هو موضح فيما يلى). قصار الأقدام، Short Feet كما أظن، هم أولاد عم أو خال، للجوارب الحمراء Red Sox والجوارب البيضاء White Sox وكذلك القرابة بين المقاتلين Fighters والقراصنة Raiders، وبين القطط

البرية Wildcats والبنغالية Bengals ، وبين أدوات القطع Cutters وماكينات قص الشعر ومقلمات الأظافر Clippers. بالطبع توجد اختلافات تبعاً لاختلافات التقنية وربما تنوع درجة الصراحة غير المتحيزة، والمعرفة بالنفس، وروح المرح. من الصعب تصور أن يطلق على فريق رياضي أمريكي اسم الإسهالات Diarrheas (جائزة مباراة لـ a D ...^(*) أو - حسب تفضيلي الشخصي، فريق من الرجال ليس لديهم مشاكل غرور - المثرثرون العظام Big Talkers. وفريق آخر حيث يطلق علي اللاعبين الملاك Owners مما قد يسبب الذعر في المكتب الرئيسي^(**).

الأسماء " الطوطمية " مسجلة ، من أعلى إلى أسفل ، حسب الفئات التالية :
طيور ، أسماك ، حيوانات رئيسية ، حيوانات أخرى ، نباتات وجمادات ، تقنية ،
بشر ، ملابس ومهن ، تضمينات أسطورية دينية فلكية وجغرافية ، ألوان.

(*) سخرية من إعطاء جائزة لفريق مصاب بالإسهال، حسب اسم الفريق. (المترجم)
(**) حيث أصحاب النفوذ الملاك الحقيقيون للنادي أو المنظمة الرياضية. (المترجم)

الجمعية الوطنية لكرة السلة الشمال الأمريكي	الاتحاد الأمريكي للوطني لكرة القدم	النوادي اليابانية الرئيسية لكرة السلة	النوادي الرئيسية لكرة السلة في الشمال الأمريكي	أسماء جماعات كونج
صقور	الكارديناليون	الصقور	طيور الزرياب الأزرق	دببة النملة
جوارح	النسور	طيور السنونو	كاردينال طيور أمريكية مفردة	الأفيال
ذكور الوعل	الصقور	الشبوط	طيور الصافر	الزرافات
ثيران	الغريان السود	الجاموس	سمكة شيطان البحر	ظباء إمبالا
حيوانات رمادية	صقور البحر	الأسود	أسماك المزلين	حيوانات ابن آوى
ثئاب الغابات	الدافين	النمور	الأشبال	حيوانات وحيد القرن
دبابير	الدببة	الحيتان	النمور	الظباء الصخرية
خامات نفيسة	البنغاليون	نجوم الخليج	حيات معينة الظهر	القطط البرية
مقلعات أظافر	المخالب	الشجعان	المنتمون لاكسبو	النمل
حرارة	الجيار القزمة	المقاتلون الهواة	الشجعان	القمل
كباسات	الجيار الصغيرة	البحريون (مارينز)	المخمرون	العقارب
صواريخ	النمور المنقطة	التنينات	المحتالون	السلاحف
مهاميز	الأسود	العمالقة	الهنود	البطيخ المر
فوق الصوتيات	الأسود الأمريكية	كواكب الجبار	التوائم	الجدور الطويلة
فرسان	الكباش	الموجة الزرقاء	اليانكي	الجدور الطبية
سليتون	النافورات		الجوارب الحمراء	حمل النير
ملوك	القراصنة		الجوارب البيضاء	القاطعات
نيويوركيون	الشاحنون		الرياضيون	الثرثارون العظام
خوارج	الروساء		المقاتلون	الباردون
بحيريون	رعاة البقر		الملكيون	الإسهالات
شباك	المنتمون لـ ٤٩		المحبون	المحاربون الأدنىاء
أفراس	المزيتون		القراصنة	المحاربون
المنتمون لـ ٧٦	العتالون		الملاحون	القضيب
الرواد	الوطنيون		الجنود الجوالون	قصار الأقدام

المحاربون	المغيرون		العمالقة
الجاز	الهنود الحمر		الملائكة
الساحر	القديسون		القساوسة
الشموس	الفولاذيون		الفلكيون
العرافون	الفايكنج		الصخريون
	العمالقة		الحمر
	السمر		

الفصل الرابع

نظرة الإله المحدثقة وقطرات الصنبور

عندما تصعدين إلى الأفق الشرقى تملئين كل أرض بجمالك ،
ورغم أنك بعيدة جداً، تغطي أشعته الأرض.

إخناتون

أنشودة للشمس (نحو ١٧٣١ ق.م)

في مصر الفرعونية خلال عصر إخناتون، كان يُعتقد أن الضوء هو نظرة الإله المحدثقة، وهي عقيدة أصبحت الآن دينا توحيدياً مندثرةً يمجّد الشمس. في ذلك الوقت كان يُظن أن الرؤية نوع من الانبثاق نشأ من العين، فيما يشبه الرادار، وأن هذا الانبثاق يمتد ليلمس الشيء المرئى. وكانت الشمس – التي بدونها لم نكن لنرى أى شيء سوى النجوم – تغمر وتضيء وتدفع وادى النيل. وتبعاً لفيزياء ذلك العصر، وجيل مجّد الشمس، كان مقبولا وصف الضوء على أنه نظرة الإله المحدثقة. وبعد ثلاث وثلاثين ومائة سنة لاحقة، أتاحت استعارة عميقة، رغم أنها أكثر بساطة بكثير، فهما أفضل للضوء:

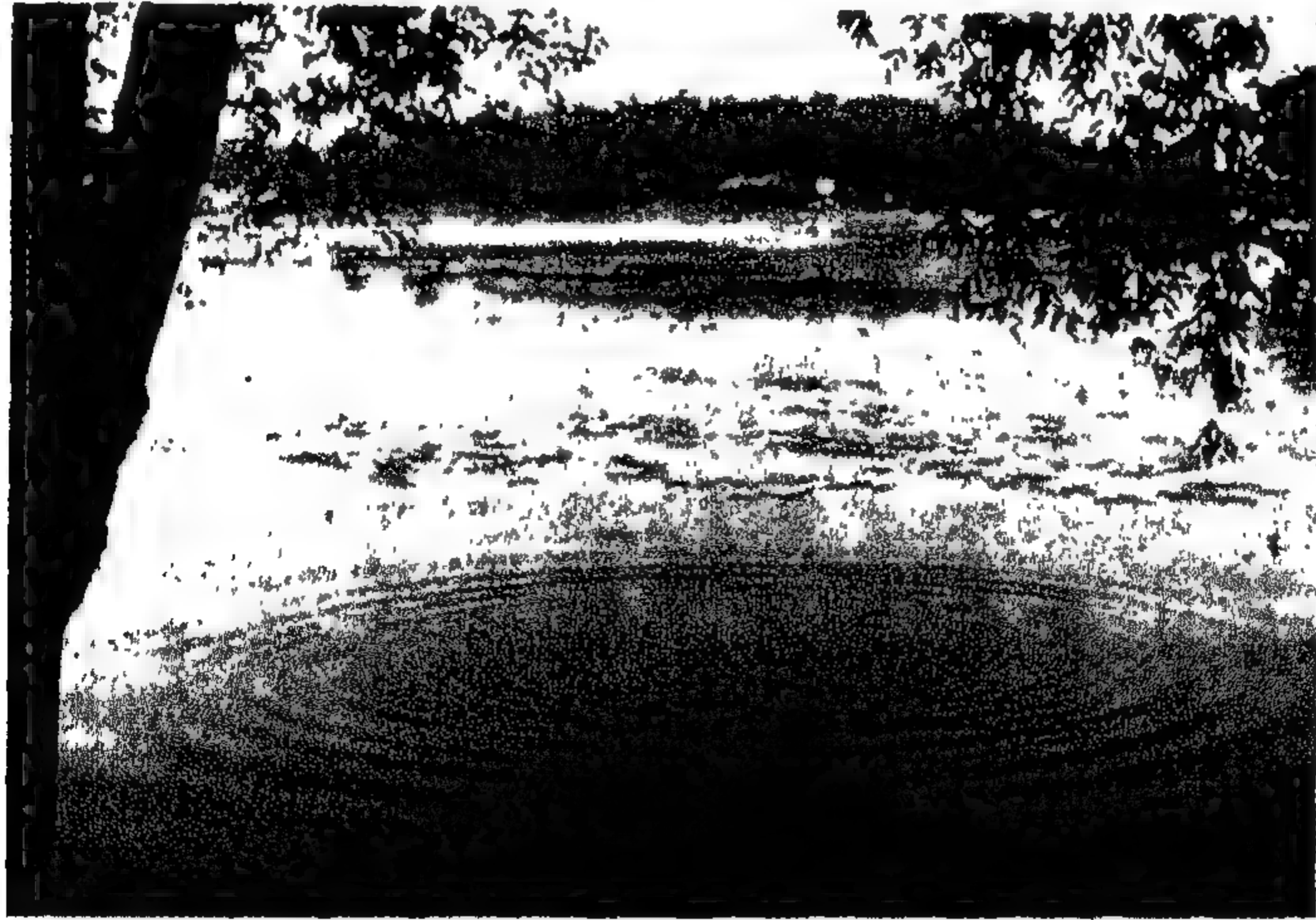
تخيل أنك جالس في حوض استحمام حيث تتساقط من الصنبور قطرات الماء، تسقط كل ثانية مثلاً نقطة ماء في الحوض، فتسبب موجة صغيرة تنتشر في دائرة تامة جذابة ، وعندما تصل إلى جوانب الحوض تنعكس من جديد.

والموجة المنعكسة تكون أضعف ، وبعد انعكاس أو انعكاسين إضافيين ، لا تجد منها المزيد.

يصل مزيد من الموجات إلى نهاية الحوض حيث تجلس، كل منها يكون نتيجة سقوط قطرة أخرى من الصنبور، ويتغمس غاطسك المطاطى من أعلاه ومن أسفله كلما وصلت جبهة موجة جديدة إليه. ومن الواضح أن الماء يكون أعلى قليلاً عند قمة الموجة المتحركة، وأكثر انخفاضاً فى الموقع الضحل بعض الشيء بين الموجتين، أى فى أدنى نقطة.

و"ذبذبة" الموجات هو ببساطة عدد المرات التى تمر فيها القمم بنقطتك المميزة، وفى هذه الحالة موجة واحدة كل ثانية.

وحيث إن كل قطرة تصنع موجة، فإن الذبذبة هى نفسها معدل التنقيط. و"طول الموجة" بالنسبة للموجات هو ببساطة المسافة بين قمتى موجتين متتاليتين، وهو فى هذه الحالة قد يكون ١٠ سنتيمترات (نحو أربع بوصات). لكن إذا كان عبور الموجات هو موجة كل ثانية وتبتعد عن بعضها البعض بمقدار عشرة سنتيمترات، فإن سرعة الموجات هى عشرة سنتيمترات فى الثانية. وسرعة الموجة، التى يمكنك التوصل إليها بعد قليل من التفكير، هى الذبذبة مضروبة فى طول الموجة.



موجات حوض الاستحمام وموجات المحيط هي من النوع ذي البعدين، حيث تنتشر من نقطة مصدر على هيئة دوائر على سطح الماء. أما موجات الصوت، فهي على العكس، ذات أبعاد ثلاثة، حيث تنتشر في الهواء في كل الاتجاهات من مصدر الصوت. وفي قمة الموجة ينضغط الهواء قليلا، وفي القاع يتخلخل الهواء بعض الشيء. تلتقط أذنك هذه الموجات. وكلما كانت ترد بكثرة (كلما زادت الذبذبة)، كلما ارتفعت طبقة الصوت الذي تسمعه.

والأنغام الموسيقية هي مجرد مدى كثرة الموجات الصوتية التي تصطدم بأذنك. فنغمة دو الوسطى هي ما نصف به ٣٦٢ موجة صوتية تصل إلينا كل ثانية، أي ٣٦٢ هيرتز، كما يطلق عليها ^(*).

فكم يكون طول موجة دو الوسطى؟ إذا كانت موجات الصوت يمكن رؤيتها مباشرة، كم تبعد المسافة بين القمة والقاع؟ على مستوى سطح البحر، ينتقل الصوت بسرعة نحو ٣٤٠ متراً في الثانية (نحو ٧٠٠ ميل في الساعة). وكما هو الحال في حوض السباحة، سيكون طول موجة دو الوسطى هو سرعة الموجة مقسوماً على ذبذبتها، أو نحو ١,٣ متر، وهو ما يساوي على وجه التقريب طول إنسان عمره تسع سنوات.

هناك نوع من الأحجية يُظن أنها تربك العلم، مثل "ماذا تعني دو الوسطى بالنسبة لإنسان أصم منذ ميلاده؟" حسناً، إنها هي نفسها فيما يخصنا جميعاً: ٣٦٢ هيرتز، أي ذبذبة دقيقة فريدة للصوت تتعلق بهذه العلامة للنغمة الموسيقية الصوتية وليس بغيرها. إذا لم تستطع سماعها مباشرة، يمكنك التقاطها بدون التباس بواسطة مكبر صوتي وآلة عرض الذبذبة الكهربائية على هيئة مرئية.

والآن ليست هذه بالطبع نفس خبرة الإدراك الحسي للإنسان العادي، هذا الإدراك الذي يستعين بالبصر أكثر من استعانتة بالصوت، لكن ما معنى ذلك؟ كل

(*) وأوكتاف واحد فوق دو الوسطى هو ٥٢٦ هيرتز، وأوكتافان ١٠٥٢ هيرتز، وهكذا.

المعرفة بهذا الأمر متوافرة. يمكنك الإحساس بالنغمات المتألفة والمقاطع الموسيقية المتقطعة، النغمات المعزوفة بنقر الأوتار والجرس. يمكنك الربط بين سماعك نغمة سى الوسطى والمرات الأخرى التى "سمعت" فيها سابقاً نفس النغمة. ومن الناحية الانفعالية قد لا يكون للتمثيل الإلكتروني لنغمة سى الوسطى نفس ما يشعر به الشخص المستمع، لكن حتى هذا الانفعال قد يتأثر بالخبرة . وحتى لو نحينا عبقریات مثل بتهوفن جانباً، يمكن أن تكون أصم تماماً وتتذوق الموسيقى.

هذا هو أيضاً حل اللغز القديم حول ما إذا سقطت شجرة فى الغابة ولم يكن هناك أحد ليستمع إلى صوت سقوطها ، هل نتج عن سقوطها صوت ؟ بالطبع لو عرفنا الصوت باعتباره ما يستمع إليه شخص ما، فليس هناك صوت تبعاً لهذا التعريف. لكن هذا التعريف يغالى فى اعتبار الإنسان حقيقة الكون المركزية. من الواضح أنه إذا سقطت الشجرة فإنها تحدث موجات صوت، ويمكن كشف هذه الموجات الصوتية بسهولة بمسجل أقراص مدمجة مثلاً، وعند إعادة تشغيله يمكن التعرف على صوت سقوط الشجرة فى الغابة. وليس هناك أى لغز.

لكن الأذن البشرية ليست كاشفاً مثالياً للموجات الصوتية. توجد ذبذبات (أقل من ٢٠ موجة تصل كل ثانية) تعتبر بالغة الانخفاض بالنسبة لنا لكي نسمعها، رغم أن الحيتان تتصل ببعضها بسهولة على هذه النغمات المنخفضة. وتوجد أيضاً ذبذبات (أكثر من ٢٠٠٠٠ موجة تصل كل ثانية) تعتبر ذات طبقات صوتية بالغة الارتفاع بالنسبة للإنسان البالغ من ناحية إمكانية كشفه لها، رغم أن الكلاب لاتجد صعوبة فى ذلك (وتستجيب عند النداء عليها بهذه الذبذبات بواسطة صفارة). توجد عوالم من الأصوات _ مليون موجة فى الثانية مثلاً، تعتبر، وستكون هكذا دائماً _ مجهولة بالنسبة للإدراك الحسى المباشر للإنسان. فأجهزة الإحساس لدينا _ حسب تكييفها الجليل _ لها حدود فيزيائية أساسية.

من الطبيعى أن نتصل ببعضنا البعض بالصوت، وكان أقاربنا من الرئيسيات يفعلون ذلك بالتأكيد، ونحن اجتماعيون نعتمد على بعضنا البعض بشكل تعاونى، توجد ضرورة واقعية خلف مواهبنا فى الاتصال؛ لذلك فإنه نتيجة لنمو أمخاخنا

بمعدل غير مسبوق خلال ملايين السنوات القليلة الماضية، ونتيجة الأعضاء المتخصصة فى قشرة المخ المسئولة عن تطور اللغة، حدث تكاثر لمفرداتنا اللغوية؛ كان هناك المزيد والمزيد مما يمكننا تحويله إلى أصوات.

عندما كنا صيادين جامعين، أصبحت اللغة أساسية لتدبير الأنشطة اليومية، وتعليم الأطفال، وتدعيم الصداقات، وتحذير الآخرين من الخطر، والجلوس حول النار بعد تناول الطعام لمراقبة ظهور النجوم وحكى القصص.

وفى آخر الأمر اخترعنا الكتابة الصوتية المقروءة بحيث أصبح فى استطاعتنا تسجيل أصواتنا على الورق، وبإلقاء نظرة على الصفحة، نسمع من يتحدث فى رأسنا _ وهو اختراع أصبح على درجة واسعة من الانتشار خلال آلاف السنوات القليلة الماضية _ حتى إننا لم نعد نعتبر ذلك أمرًا مدهشًا.

لا يتم تبادل الحديث فى الواقع بشكل فوري، عندما نصدر صوتًا نكون قد أحدثنا موجات منتقلة فى الهواء محمولة بسرعة الصوت، لأغراض عملية تكون فورية تقريبًا . لكن المشكلة تتمثل فى أن صيحتك هى التى تنتقل فقط إلى مكان بعيد. ومن النادر تمامًا وجود شخص يمكنه تبادل حديث متماسك مع شخص آخر على بعد مجرد ١٠٠ متر.

حتى الوقت الراهن نسبيا كانت كثافات التعداد البشرى بالغة الانخفاض. كان من النادر وجود ضرورة للاتصال بأحد عبر مسافة تتخطى ١٠٠ متر، وعادة لم يكن هناك أحد _ سوى أعضاء من مجموعتنا العائلية المتجولة _ يقترب أبدا بما يكفى للاتصال بنا، وفى المناسبات النادرة التى يفعل فيها أحد ذلك، نكون عدائيين تجاهه عادة، حيث يتجذر داخلنا بعمق التمرکز حول العرق _ أى الاعتقاد بأن مجموعتنا الصغيرة، أيا كانت، هى أفضل من أى مجموعة أخرى _ ورهب الأجانب، وهو الخوف من الغريباء " اطلق النار أولا ثم اطرح الأسئلة لاحقا ". إنهم ليسوا بحال من الأحوال بشرًا على نحو مميز، وكل النسانيس والقردة أقاربنا يتصرفون بطريقة مماثلة، وهو نفس الأمر لدى كل الثدييات. وهذه المواقف تساهم فيها وتحرضها، على الأقل، المسافات القصيرة التى يمكن تبادل الحديث عبرها.

إذا ظللنا معزولين لفترات طويلة عن هؤلاء الأشخاص الغرباء، سنتطور نحن وإياهم ببطء فى اتجاهات مختلفة. سيبدأ محاربوهم فى ارتداء جلود حيوان الأسلوت^(*)، مثلاً، بدلا من أغطية الرأس من ريش النسر، الذى يعلم كل قريب من هنا أنها على الموضة، ولائقة ومعقولة. تصبح لغتهم فى آخر الأمر مختلفة عن لغتنا، ويصبح لآلهتهم أسماء مختلفة وتقدم لها طقوس وقرايين عجيبة، تولد العزلة الاختلاف، ويكفل عددنا الصغيرة والمدى المحدود لاتصالاتنا العزلة. تجولت العائلة البشرية - التى يعود أصلها إلى موقع صغير فى شرق أفريقيا منذ عدة ملايين عام مضت - وانفصلت، وتنوعت، وأصبح البشر غرباء عن بعضهم البعض.

وحدث عكس هذا النزوع - وهو الحركة تجاه إعادة التعارف وإعادة الاتحاد بين القبائل المفقودة من العائلة البشرية، والتحام الجنس البشرى - حدث ذلك فقط فى عصر حديث إلى حد ما ويعود فقط إلى التطورات التقنية. وأتاح لنا ترويض الحصان أن نرسل الرسائل (وننتقل) عبر مسافات تصل إلى مئات الأميال فى أيام قليلة، وسمحت لنا التطورات فى تقنية السفينة الشراعية أن نرحل إلى أكثر الأماكن بعدا على الكرة الأرضية، ولكن ببطء : فى القرن الثامن عشر، احتاج الأمر عامين للإبحار من أوروبا إلى الصين. وفى ذلك الزمان كان باستطاعة المجتمعات البشرية النائية إرسال سفراء لكل بلاط ملكى فى الدول الأخرى، وتبادل المنتجات ذات الأهمية الاقتصادية. ومع ذلك لم يكن هناك - بالنسبة للغالبية العظمى من الصينيين فى القرن الثامن عشر - من هم أكثر غرابة من الأوروبيين كما لو كانوا يعيشون على القمر، والعكس بالعكس. كان الربط الحقيقى بين المناطق المختلفة على كوكب الأرض فى حاجة إلى تقنية تجعل الاتصالات أكثر سرعة من الحصان والسفينة الشراعية، اتصالات تنقل المعلومات عبر العالم كله، وتكون رخيصة بما فيه الكفاية لتجعلها متاحة ، على الأقل أحيانا بالنسبة للشخص العادى. ظهرت هذه التقنية مع اختراع التلغراف ومد كابلات تحت البحر ، وتوسعت بشكل كبير مع اختراع التليفون، وهى تقنية تستخدم نفس الكابلات، ثم تكاثرت بشكل هائل مع اختراع الراديو، والتليفزيون، وتقنية الاتصال عبر الأقمار الصناعية.

(*) حيوان أمريكى يشبه النمر. (المترجم)

نتصل الآن بسرعة الضوء، بشكل روتيني وبلا تعمد، ونادرًا ما نفكر في معنى ذلك لحظة واحدة. والانتقال من سرعة الحصان والسفينة الشراعية إلى سرعة الضوء يعتبر تطورًا بنسبة تقترب من مائة مليون ضعف. ولأسباب جوهرية في صميم الطريقة التي يعمل بها العالم - المعبر عنها في النظرية الخاصة بالنسبية لأينشتاين، نعرف أنه لا سبيل أمامنا لإمكانية إرسال معلومات أسرع من الضوء. وفي قرن واحد، وصلنا إلى الحد الأعلى للسرعة. والتقنية على درجة عالية من القوة، ويمتد ما تتضمنه إلى مدى بعيد، وهو ما لم تدركه بالطبع مجتمعاتنا بعد.

عند إجرائنا مكالمة عبر البحار، يمكننا الشعور باللحظة القصيرة بين انتهائنا من طرح سؤال وبين بدء الشخص الذي نتكلم معه في الإجابة. وهذا التأخر في تلقي الرد هو الزمن اللازم للصوت الناتج عن كلامنا لكي يدخل إلى التليفون لينطلق كهربائيًا عبر الأسلاك ويصل إلى محطة البث لتوجيهه لاسلكيًا بواسطة الموجات الكهرومغناطيسية عالية التردد^(*) إلى الأقمار الصناعية للاتصالات في مدار متزامن مع حركة الكرة الأرضية، ليعاد توجيه أشعته إلى محطة استقبال بث الأقمار الصناعية ثم ينطلق من جديد خلال الأسلاك، ليسببذبذبة في غشاء في جهاز التليفون (والمسافة قد تصل إلى نصف محيط العالم)، ثم ينتج موجات صوتية عبر مسافة بالغة الصغر من الهواء، للدخول إلى أذن الشخص المتلقى للمكالمة، حاملة رسالة كهربائية كيميائية من الأذن إلى المخ، لكي تصبح مفهومة.

يستغرق انتقال الضوء خلال الرحلة من الأرض إلى الارتفاع المتزامن مع حركة الكرة الأرضية ربع ثانية. وكلما زاد البعد بين المرسل والمستقبل، زادت هذه المدة. خلال الأحاديث مع طاقم رواد فضاء "أبوللو" على القمر، كان التأخير بين السؤال والجواب أطول، كان ذلك يعود إلى أن الزمن الذي يستغرقه انتقال ضوء الرحلة الدورية (أو اللاسلكي) بين الأرض والقمر ٢,٦ ثانية. يحتاج الأمر إلى ٢٠ دقيقة لاستقبال رسالة من مركبة فضائية تقع على مدار مريخي. وفي أغسطس ١٩٨٩ استقبلنا صورًا التقطت بواسطة مركبة الفضاء "فوياجير ٢" لنبتون

(*) مايكروويف. (المترجم)

وأقماره وأقواسه الدائرية، استغرقت البيانات المرسلة إلينا من التخوم الكوكبية للمجموعة الشمسية خمس ساعات لتصل إلينا بسرعة الضوء، كانت إحدى أطول المكالمات مسافة التي تم إجراؤها بواسطة الجنس البشرى.

فى أحوال كثيرة يمكننا أن ننظر إلى الضوء باعتباره أيضًا موجات. مثال لذلك، تصوّر ضوءاً يمر خلال شقين متوازيين فى غرفة مظلمة. ما هى الصورة التى تنعكس على شاشة خلف الشقين؟ الإجابة هى: صورة الشقين – بشكل أكثر دقة، سلسلة من الصور الساطعة والمظلمة للشقين – وهى عبارة عن "شكل متداخل". وبدلاً من الانتقال على هيئة كرة صغيرة فى خط مستقيم، يكون من المرجح أن تنتشر الموجات من الشقين بزوايا مختلفة. وحيث تقع القمة على القمة يكون لدينا صورة شق: تداخل "بناء"، وحيث تقع القمة على القاع يكون لدينا إخلال: تداخل "هدام". وهذا سلوك مميز للموجة.

يمكنك مشاهدة نفس الشيء بالنسبة لأمواج الماء عند وجود فتحتين مقطوعتين على مستوى سطح الماء فى دعائم عمود جس، حيث يظهر تضاعف الموجات أو تلاشيها على جبهة الماء.

علاوة على ذلك يسلك الضوء أيضاً كتيار من الكرات بالغة الصغر، يطلق عليها فوتونات، وهذا هو الذى يفسر كيف تعمل الخلية الكهروضوئية (فى الكاميرا مثلاً أو فى حاسب يعمل بالضوء). كل فوتون يصل يقذف إلكترونًا من سطح حساس، والفوتونات الكثيرة تولّد إلكترونات كثيرة، تصبح فيضانًا من التيار الكهربائى. كيف يمكن للضوء أن يكون موجة وجسيمًا فى نفس الوقت؟ قد يكون من الأفضل التفكير فيه كما لو كان شيئاً آخر، لا هو موجة ولا جسيم، شىء لا نواجه مثيلاً له فى حياتنا اليومية الملموسة، والذى تحت ظروف معينة تكون له خواص الموجة، وتحت ظروف أخرى، تكون له خواص الجسيم.

وتذكرنا هذه الثنائية (الموجة – الجسيم) من جديد بالحقيقة المركزية القاهرة: لا تتطابق الطبيعة دائماً مع نزعاتنا وتفضيلاتنا، ولا مع ما نراه مريحاً ومن السهل إدراكه.

ومع ذلك يكون الضوء من أغلب الجوانب مشابهاً للصوت. فالموجات الضوئية فى الأبعاد الثلاثة، لها ذبذبة، وطول موجة، وسرعة (سرعة الضوء). ولكن من الأشياء المدهشة أنها لا تحتاج إلى وسط، مثل الماء والهواء، لتنتقل خلاله. يصل الضوء إلينا من الشمس والنجوم البعيدة، رغم أن الفضاء الذى ينتقل الضوء خلاله يعتبر تقريباً فراغاً تاماً. وفى الفضاء، لا يمكن لرواد الفضاء أن يسمع بعضهم البعض بدون اتصال لاسلكى، حتى لو كانوا يبعدون عن بعضهم سنتيمترات قليلة. حيث لا يوجد هواء لكى يحمل الصوت. لكن يمكنهم رؤية بعضهم بعضاً بشكل جيد تماماً. فإذا مالوا إلى الأمام بحيث تتلامس خوذاتهم، "يمكنهم" سماع بعضهم بعضاً. تخلص من كل الهواء فى حجرتك فستجد أنك غير قادر على سماع أحد معارفك يشكو من ذلك، رغم أنك لوهلة لن تجد صعوبة فى رؤيته يلوح بشدة ويلهث.

بالنسبة للضوء المرئى العادى - النوع الذى تعتبر أعيننا حساسة تجاهه - تكون ذبذبته عالية جداً، نحو ٦٠٠ تريليون موجة (6×10^{14}) تتصادم مع مقلتى عينيك كل ثانية. ولأن سرعة الضوء ٣٠ بليون سنتيمتر فى الثانية (3×10^{10}) أى (١٨٦٠٠٠ ميل فى الثانية)، فإن طول موجة الضوء المرئى نحو ٣٠ بليون مقسوماً على ٦٠٠ ترليون، أو ٠,٠٠٠٠٠٥ سم أى ($3 \times 10^{10} / 6 \times 10^{14} = 0,000005$) وهو أقل بكثير مما يمكننا رؤيته إلا إذا أمكن بطريقة ما أن تكون الموجات نفسها مضاءة.

حيث إن ذبذبات الصوت المختلفة يدركها البشر كنغمات موسيقية متنوعة، كذلك فالذبذبات المختلفة للضوء يتم إدراكها كألوان متنوعة. للضوء الأحمر ذبذبة نحو 460 تريليون ($4,6 \times 10^{12}$) ذبذبة في الثانية، والضوء البنفسجي نحو 710 تريليون ($7,1 \times 10^{12}$) ذبذبة في الثانية. وبينهما توجد ألوان قوس قزح المعروفة. وكل لون يناظر ذبذبة ما.

وكما هو الحال عن معنى النغمة الموسيقية بالنسبة لشخص أصم منذ ميلاده، يأتى السؤال المتم حول معنى اللون لشخص أعمى منذ ميلاده. ومرة أخرى فالإجابة الوحيدة والتي لا التباس فيها هي ذبذبة الموجة - التي يمكن قياسها بصرياً وكشفها، إذا كنا نرغب في ذلك، كنغمة موسيقية. ويمكن لشخص أعمى، مدرب ومجهز جيداً في مجال علم الطبيعة، أن يميز بين أحمر الورد وأحمر التفاحة وأحمر الدم. وبالنوع المناسب من مجموعة برامج قياس الطيف، يمكن أن تصل هذه التجهيزات إلى تمييزات تكوينية أفضل بكثير من العين البشرية غير المدربة. نعم يوجد شعور بالاحمرار يحس به الأشخاص القادرون على الرؤية عند 460 ترليون هيرتز تقريباً. لكنى لا أعتقد أن ذلك يتجاوز الحديث حول ما يشبه الشعور بأنك تحس ب 460 ترليون هيرتز. لا سحر في ذلك، إلا بقدر الجمال الذي قد يحتوى عليه هذا الإحساس.

وبالضبط كما توجد أصوات عالية الذبذبة ومنخفضة الذبذبة جداً لا نسمعها، توجد أيضاً ذبذبات للضوء، أو الألوان، تكون خارج نطاق الرؤية. وتمتد إلى ذبذبات أعلى بكثير (نحو بليون بليون^(*) $= 10^{18}$ ذبذبة في الثانية لأشعة جاما) وأخرى أكثر انخفاضاً بكثير (أقل من ذبذبة واحد في الثانية بالنسبة لموجات اللاسلكى الطويلة).

وينظر على الطيف الضوئى من الذبذبات العالية إلى المنخفضة توجد مجموعات واسعة يطلق عليها أشعة جاما، والأشعة السينية، والأشعة فوق البنفسجية، والضوء المرئى، والأشعة تحت الحمراء، وموجات اللاسلكى. وتلك هي كل الموجات

(*) أعرف، أعرف، لا يمكننى تجنب ذلك، إنه فقط الحديث عن العدد التقريبى الموجود منها.

التي تنتقل خلال الفراغ، كل منها له شرعية الانتماء إلى الضوء مثلها مثل الضوء المرئى تمامًا.

يوجد علم فلك لكل من هذه النطاقات الموجية، حيث تبدو السماء مختلفة تمامًا فى كل نظام ضوئى. مثال لذلك، تكون النجوم الساطعة غير مرئية بضوء أشعة جاما، لكن المفجرات المبهمة لأشعة جاما، التي كشفتها مرصد أشعة جاما المدارية، بعيدة جدًا وتقريبًا لا يمكن رصدها بالكامل فى الضوء المرئى العادى. إذا شاهدنا الكون بالضوء المرئى فقط - وهو ما فعلناه طوال أغلب تاريخنا - قد لا نعلم بوجود مصادر أشعة جاما فى السماء، ونفس الشئ حقيقى بالنسبة لمصادر الأشعة السينية، والأشعة فوق البنفسجية، والأشعة تحت الحمراء وموجات اللاسلكى (إضافة إلى مصادر النيتريون والأشعة الكونية الأكثر غرابة، وربما أيضًا مصادر موجات الجاذبية).

نحن متحيزون تجاه الضوء المرئى. ونحن شوفينيون^(*) فى ما يتعلق بالضوء المرئى. فهو النوع الوحيد من الضوء الذى تعتبر أعيننا حساسة تجاهه. ولكن لو كانت أجسامنا قادرة على نقل واستقبال أمواج اللاسلكى لاستطاع البشر البدائيون الاتصال ببعضهم البعض عبر مسافات شاسعة، وإذا كان الأمر يتعلق بالأشعة السينية، لكان فى استطاعة أسلافنا التحديق فى أمان فى الأجزاء الداخلية الخافية من النباتات، والناس، والحيوانات الأخرى، والجماد. فلماذا لم تتطور لدينا بالتالى عيون حساسة لكل تلك الذبذبات الأخرى للضوء؟

أيًا كانت المادة التي تختارها فإنها تميل إلى امتصاص ضوء ذبذبات معينة، وليس غيره. وللمادة المختلفة نزوع مختلف. هناك تجاوب طبيعى بين الضوء والكيمياء، فبعض الموجات - مثل أشعة جاما - يتم التهامها بلا تمييز بواسطة كل المواد تقريبًا. إذا كان لديك مصدر ضوء ومضى^(**) لأشعة جاما، يتم امتصاص الضوء عبر مساره فورًا بواسطة الهواء.

(*) مغالون (المترجم).

(**) فلاش (المترجم).

وأشعة جاما الآتية من الفضاء، التى تعبر مسارًا أطول بكثير خلال الغلاف الجوى للأرض، يتم امتصاصها بالكامل قبل وصولها إلى الأرض. وأدنى من ذلك هنا على الأرض، تكون المنطقة مظلمة جدًا بالنسبة لأشعة جاما، إلا حول أشياء مثل الأسلحة النووية. إذا أردت رؤية أشعة جاما من مركز المجرة، يجب أن تحرك أجهزتك فى الفضاء. وما يشبه ذلك هو أمر حقيقى بالنسبة للأشعة السينية، والأشعة فوق البنفسجية، وأغلب موجات الأشعة تحت الحمراء.

من ناحية أخرى تعتبر أغلب المواد ممتصات ضعيفة للضوء المرئى. فالهواء - مثلاً - شفاف بشكل عام للضوء المرئى؛ ولذلك فإن أحد أسباب أننا نرى عند الذبذبات المرئية أن هذا هو نوع الضوء الذى يتخلل غلافنا الجوى إلى أسفل حيث نكون موجودين. وتكون العيون المتلائمة مع أشعة جاما ذات فائدة محدودة فى غلاف جوى يجعل الأشياء شديدة السواد فى أشعة جاما، والانتقاء الطبيعى يعلم ذلك الأمر بشكل أفضل.

والسبب الآخر وراء أننا نرى فى الضوء المرئى أن هذا هو المكان الذى تُخرج فيه الشمس أغلب طاقتها، ويقذف النجم شديد الحرارة كثيرًا من ضوئه على شكل أشعة فوق بنفسجية، وأغلب ما يقذفه النجم شديد البرودة يكون أشعة تحت الحمراء. لكن الشمس - التى تعتبر نسبيًا نجمًا متوسطًا - تبتث أغلب طاقتها على هيئة ضوء مرئى. وفى الواقع فإنه إلى درجة عالية من الدقة الملحوظة، تعتبر العين الإنسانية أكثر حساسية بالضبط عند الذبذبة فى الجزء الأصفر من الطيف حيث تكون الشمس أكثر سطوعًا.

هل ترى كائنات بعض الكواكب الأخرى بشكل رئيسى عند ذبذبات مختلفة تمامًا؟ يبدو لى ذلك غير محتمل بالمرة، فمن الناحية الافتراضية تميل كل الغازات الوافرة كونيًا إلى أن تكون شفافة فى الذبذبات المرئية وغير شفافة عند ذبذبات قريبة من ذلك. وكل الكواكب ما عدا الأكثر برودة تُخرج كثيرًا من طاقتها - إن لم يكن أغلبها - عند ذبذبات مرئية.

ويبدو أن الأمر مجرد صدفة أن يفضل كل من شفافية المادة و سطوع النجوم نفس النطاق الضيق من الذبذبات، ولا تخص هذه الصدفة نظامنا الشمسى فقط، لكن أيضا الكون كله. إنها تتبع القوانين الأساسية للإشعاع والميكانيكا الكمية

والفيزياء النووية، قد تكون هناك استثناءات عَرَضِيَّة، لكننى أعتقد أن كائنات العوالم الأخرى – إذا كان هناك أى منها – من المحتمل أن ترى عند نفس الذبذبات التى نرى عندها تمامًا^(*).

تمتص النباتات الضوئين الأحمر والأزرق، وتعكس الضوء الأخضر، لذلك تبدو لنا خضراء. يمكننا رسم صورة عن كيفية انعكاس الضوء على هيئة ألوان مختلفة. فالشئ الذى يمتص الضوء الأزرق ويعكس الضوء الأحمر يبدو لنا أحمر، والشئ الذى يمتص الضوء الأحمر ويعكس الأزرق يبدو لنا أزرق. نرى شيئاً أبيض اللون عندما يعكس ضوءاً تتساوى فيه بالتقريب الألوان المختلفة. وهذا صحيح أيضاً بالنسبة للمواد الرمادية والمواد السوداء. ولا يعود الاختلاف بين الأسود والأبيض إلى اللون، لكنه يعود إلى كمية الضوء الذى يعكسه اللونان. والمصطلحات نسبية وليست مطلقة.

ربما يكون أكثر المواد الطبيعية سطوعاً هو الثلج النقى المتساقط. لكنه يعكس نحو ٧٥ فى المائة فقط من أشعة الشمس الساقطة عليه. وتعكس المواد الأكثر قتامة التى نتعامل معها عادة – مثال لذلك المخمل الأسود – نسبة مئوية منخفضة فقط من الضوء الساقط عليها. يعتبر القول "مختلف مثل اختلاف الأسود والأبيض" خطأ فى المفهوم: الأسود والأبيض هما نفس الشئ من الناحية الأساسية، والاختلاف هو فقط فى الكميات النسبية من الضوء المنعكس، وليس فى لونهما.

وبين البشر، لا يعتبر أغلب "البيض" فى بياض الثلج النقى المتساقط (ولا حتى المبرد الأبيض)، وأغلب "السود" ليسوا فى سواد المخمل الأسود. التعريفات نسبية، وغامضة، ومربكة.

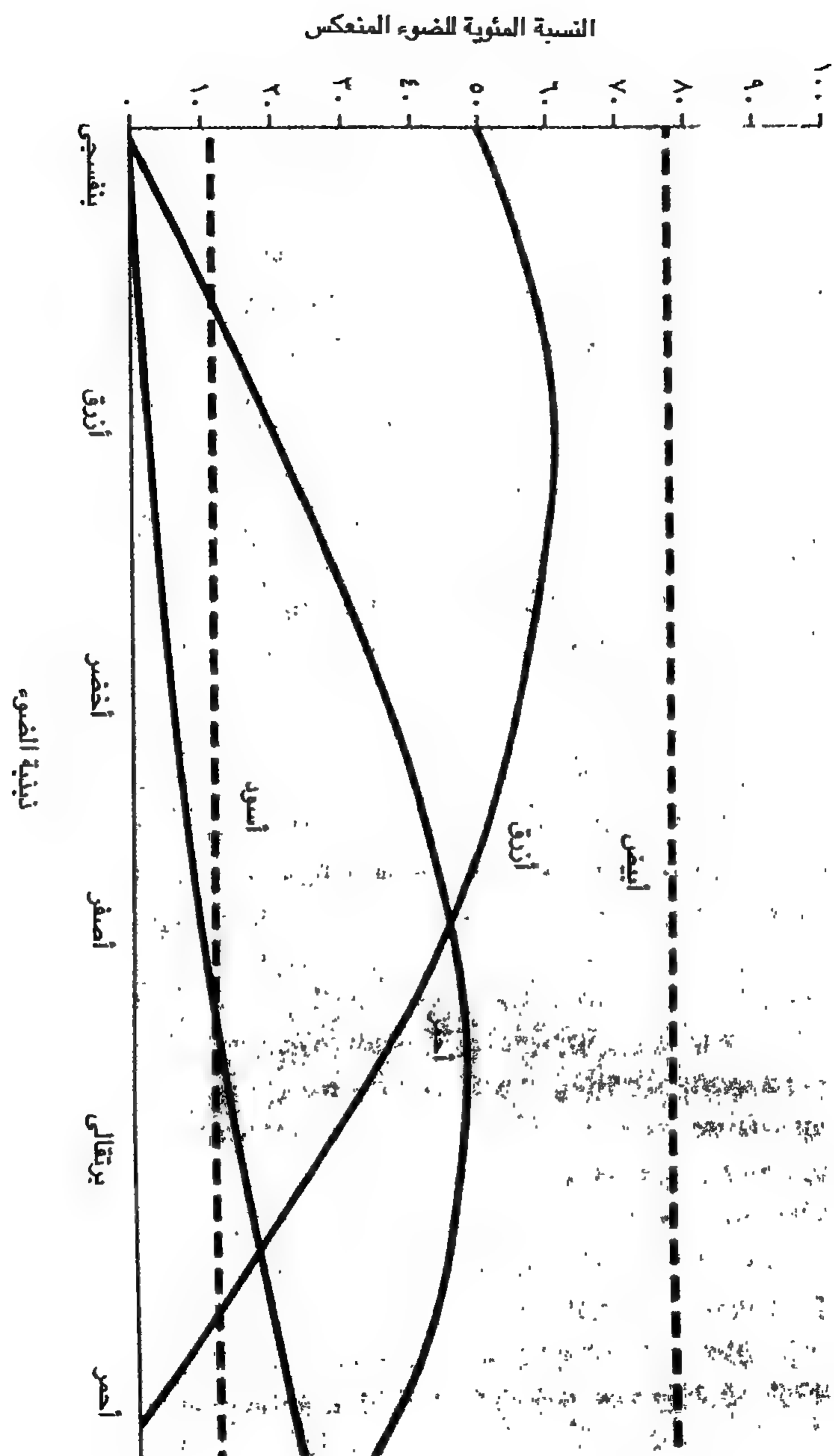
(*) مازلت أخشى أن تُبتلى هذه الحجة بنوع من شوفينية الضوء المرئى: الكائنات الشبيهة بنا التى ترى فقط فى الضوء المرئى يُستدل منها أن كل شخص فى الكون كله يجب أن يرى فى الضوء المرئى. وحيث أننا نعلم كم كان تاريخنا حافلاً بالشوفينية، لا يمكننى تجنب الشك فى استنتاجى. ولكن بقدر معرفتى، ينتج هذا الاستنتاج عن القانون الفيزيائى، وليس عن التصور البشرى.

يتفاوت بشكل واسع من شخص إلى آخر الجزء الذى يعكسه الجلد البشرى (الانعكاسية) من الضوء الساقط، وتنتج صبغات الجلد أساساً بواسطة جزئى عضوى يطلق عليه ملانين، الذى يصنعه الجسم من التيروسين، وهو حمض أمينى شائع بين البروتينات، ويعانى الشخص الأمهق من مرض وراثى لا يتم بسببه إنتاج الملانين، فيكون جلد المصابين بهذا المرض وشعرهم أبيض لبنيا، وحدقات عيونهم قرنفلية. والحيوان الأمهق نادر فى الطبيعة لأن جلود الحيوانات تتيج لها بعض الحماية ضد الإشعاع الشمسى، ولأنها تفتقر إلى وسائل الإخفاء لتحشى نفسها بها كما يفعل الإنسان. والشخص الأمهق يتعرض لقصر العمر.

فى الولايات المتحدة كل الناس تقريبا سمر البشرة، وتعكس جلودنا ضوءاً أكثر نسبيا فى اتجاه الطرف الأحمر فى طيف الضوء المرئى أكثر مما تعكسه فى اتجاه الأزرق. ولن يضيف المزيد من المعنى القول بأن الأشخاص الذين لديهم ملانين عال "ملونون" ولا وصف الأشخاص ذوى الملانين المنخفض بأنهم "مبيضون".

ولا تظهر أية فروق مهمة فى انعكاسية الجلد إلا عند الذبذبات المرئية المتجاورة مباشرة. فالناس المنتسبون إلى أسلاف أوروبيين شماليين والمنتسبون إلى أسلاف من وسط أفريقيا سود بمقدار متساو فى الأشعة فوق البنفسجية وفى الأشعة تحت الحمراء ، حيث تمتص كل الجزئيات العضوية – وليس الملانين فقط – الضوء، وليس هناك أدنى احتمال فى ظهور اللون الأبيض إلا فى الضوء المرئى، حيث يكون كثير من الجزئيات شفاف. وعبر أغلب الطيف، يعتبر كل البشر سوداً^(*).

(*) يعتبر ذلك ضمن الأسباب التى تجعل "الأفارقة – الأمريكيين" (أو ما يماثل ذلك من واصلات بين جزئى كلمة مقسمة فى البلدان الأخرى) وصفا أفضل بكثير من وصفهم بأنهم "سود" أو – وهى نفس الكلمة فى الإسبانية – زنجى "نجرو".



يتكون ضوء الشمس من مزيج من الموجات ذات ذبذبات تتطابق مع كل ألوان الطيف. يوجد الأصفر بكثرة نسبياً مقارنة بالأحمر والأزرق، وهو ما يعتبر جزئياً سبب ظهور الشمس باللون الأصفر. وكل هذه الألوان - مثلاً - تسقط على بتلة الورد. فلماذا تبدو الورد حمراء ؟ لأن كل الألوان ما عدا الأحمر يتم امتصاصها بشكل تفصيلي داخل البتلة. يصطدم مزيج الموجات الضوئية بالورد، ترتد الموجات هنا وهناك مضطربة أسفل سطح البتلة. وكما هو الأمر مع الموجة في حوض الاستحمام، تصبح الموجة أكثر ضعفاً مع كل ارتداد، لكن الموجات الزرقاء والصفراء يتم امتصاصها مع كل انعكاس أكثر مما يحدث للموجات الحمراء. وتكون النتيجة النهائية بعد كثير من الارتدادات الداخلية أن مزيداً من الضوء الأحمر يعود منعكساً أكثر من ضوء أى لون آخر، ولهذا السبب ندرك جمال الورد الحمراء. بالنسبة للزهور الزرقاء أو البنفسجية يحدث نفس الشيء تماماً، ما عدا أنه يتم هنا امتصاص الضوئين الأحمر والأصفر بشكل تفصيلي بعد ارتدادات داخلية متعددة وينعكس بشكل تفصيلي الضوءان الأزرق والبنفسجي.

توجد صبغة عضوية خاصة مسئولة عن امتصاص الضوء فى هذه الزهور ونفس الأمر بالنسبة للورود والبنفسجات، تكون الزهور ملونة بشكل لافت للنظر حتى إنه يطلق عليها أسماء تبعاً للونها، يطلق على هذه الصبغة أنثوسيانين. والجدير بالملاحظة أن صبغة الأنثوسيانين المثالية تكون حمراء عند وضعها فى حمض وزرقاء فى مادة قلوية، وبنفسجية فى الماء. وهكذا فإن الورود حمراء لأنها تحتوى على أنثوسيانين وتعتبر حامضية نسبياً، والبنفسجات زرقاء لأنها تحتوى على أنثوسيانين وهى قلوية إلى حد ما. (حاولت استخدام هذه الحقائق فى المزاج، لكننى لم أحرز نجاحاً).

من الصعب العثور على صبغات زرقاء فى الطبيعة، وتعتبر ندرة الصخور الزرقاء أو الرمال الزرقاء على الأرض أو العوالم الأخرى إثباتاً لهذه الحقيقة. يجب أن تكون الصبغات الزرقاء معقدة إلى حد ما، وصبغة الأنثوسيانين تحتوى على ٢٠ ذرة، كل منها أكثر ثقلاً من الهيدروجين، وهى منظمة فى نمط خاص.

استخدمت الكائنات الحية اللون بشكل خلاق لتمتص ضوء الشمس ولتستخرج الغذاء من خلال التمثيل الضوئي من مجرد الهواء والماء، ولتذكر أمهات الطيور بمكان المرىء لدى أفراخها، ولإثارة اهتمام الأليف، ولجذب الحشرات الملقحة، للتخفى والتنكر، وأخيرًا - على الأقل لدى البشر - هناك الاستخدامات العملية بغض النظر عن متعة الجمال. لكن كل ذلك ممكن الحدوث لسبب واحد هو أن فيزياء النجوم - كيمياء الهواء، والآلية الرائعة لعملية التطور - قد أتاحت لنا هذا التآلف الجليل مع بيئتنا الطبيعية.

وخلال دراستنا للعوالم الأخرى، عند اختبارنا للتركيب الكيميائي لأغلفتها الجوية أو أسطحها، ونحن نحاول جاهدين فهم سبب أن السديم العالى لقمر تيتان التابع لكوكب زحل بنى اللون، وسبب أن التضاريس الشبيهة بالشمام لقمر تريتون التابع لكوكب نبتون قرنفلية اللون، اعتمدنا على خواص الموجات الضوئية التي لا تختلف كثيرًا عن التموجات التي تنتشر ممتدة في حوض الاستحمام. وحيث إن كل الألوان التي نراها - على الأرض وفي أى مكان آخر - تعتمد على نوع أطوال موجات ضوء الشمس التي تنعكس بشكل أفضل، يظل هناك ما هو أبعد من الفضيلة الشعرية في التفكير في الشمس على أنها تربت على كل شيء لدى وصولها إليه، وفي التفكير في ضوء الشمس كنظرة الإله المحدقة، لكن لديك إمكانية فهم أفضل لما يحدث إذا نظرت للأمر من زاوية صنبور تتساقط منه القطرات.

الفصل الخامس

أربعة أسئلة كونية

هناك في الأعلى حيث السماء لم تكتسب اسماً بعد
لم تكن الأرض الراسخة أدناها قد سميت
لم يسكن قد تم جدل كوخ القصب ،
لم تكن أرض المستنقع قد ظهرت .
عندما لم يكن أى إله قد ظهر إلى الوجود ،
لم يطلق عليها أسماء ، لم تتحدد غاياتها -
عندئذ حدث أن برزت الآلهة

إنوما إليش

أسطورة الخلق البابلية (أواخر الألف عام الثالثة ق.م)(*)

لكل ثقافة أسطورة خلق ، محاولة لفهم من أين جاء الكون، وكل ما يتضمنه.
وعادة لا تكون تلك الأساطير دائماً أكثر من قصص ألفها حكاؤون للقصص،
ولدينا نحن أيضاً أسطورة خلق. لكنها مبنية على دليل علمي راسخ، ويمكن قصها
بشكل يقترب مما يلي ...

نعيش في كون متمدن هائل قديم فوق نطاق الفهم البشرى العادى. تندفع
المجرات التى يحتوى عليها متباعدة عن بعضها البعض، نتيجة انفجار هائل،

(*) "إنوما إليش" هى الكلمات الأولى فى الأسطورة، كما لو تم تسمية "كتاب سفر التكوين" Genesis Book of
اسم "فى البداية" In the Beginning ، وهو ما يقترب فى الحقيقة من المعنى الإغريقى لكلمة "سفر التكوين" genesis .

الانفجار العظيم Big Bang. ويعتقد بعض العلماء أن الكون قد يكون واحدًا من عدد كبير — ربما عدد لا نهاية له — من الأكوان الأخرى المغلقة. يتضخم بعضها ثم ينهار، يعيش ويندثر في لحظة. وبعضها الآخر قد يتمدد إلى الأبد. والبعض قد ينضغط مباشرة ويتعرض لعدد ضخم — ربما عدد لا نهاية له — من التمددات والانكماشات. ويرجع أصل كوننا الخاص إلى نحو ١٥ بليون سنة، أو على الأقل منذ تكونه الراهن، الانفجار العظيم.

قد تكون هناك قوانين مختلفة للطبيعة وأنواع مختلفة من المادة في تلك الأكوان الأخرى. وفي كثير منها قد تكون الحياة مستحيلة، حيث لا توجد شمس وكواكب، ولا حتى أية عناصر أكثر تعقيدًا من الهيدروجين والهيليوم. قد يكون بعضها الآخر على درجة من التعقيد، والتنوع، والثراء، إلى درجة تجعل كوننا قزمًا أمامه. إذا كانت تلك الأكوان موجودة، قد لا يمكننا أبدًا أن نسبر غور أسرارها، والأقل من ذلك احتمالاً أن نزورها. لكن هناك الكثير الجدير بأن يشغلنا في ما يخص كوننا.

يتكون كوننا من بضع مئات البلايين من المجرات، إحداها مجرة درب اللبانة. "مجرتنا" هكذا نحب أن نسميها، رغم أننا بالتأكيد لا نملكها. وهي تتكون من غاز وغبار ونحو ٤٠٠ بليون شمس. إحدى هذه الشمس - التي تقع في ذراع حلزوني ناء - هي الشمس، النجم المحلي - أقصى ما يمكن أن توصف به أنها رتيبة، ومملة، وعادية، ويصاحب الشمس خلال رحلتها التي استغرقت ٢٥٠ مليون سنة حول مركز درب اللبانة حاشية من العوالم الصغيرة. بعضها كواكب، وبعضها أقمار، والبعض الآخر كويكبات، والبعض مذنبات. ونحن البشر أحد الأجناس البالغ عددها ٥٠ بليون التي نمت وتطورت على كوكب صغير، الثالث من جهة الشمس، والذي نطلق عليه اسم الأرض. أرسلنا مركبات فضائية لفحص سبعين من العوالم الأخرى في مجموعتنا الشمسية، وللدخول إلى الأغلفة الجوية أو للهبوط على أسطح أربعة منها: القمر، والزهرة، والمريخ، والمشتري. إنه انشغالنا بالسعى تجاه أسطورة ما.

القدرة على التنبؤ فن مهجور، رغم "رغبتنا التواقية إلى اختراق الظلمات الكثيفة لأحداث المستقبل" حسب كلمات شارلز مكاي، وغالبًا ما نكون غير ماهرين تمامًا في هذا المجال. وتكون أكثر الاكتشافات أهمية في مجال العلم هي الأبعد عن التوقع، وليس الأمر مجرد استنتاج مما نعلمه الآن، ولكن توقع شيء مختلف تمامًا. والسبب في ذلك أن الطبيعة أكثر إبداعًا بكثير من الإنسان، وأكثر براعة، وأكثر روعة. لذلك فإنه من الغباء إلى حد ما محاولة التنبؤ بما ستكون عليه أغلب النتائج المهمة في علم الفلك في بضع عقود، والتي ستمثل الملامح المستقبلية لأسطورتنا التي نبدعها. ولكن من جانب آخر، توجد اتجاهات يمكن تمييزها في مجال تطوير تصنيع آلات جديدة تشير على الأقل إلى توقع اكتشافات جديدة تثير القشعريرة.

سيكون اختيار أي عالم فلك من بين المشاكل الأربع الأكثر إثارة للاهتمام أمرًا خاصًا به تمامًا، وأعلم أن كثيرًا منهم قد يصل إلى اختيارات مختلفة عن اختياري. وضمن الألغاز الأخرى المرشحة المادة المصنوع منها ٩٠ في المائة من الكون (وهو ما لا نعلمه حتى الآن)، ومعرفة أقرب ثقب أسود، والنتيجة العجيبة المزعومة حول أن المسافات بين المجرات مكماة^(*) – أي أن المجرات على أبعاد محددة وكذلك مضاعفاتها لكنها ليست على مسافات وسطية – وطبيعة مفجرات أشعة جاما، حيث ينفجر ما يكافئ كل المجموعة الشمسية عَرْضيًا، والتناقض الواضح حول أن عمر الكون قد يكون أقل من عمر أقدم النجوم فيه (قد يتم حل هذا التناقض بواسطة الاستنتاج الأخير، المستخرج من بيانات تلسكوب الفضاء هابل، الذي يشير إلى أن عمر الكون ١٥ بليون سنة)، والأبحاث في المختبرات الأرضية للعينات التي يتم الحصول عليها من المذنبات، والبحث عن أحماض أمينية ما بين النجوم، وطبيعة المجرات الأكثر قدما.

إذا لم تتوافر مخصصات أكبر لتمويل علم الفلك واستكشاف الفضاء في العالم كله – وهو احتمال كئيب لا يمكن تصوره على أية حال – فما هنا أربعة أسئلة^(**) ذات دلالات مستقبلية هائلة :

(*) يمكن التعبير عنها بلغة ميكانيكا الكم (المترجم).

(**) السؤال الخامس يتم تقديمه في الفصل التالي.

١ - هل كانت هناك حياة فى زمن ما على المريخ ؟

كوكب المريخ الآن صحراء متجمدة جافة جدًا، لكن فوق كل الكوكب توجد وديان أنهار واضحة باقية منذ زمن قديم. هناك أيضًا علامات عن بحيرات قديمة أو ربما حتى محيطات. من مدى انتشار الحفر الذى تتصف به التضاريس، يمكننا عمل تقدير أولى عن الزمن الذى كان فيه المريخ أكثر دفئًا وأكثر رطوبة. (تمت معايرة هذه الطريقة بعمل حفر على قمرنا وتاريخ النشاط الإشعاعى من أنصاف إعمار العناصر فى العينات القمرية التى عاد بها رواد فضاء أبولو). كانت الإجابة ٤ بلايين عام مضت. لكن ٤ بلايين عام مضت هى بالضبط الفترة التى كانت فيها الحياة تنشأ على الأرض. هل من المحتمل أنه كان يوجد كوكبان متقاربان لهما بيئتان متشابهتان، وظهرت الحياة على أحدهما وليس على الآخر؟ أم هل ظهرت الحياة مبكرًا على المريخ، لتنمحي تمامًا عندما تغير الطقس بشكل تكتنفه الألغاز؟ أو قد تكون هناك واحات وملاجئ، ربما تحت السطح، حيث توجد أشكال من الحياة استمرت حتى وقتنا الرهان؟ وهكذا يواجهنا المريخ بلغزين أساسيين : احتمال وجود حياة ماضية أو حاضرة. وسبب أن كوكب يشبه الأرض غرق فى عصر جليدى مستمر. وقد يكون السؤال الأخير ذا أهمية عملية بالنسبة لنا، كجنس يندفع بنشاط ليهدم بيئته الخاصة بجهل تام بما ينجم عن ذلك.

عندما هبطت المركبة فايكينج على المريخ فى ١٩٧٦ استنشقت الجو وعثرت على كثير من الغازات التى يوجد مثل لها فى جو الأرض (ثانى أكسيد الكربون مثلاً) وعلى بعض من الغازات المنتشرة فى جو الأرض (الأوزون مثلاً).

والأكثر من ذلك أنها عثرت على تنويع من الجزيئات، تم تحديد تركيبها موحد الخواص وكان فى كثير من الحالات مختلفًا عن التركيب موحد الخواص للجزيئات المماثلة على الأرض. وهكذا اكتشفنا السمة المميزة الخاصة بالجو المريخى.

ظهرت حينئذ حقيقة مثيرة للفضول. تم العثور على أحجار نيزيكية _ أحجار من الفضاء _ فى الغطاء الثلجى للقطب الجنوبي، فوق قمة الثلوج المتجمدة مباشرة، تم اكتشاف بعضها فى زمن فايكينج _ وبعضها بعد ذلك _ كلها سقطت على الأرض قبل بعثة فايكينج، غالبًا قبل عشرات الآلاف من السنوات. وعلى الطبقة

الثلجية المسطحة النظيفة فى القطب الجنوبي لم يكن من الصعب رؤيتها. وتم نقل أغلب تلك الأحجار النيزكية التى جُمعت بهذه الطريقة إلى ما كان فى أيام أبولو مختبر الاستقبال القمري فى هيوستون.

لكن التمويل ضئيل جدا فى "ناسا" فى أيامنا هذه، حتى إنه لم يتم لعدة سنوات إلقاء ولو نظرة أولية على تلك الأحجار النيزكية. تبين أن بعضها قادم من القمر، حجر نيزكى أو مذنب اصطدم بالقمر، أحجار من القمر انتشرت فى الفضاء، وهبط أحدها أو بعضها فى القطب الجنوبي. وكان واحد أو اثنان من هذه الأحجار النيزكية قادمًا من الزهرة. ومما يثير الدهشة أن بعضها - حيث تم التعرف على السمات المميزة للجو المريخي داخل معادنها - كانت قادمة من المريخ.

وفى ١٩٩٥/١٩٦٥ عاد علماء من مركز جونسون لطيران الفضاء التابع لـ "ناسا" أخيرا إلى فحص أحد الأحجار النيزكية ALH84001 الذى ثبت أنه آت من المريخ. لم يكن يبدو عليه بأى شكل أنه غير عادى، ويشبه حبة بطاطس بنية اللون. وعندما تم إجراء الفحص الكيميائى المجهرى تم اكتشاف أجناس محددة من الجزيئات العضوية، وبشكل رئيسى الهيدروكربونات العطرية متعددة الحلقات PAHS لم تكن تلك الجزيئات فى حد ذاتها هى كل ما لفت النظر، فإنها من الناحية البنائية تشبه الأنماط سداسية الشكل فى قرميد الحمام، مع ذرة كربون عند كل رأس للشكل. وتلك الجزيئات معروفة فى الأحجار النيزكية العادية، وفى الحبيبات ما بين النجوم، ويشتهر فى وجودها فى المشتري وتيتان. ولا تعتبر بأى شكل دليلاً على حياة. لكنها كانت مرتبة بطريقة تتيح لكثير منها التواجد فى أماكن أكثر عمقا فى الأحجار النيزكية التى عثر عليها فى القطب الجنوبي، مما يشير إلى أن مكوناتها لم تكن نتيجة تلوث من الصخور الأرضية (أو نتيجة عوادم السيارات)، لكنها ضمن تركيبة الحجر النيزكى. وتم العثور أيضاً على معادن أخرى ترتبط أحياناً بالحياة على الأرض. لكن النتيجة الأكثر إثارة تمثلت فى اكتشاف ما يطلق عليه بعض العلماء الحفريات النانو، وهى كرات بالغة الدقة ترتبط ببعضها البعض، مثل مستعمرات البكتيريا الصغيرة جدا على الأرض. لكن هل يمكننا التأكد من عدم وجود معادن أرضية أو مريخية لها نفس الشكل؟ هل الدليل دقيق؟ ظلت أؤكد لعدة سنوات فى ما يتعلق بالأشياء الطائفة المجهولة أن المزاعم

الاستثنائية تتطلب دلائل استثنائية. والدليل على الحياة فوق المريخ ليس استثنائياً بدرجة كافية حتى الآن.

لكنها بداية تلفت نظرنا إلى الأجزاء الأخرى من هذا الحجر النيزكى المريخى الخاص، وتقودنا إلى الأحجار النيزكية المريخية الأخرى، وتوجهنا إلى البحث عن أحجار نيزكية مختلفة تماماً فى الميدان الثلجى فى القطب الجنوبى، وتلمح إلى أننا لا نبحث فقط عن الأحجار الأخرى المدفونة فى الأعماق والآتية من المريخ أو التى يتم احضارها من فوقه، ولكننا نبحث عن أحجار فى أماكن أكثر سطحية، وتحفزنا إلى إعادة بحث النتائج المبهمة للتجارب البيولوجية على "فايكنج"، التى استخدم بعض منها بواسطة قلة من العلماء للبرهنة على وجود الحياة، وتدعو إلى إرسال بعثات مركبات فضائية لمناطق محلية معينة على المريخ التى قد تكون آخر المناطق الباقية التى يمكنها البوح بدفنه ورطوبته، وتفتح المجال كاملاً لبيولوجيا خارجية exobiology مريخية.

وإذا حالقنا الحظ وعثرنا حتى على جرثومة صغيرة على المريخ، فستكون لدينا الحالة الرائعة لكوكبين متقاربين^(*) كانت الحياة موجودة على كل منهما خلال نفس الفترة الزمنية المبكرة. حقا، قد تكون الحياة انتقلت بتصادم حجر نيزكى قادم من أحد العوالم إلى عالم آخر، ولا يدل ذلك على استقلال نشوء الكائنات فى كل من العالمين. ويجب أن يكون فى استطاعتنا التأكد من ذلك بفحص الكيمياء العضوية ومورفولوجيا (علم التشكل) أشكال الحياة التى لم تكتشف. ومن المحتمل أن الحياة قد ظهرت فى أحد العالمين فقط، لكنها تطورت بشكل منفصل عليهما معاً. سوف يكون لدينا عندئذ مثال للتطور المستقل عبر عدة بلايين من السنوات، وهو منجم بيولوجى لا يمكن الحصول عليه بأية طريقة أخرى.

وإذا كنا أكثر حظاً سنعثر على أشكال حياة مستقلة فعلاً. هل ستكون معتمدة على الأحماض النووية من أجل بناء شفراتها الجينية؟ هل تعتمد على البروتينات فى الحفز الإنزيمى لديها؟ ما الشفرة الجينية التى تستخدمها؟ وأيا كانت الإجابات عن هذه الأسئلة، سيكون علم البيولوجيا كله هو الفائز. وأيا كانت

(*) الأرض والمريخ (المترجم).

النتيجة، فإن ما يتضمنه هذا الأمر هو أن الحياة قد تكون أوسع انتشارًا بكثير مقارنة بما فكر فيه العلماء.

توجد في العقد المقبل خطط تتبناها كثير من الدول لإرسال روبوتات للدوران حول المدارات، وأجهزة الهبوط، والعربات، ومركبات الفضاء التي تخترق أسفل السطح لإرسالها إلى المريخ ضمن الإجراءات الأساسية للإجابة عن تلك الأسئلة، وربما تعود بعثة في ٢٠٠٥ بعينات سطحية وما تحت سطحية من المريخ إلى الأرض.

٢ - هل تيتان مختبر لأصل الحياة ؟

تيتان هو القمر الكبير لزحل، وهو عالم رائع له غلاف جوي أكثر كثافة من الغلاف الجوي للأرض بمقدار عشر مرات ومركب بشكل رئيسي من النيتروجين (مثل ما هو لدينا هنا) والميثان (CH_4). وعثرت مركبتا الفضاء الأمريكيتان "فوياجير" على عدد من الجزيئات العضوية البسيطة في الغلاف الجوي لتيتان، المركبات المبنية على الكربون التي شاركت في نشوء الحياة على الأرض. وهذا القمر محاط بطبقة غيمية معتمدة ضارية إلى الحمرة، لها خواص مماثلة لمادة صلبة حمراء بنية نتجت في المختبر عندما تم إمداد جو يحاكي الغلاف الجوي لتيتان بالطاقة. وعندما حللنا مركبات مادة هذا الشيء عثرنا على كثير من قوالب البناء الأساسية للحياة على الأرض. ولأن تيتان بعيد جدًا عن الشمس سيتجمد أي ماء عليه، وقد يجعلك ذلك تظن أنه في أفضل الأحوال يعتبر نظيرًا غير مكتمل للأرض في زمن نشوء الحياة. ومن ناحية أخرى تستطيع الصدمات التي تحدث بشكل عرضي بواسطة المذنبات تفكيك السطح، ويبدو الأمر كما لو أن المكان المعدل على تيتان كان تحت الماء عبر ألف عام، أو أكثر أو أقل، خلال تاريخه الممتد إلى ٤,٥ بليون سنة. وسوف تصل في عام ٢٠٠٤ مركبة فضائية تابعة لـ "ناسا" تسمى "كاسيني" إلى مجموعة زحل، وسوف ينفصل تلقائيًا مسبار دخول، صنعتها وكالة الفضاء الأوروبية يطلق عليه "هايجينس"، ويفوص ببطء خلال الغلاف الجوي لتيتان نحو سطحه المبهم. وسنعلم حينئذ إلى أي مدى انطلق تيتان على مسار الحياة.

٣ - هل توجد حياة ذكية خارج الأرض ؟

تنتقل الموجات الراديوية بسرعة الضوء، ولا شيء ينتقل بأسرع من ذلك، وبالبذبات المناسبة تمر تلك الموجات بلا عوائق خلال فضاء ما بين النجوم وخلال الأغلفة الجوية للكواكب. وإذا تم توجيه أكبر تلسكوب لاسلكي / رادارى على الأرض إلى تلسكوب نظير له على كوكب لنجم آخر، قد تكون المسافة بين التلسكوبين آلاف السنوات الضوئية ومع ذلك يمكنهما الإنصات كل منهما للآخر. ولهذه الأسباب، تم استخدام التلسكوبات اللاسلكية الراهنة لرؤية ما إذا كان هناك من يرسل لنا رسائل. وحتى الآن لم نجد شيئاً مؤكداً، لكن هناك "حوادث" معذبة - إشارات تم تسجيلها تتفق مع كل معايير الذكاء خارج الأرض، ما عدا مقياساً واحداً: تعيد تصويب التلسكوب إلى تلك الرقعة من السماء، وبعد دقائق، بعد شهور، بعد سنوات، لا تتكرر الإشارات أبداً. نحن ما زلنا فى بداية برنامج البحث. ويحتاج البحث الشامل إلى عقد أو عقدين. وإذا تم العثور على ذكاء خارج الأرض، سوف تتبدل وجهة نظرنا إلى الأبد حول الكون وحول أنفسنا. وإذا لم نعثر بعد بحث طويل منتظم على أى شيء، سنكون قد توصلنا إلى تقييم جانب من ندرة وعظمة الحياة على الأرض. وعلى كلا المسارين سيستحق البحث كل ما نفعله.

٤ - ما هو أصل ومصير الكون ؟

من المدهش أن علوم الفيزياء الفلكية الجديدة تقترب من تحديد التبصرات الأساسية عن أصل كل الكون، وطبيعته، ومصيره. الكون يتمدد، كل المجرات تتباعد عن بعضها البعض، وهو ما يطلق عليه تدفق هابل Hubble flow، أحد النماذج الرئيسية الثلاثة للبرهنة على الانفجار الهائل الذى حدث فى زمن بداية الكون، أو على الأقل على تجسده الراهن. الجاذبية الأرضية لها من القوة ما يكفى لإعادة جذب حجر قذف عالياً فى اتجاه السماء، لكنها لا تستطيع عمل ذلك مع صاروخ اكتسب سرعة الانفلات الصغرى. وهو نفس الأمر بالنسبة للكون: إذا كان يحتوى على كمية ضخمة من المادة، فإن الجاذبية الناجمة عن هذه المادة ستبطئ من التمدد وتوقفه. ويتحول الكون المتمدد إلى كون متقلص. وإذا لم يكن هناك ما يكفى من المادة، فإن التمدد يستمر إلى الأبد. والمادة التى تم جردها حالياً فى

الكون ليست كافية للإبطاء من التمدد، لكن هناك أسبابًا تدعو إلى الظن بأنه قد تكون هناك كمية ضخمة من المادة السوداء التي لا تكشف عن نفسها ببث ضوء يلاحظه علماء الفلك. إذا اتضح أن الكون المتمدّد مجرد وضع مؤقت، سيتحول أخيرًا إلى كون متقلص، سيرتفع بالتأكيد احتمال أن يمر الكون بعدد لا نهائي من التمددات والتقلصات ويمتد عمره بلا نهاية. ولا يحتاج الكون المعمر إلى الأبد إلى أن يخلق. فهو هنا باستمرار. ومن ناحية أخرى إذا لم يكن هناك ما يكفي من المادة لإحداث انعكاس في التمدد، قد يكون ذلك متفقًا مع كون مخلوق من لا شيء. تلك أسئلة عميقة وصعبة كان لدى كل حضارة إنسانية طريقة أو أخرى للتعامل معها. لكن في زمننا هذا فقط أصبح لدينا إمكانيات حقيقة للتوصل إلى بعض الإجابات، ليس بالتخمينات أو بقصص الحكايات، ولكن بواسطة ملاحظات حقيقية، قابلة للتكرار، وقابلة للتحقق منها.

أعتقد أنه توجد فرصة مواتية لتوقع اكتشافات مفاجئة في كل هذه المجالات الأربعة خلال العقد أو العقدين التاليين. ومرة أخرى، توجد أسئلة أخرى كثيرة في علم الفلك الحديث يُحتمل أننى استعصت عنها بغيرها، لكن التنبؤ الذى يمكننى الإدلاء به بأعلى ثقة أن أكثر الاكتشافات إثارة للدهشة ستكون تلك التى لا نملك الآن ما يكفي من الذكاء لتوقعها.

الفصل السادس

كثير من الشمس كثير من العوالم

كم هو مشروع عجيب ومدهش ذلك الكون هائل
الاتساع أمامنا هنا! كثير من الشمس، كثير من
الكواكب الأرضية

كريستين هويجينس

تخمينات جديدة عن العوالم الكوكبية،

سكانها ومنتجاتها (نحو عام ١٦٧٠)

فى ديسمبر ١٩٩٥، انفصل مسبار دخول عن "جاليليو" الدائرة فى مدار
المشتري ودخل إلى الغلاف الجوى الهائج المضطرب للمشتري وغاص فى موت
نارى، وخلال الطريق كان قد بث باللاسلكى معلومات حول ما عثر عليه. وقامت
أربع مركبات فضاء تالية بفحص المشتري عندما كانت مسرعة بالقرب منه. وتمت
دراسة الكوكب أيضا بواسطة التلسكوبات الموجودة على الأرض والتلسكوبات
الفضائية. وبشكل لا يشبه الأرض، التى تتكون بشكل رئيسى من الصخر والمعدن،
يتكون المشتري فى أغلبه من الهيدروجين والهليوم. وهو على درجة من الضخامة
بحيث يمكنه احتواء ألف كرة أرضية داخله. وفى الأعماق، يصبح ضغطه الجوى
بالغ الارتفاع حتى أن الإلكترونيات تتركز خارجة من الذرات ويصبح
الهيدروجين معدنا ساخنا. وتدفع هذه الحالة إلى الظن بأنها وراء أن المشتري
يفقد من طاقته ضعف ما يصله من الشمس. ومن المحتمل أن الرياح التى دفنت

مسبار جاليليو فى أعرق نقرة وصل إليها لم تأت فقط من ضوء الشمس ولكن أيضا من الطاقة الناشئة فى أعماق الكوكب الداخلية. وفى قلب المشتري تمامًا يبدو أن هناك عالمًا صخريًا وحديديًا له كتلة أكثر عدة مرات من كتلة الأرض، يحيط به محيط هائل من الهيدروجين والهليوم. والوصول إلى الهيدروجين الصلب — ومن جانب أولى القلب الحبرى — يعتبر فوق القدرات البشرية حتى عدة قرون على الأقل أو حتى الألفية المقبلة.

والضغوط على درجة من الارتفاع فى داخل المشتري حتى إنه من الصعب تخيل وجود حياة هناك، حتى لو كانت حياة مختلفة عن الحياة لدينا. وقد حاول بعض العلماء — وكنت منهم، لمجرد الفكاهة — أن نتخيل بيئة عضوية قد تتطور فى جو يشبه جو كوكب المشتري، شىء يشبه الميكروبات والأسماك فى محيطات الأرض. قد يكون نشوء الحياة صعبًا فى مثل هذه البيئة، لكننا نعرف الآن أن تصادمات الكويكبات والمذنبات تنقل مواد السطح من عالم إلى آخر، حتى إنه من المحتمل أن تلك الصدمات خلال التاريخ المبكر للأرض قد نقلت حياة بدائية من كوكبنا إلى المشتري. وهذا — رغم كل شىء — هو التخمين الأقرب إلى الحدوث.

يبعد المشتري نحو ٥ وحدات فلكية من الشمس . والوحدة الفلكية (اختصارها AU) هى المسافة التى تبعد بها الأرض عن الشمس، وهى نحو ٩٣ مليون ميل، أو ١٥٠ مليون كيلومتر. ولولا الحرارة الداخلية وتأثير ظاهرة التصوب فى جو المشتري الهائل، كان يمكن لدرجة الحرارة فيه أن تصل إلى نحو ١٦٠ درجة تحت الصفر المئوى. وهى بالتقريب درجة الحرارة على سطح أقمار المشتري — وهى بالغة البرودة بما لا يناسب الحياة. يدور المشتري وأغلب الكواكب الأخرى فى مجموعتنا الشمسية حول الشمس فى نفس المستوى، كما لو أنه قد تم تقييدها فى أخاديد منفصلة على أسطوانة فونوجراف أو قرص مدمج. ما معنى هذا؟ لماذا لا تكون مستويات الدوران مائلة بكل الزوايا ؟ كان إسحق نيوتن، العبقرى فى مجال الرياضيات الذى أدرك منذ البداية كيف تسبب الجاذبية حركة الكواكب، متحيرًا لغياب أى ميل ذى قيمة فى مستويات دوران الكواكب، واستنتج أنه فى بداية نشوء المجموعة الشمسية، لا بد أن الله شغل الكواكب خارج كل المدارات فى نفس المستوى.

لكن عالم الرياضيات بيير سيمون (ماركيز دي لابلاس) وكذلك فى وقت لاحق الفيلسوف المشهور عمانويل كانت، اكتشفا كيف يمكن أن يكون الأمر قد حدث دون عون من التدخل الإلهي، وبشكل ساخر اعتمدا على نفس قوانين الفيزياء التى اكتشفها نيوتن. ويسير العرض المختصر لفرضية كانت _ لابلاس على النحو التالى: تخيل سحابة غاز وغبار تدور ببطء وبشكل غير منتظم موجودة بين النجوم. ويوجد الكثير من هذه السحب. إذا كانت كثافتها عالية بدرجة كافية، سوف يتغلب التجاذب الناتج عن قوة الجاذبية بين الأجزاء المختلفة وبعضها البعض فى السحابة، على الحركة الداخلية العشوائية، وستبدأ السحابة فى التقلص. وخلال تقلصها هذا، سوف تدور بسرعة أعلى، ومثل متزحلق على الجليد يدور على قدم واحدة تطوى السحابة أذرعها. ولن يعوق الدوران تقلص السحابة فى موازاة محور الدوران، لكنه سيبطئ التقلص فى مستوى الدوران. وتحول السحابة الأولية غير المنتظمة نفسها إلى قرص مستو. لذلك فإن الكواكب التى نمت ملتحمة من هذا القرص أو تكثفت من مادته ستدور كلها تمامًا فى نفس المستوى. وتكفى قوانين الفيزياء لتفسير ذلك، دون تدخل ما هو خارق للطبيعة.

والتنبؤ بأن مثل هذه السحابة الشبيهة بالقرص يمكن وجودها قبل تشكل الكواكب هو جانب من الموضوع، لكن إثبات هذا التنبؤ برؤية مثل هذه الأقراص عملياً حول النجوم الأخرى أمر مختلف تمامًا. عندما تم اكتشاف مجرات أخرى تدور بشكل حلزوني مثل درب اللبانة، رأى كانت أن "تلك" كانت أقراص ما قبل الكواكب التى سبق التنبؤ بها، وأن "الفرضية السديمية nebular hypothesis عن أصل الكواكب قد تم إثباتها. (تأتى كلمة سديم aluben من الكلمة الإغريقية المعبرة عن cloud أى السحابة). لكن هذه الأشكال الحلزونية ثبت أنها مجرات نجوم تمت دراستها عن بعد وليست مصادر نشوء قريبة للنجوم والكواكب. واتضحت صعوبة العثور على الأقراص النجمية الطوقية Circumstellar .

واحتاج الأمر لأكثر من قرن لاحق، مع استخدام تجهيزات تتضمن مرصد مدارية، حتى يتم إثبات الفرضية السديمية. عندما ننظر إلى نجوم شابة تشبه الشمس، مثل شمسنا منذ أربعة أو خمسة ملايين سنة مضت، نجد أن أكثر من نصفها محوط بأقراص مسطحة من الغبار والغاز. وفى حالات كثيرة تبدو الأجزاء

القريبة من النجم خالية من الغبار والغاز، كما لو أن كواكب قد تكونت فعلاً هناك، ملتزمة المادة ما بين الكواكب. وليس هذا إثباتاً حاسماً، لكنه يشير بقوة إلى أن النجوم التي تشبه نجمنا كثيراً ما تكون - وإن لم يكن بشكل ثابت - مصحوبة بالكواكب. تؤدي هذه الاكتشافات إلى زيادة العدد المحتمل للكواكب في مجرة درب اللبانة على الأقل إلى البلايين.

ولكن ماذا عن الكواكب الأخرى التي تم رصدها فعلاً؟ من المسلم به أن النجوم بعيدة جداً - أقرب النجوم على مسافة نحو مليون وحدة فلكية عادة - وتتألق فقط في الضوء المرئي على شكل انعكاس. لكن تقنيتنا تتحسن بسرعة فائقة. فهل يمكننا على الأقل رصد أبناء عم المشتري الكبار حول النجوم القريبة، وربما بالأشعة تحت الحمراء إن لم يكن بالضوء المرئي؟

دخلنا خلال السنوات القليلة الماضية في عصر جديد في التاريخ البشري، حيث أصبحنا قادرين على رصد كواكب نجوم أخرى. والمجموعة النجمية الأولى التي تم اكتشافها ويعول عليها مصحوبة بنجم : $B 1257 + 12$ وهو نجم نيوتروني يدور بسرعة، من بقايا نجم كان أكثر ضخامة من الشمس فجر نفسه على هيئة انفجار متجدد أعظم (سوبرنوف) *supernova* هائل. ويأسر المجال المغناطيسي لهذا النجم الإلكترونات ويجبرها على الحركة في نوع من المسارات تجعلها، مثل الصوية تضىء شعاعاً من الضوء اللاسلكي^(*) عبر فضاء ما بين النجوم. وبالصدف، يعترض الشعاع الأرض - مرة كل 0.0062185319388187 ثانية. ولهذا السبب أطلق على $B 1257 + 12$ نابض (بلسار) *pulsar*. وثبات فترة دورانه^(**) أمر مذهش. وبسبب الدقة العالية للقياسات، تمكن أليكس فولزيتشان، وهو في جامعة بين ستيت حالياً^(***)، من العثور على حالات "الخلل" - الشذوذيات في المواضع القليلة الأخيرة في الكسر العشري. ما الذي يسببها؟ الزلازل النجمية أم ظاهرة أخرى على النجم النيوتروني ذاته؟ مع السنين، كانت تلك المنظومة النجمية قد غيرت تماماً الطريقة المتوقعة لدوران كواكبها حول $B1257 + 12$ ، حيث كانت تنجذب

(*) (الراديو) (المترجم).

(**) (أى ثبات الزمن بين النبضات) (المترجم).

(***) (يقصد وقت تحرير الكتاب) (المراجعة اللغوية).

بشكل طفيف مرة بطريقة ثم بعدئذ بطريقة أخرى. وكان الاتفاق الكمي^(*) من الدقة لدرجة أن النتيجة أصبحت حتمية. لقد اكتشف فولزتشان أول كواكب معروفة خارج مجموعتنا الشمسية، ومن المحتمل أن اثنين من تلك الكواكب ذات كتل تزيد قليلا عن كتلة الأرض، ويدوران حول نجمهما على مسافتين لا تختلفان كثيرا عن مسافة بعد الأرض عن الشمس، أى وحدة فلكية واحدة. هل علينا أن نتوقع وجود حياة على تلك الكواكب؟ لسوء الحظ لا، حيث توجد من الجسيمات المشحونة التى يقذفها النجم النيوترونى، والتى ترفع درجات حرارة كواكبه الشبيهة بالأرض بما يتخطى درجة حرارة غليان الماء. وعلى أبعاد منا تصل إلى ١٣٠٠ سنة ضوئية لن يتاح لنا السفر قريبا إلى هذه المنظومة الكوكبية. وما زال هناك لغز حتى الآن يدور حول ما إذا كانت تلك الكواكب قد نجت من انفجار السوبرنوفال الذى أنتج النابض أم أنها تشكلت من بقايا انفجار السوبرنوفال.

وبعد قليل من اكتشاف فولزتشان الذى يمثل عصرًا جديدًا، تم اكتشاف مزيد آخر من الأشياء ذات الكتل النجمية (تم ذلك بشكل رئيسى بواسطة جوف مارسى وبول بوتلر من جامعة سان فرانسيسكو ستيت) تدور حول نجوم أخرى، وهى فى هذه الحالة نجوم عادية تشبه الشمس، وكانت التقنية المستخدمة مختلفة وكان تطبيقها بالغ الصعوبة، وتم اكتشاف تلك الكواكب بواسطة التلسكوبات الضوئية التقليدية التى كانت ترصد التغيرات الدورية فى طيف النجوم القريبة منا. قد يكون النجم أحيانا متحركا فى فترة زمنية ما تجاهنا ثم يتباعد عنا، كما تحدده التغيرات فى طول موجة خطوطه الطيفية، ظاهرة دوبلر، وهو ما يشبهذبذبات بوق السيارة عندما تكون متوجهة نحونا أو مبتعدة عنا، ويعنى ذلك أن شيئا ما فى النجم يشده بقوة. ومرة أخرى تم اكتشاف عالم غير مرئى عن طريق الاتفاق الكمي ، بين الحركات الدورية الطفيفة للنجم التى تتم ملاحظتها وما نتوقعه إذا كان للنجم كوكب قريب منه.

والكواكب المقصودة فى هذا المجال تدور حول النجوم بيجاسى ٥١ Pegasus ، فيرجينيس ٧٠ Virginis ، وأورسى ماجوريس ٤٧ Ursae Majoris ، على التوالى فى

(*) بين حالات الخلل تلك والحركة الانعكاسية للنابض استجابة لوجود النجوم (المترجم) .

مجرات الفرس الأعظم Pegasus ، و برج العذراء Virgo ، والدب الأكبر Ursa Major أو Big Dipper . وفى عام ١٩٩٦ تم اكتشاف كوكبين مماثلين أيضًا يدوران حول كانسرى ٥٥ ancri فى برج السرطان Cancer أو Crab. وهما تاو بوتيس Tau Bootis وأبسلون أندروميدى^(*) Upsilon Andromede. يمكن رؤية كل من أورسى ماجوريس ٤٧ وفيرجينيس ٧٠ بالعين المجردة فى سماء أمسيات الربيع. وهما قريبان جدًا كما هى عادة النجوم. ويبدو أن كتل تلك الكواكب تتراوح بين ما هو أقل بقليل من المشتري وما هو أكثر بعدة مرات من المشتري. والأكثر إثارة للدهشة فى ما يتعلق بها هو اقترابها الشديد من نجومها، حيث تبلغ هذه المسافة ٠,٠٥ وحدة فلكية بالنسبة لبيجاسى ٥١ حتى أكثر بقليل من ٢ وحدة فلكية بالنسبة لأورسى ماجوريس. وقد تحتوى تلك المنظومات الفلكية أيضا على كواكب أصغر تماثل الأرض، لم تكتشف بعد، لكن نسقها ليس كالأرض.

فى مجموعتنا الشمسية لدينا كواكب صغيرة مثل الأرض فى داخل المجموعة وكواكب كبيرة مثل المشتري فى خارج المجموعة. لكن بالنسبة لتلك النجوم الأربعة^(**) تبدو الكواكب المماثلة للمشتري فى كتلته فى الداخل^(***). كيف يمكن أن يحدث ذلك ؟ لا يفهم أحد هذا الأمر فى الوقت الراهن. فنحن لانعلم حتى ما إذا كانت تلك الكواكب تماثل المشتري حقًا، مع أغلفتها الجوية الهائلة المحتوية على الهيدروجين والهليوم، والهيدروجين المعدنى أسفل فى أعماقها وقلب يشبه الأرض فى أعماق الأعماق. لكننا نعرف أن الأغلفة الجوية للكواكب المماثلة للمشتري عندما تكون بمثل هذا البعد القريب من نجومها لن تتبخر. ويبدو أنه من غير المحتمل أنها قد تشكلت فى محيط منظوماتها الشمسية وتلّوت بطريقة ما فأصبحت أكثر اقترابًا من نجومها. ولكن من المحتمل أن بعض الكواكب الكثيفة المبكرة قد تباطأت حركتها بواسطة الغاز السديمى ثم أخذت مسارًا لولبيًا إلى الداخل. ويرى أغلب الخبراء أن المشتري لا يمكن أن يتشكل على هذه المسافة القريبة من النجم.

(*) يعود الاسمان إلى كوكبتى راعى الشاء Bootis والمرأة المسلسلة Andromeda. (المترجم)

(**) السابق نكرها. (المترجم)

(***) الحلقة الداخلية القريبة من النجوم. (المترجم)

لماذا ؟ لأن فهمنا المعترف به عن أصل المشتري يمكن عرضه على النحو التالي: فى الأجزاء الخارجية للقرص السديمى - حيث كانت درجات الحرارة بالغة الانخفاض - تكثفت عوالم الجليد الصغيرة والصخور، فى ما يشبه المذنبات والأقمار الجليدية فى الأجزاء الخارجية من منظومتنا الشمسية. وتصادمت تلك الكتل القارسة عند سرعات منخفضة، والتصقت ببعضها، وأصبحت بالتدريج على درجة من الضخامة تكفى لأن تشد الجاذبية غازى الهيدروجين والهليوم المنتشرين من السديم، ليتم تشكيل المشتري من داخله إلى خارجه. وفى المقابل، فإنه كلما تم الأمر على بعد أقرب من النجم - كما هو مُعتقد، فإن درجات الحرارة السديمية كانت بالغة الارتفاع بحيث لا يمكن بالأحرى للجليد أن يتكثف، وتكون العملية بكاملها غير قابلة للتحقيق. لكننى أتساءل ما إذا كانت بعض الأقراص السديمية تحت نقطة تجمد الماء حتى لو كانت قريبة جداً من النجم المحلى؟

وعلى أية حال، فمع وجود كواكب مماثلة للأرض حول نابض^(*) وأربعة كواكب جديدة مماثلة للمشتري حول نجوم مماثلة للشمس، يمكننا استنتاج أنه من الصعب أن يكون هذا النوع من منظومتنا الشمسية نموذجياً. وهذا أمر أساسى إذا كانت لدينا آمال حول تأسيس نظرة عامة عن أصل نشوء المنظومات الكوكبية، وعلى تلك النظرة أن تتضمن الآن تنوعاً من المنظومات الكوكبية.

ومع ذلك فإنه تم فى وقت أكثر قرباً استخدام تقنية تسمى علم القياسات الفلكية لرصد كوكبين، ومن المحتمل ثلاثة، من الكواكب المماثلة للأرض حول نجم قريب جداً من شمسنا، هو النجم لالاند ٢١١٨٥. وفى هذه الحالة تم رصد الحركة الدقيقة للنجم خلال عدد كبير من السنوات، وأجريت ملاحظات دقيقة حول الارتداد الناجم عن دوران أى كواكب حوله. وانطلاقاً من المدارات الدائرية أو الإهليلجية للالاند ٢١١٨٥ أصبح متاحاً لنا الكشف عن وجود الكواكب. وهكذا فلدينا هنا منظومة كوكبية مألوفة لنا، أو على الأقل مألوفة إلى حد ما. ويبدو أن هناك فئتين على الأقل أو من المحتمل أكثر من فئتين من المنظومات الكوكبية فى فضاء ما بين النجوم المتاخم لنا.

(*) بلسر (المترجم) .

أما عن الحياة فى هذه العوالم المثيلة للمشتري، فإنها غير مرجحة إلا كما هو الحال على المشتري التابع لمجموعتنا. لكن المحتمل هو أن لهذه العوالم أقماراً، مثل الـ ١٦ التى تحيط بالمشتري. ولأن تلك الأقمار - مثلها مثل العوالم العملاقة التى تدور حولها، قريبة من النجم المحلى، فإن درجات حرارتها، خاصة بالنسبة لفيرجينيس ٧٠ - قد تكون مناسبة للحياة. وعلى بعد يتراوح بين ٣٥ و ٤٠ سنة ضوئية، تعتبر تلك العوالم على درجة كافية من القرب بالنسبة لنا لأن نبدأ فى الحلم بيوم ما نستطيع فيه إرسال مركبة فضائية بالغة السرعة لزيارة هذه العوالم، على أن تتلقى سلاتنا البيانات.

وفى غضون ذلك الوقت ستكون قد توافرت سلسلة من التقنيات، فبالإضافة إلى توقيتات الخلل فى النابض (بلسار) وأجهزة قياس ظاهرة دوبلر للسرعات القطرية للنجوم، ومقاييس التداخل الضوئى على الأرض، أو الأفضل من ذلك فى الفضاء، والتلسكوبات الأرضية التى تلغى اضطراب الغلاف الجوى الأرضى، والمراصد الأرضية التى تستخدم تأثير الجاذبية على العدسات من الأهداف الكثيفة البعيدة، والقياسات بالغة الدقة من الفضاء نفسه لخفوت النجم عند مرور أحد كواكبه أمامه، وكل شىء على ما يبدو سيكون معداً خلال السنوات القليلة المقبلة للتوصل إلى نتائج مهمة. نحن الآن على مشارف التجول خلال آلاف من النجوم القريبة منا، باحثين عن رفاق. وبالنسبة لى يبدو من المرجح خلال العقود المقبلة أن يكون لدينا معلومات عن مئات على الأقل من المنظومات الكوكبية القريبة منا فى مجرة درب اللبانة الهائلة - وربما حتى بضع عوالم صغيرة زرقاء بفضل المحيطات المائية، وعن أكسوجين فى أغلفة جوية، وإشارات تدل على وجود حياة مدهشة.

الجزء الثانى

علامَ يحافظ المحافظون ؟

الفصل السابع

العالم الآتى مع البريد

العالم ؟

القمير يقطر مرتعداً من ابنة الراعى^(*)

دوجين (١٢٠ - ١٢٥٣)

"يقظة على انعدام الديمومة" من لوسيان سترايك وتاكاشي
إكيموتو، قصائد فرقة زن البوذية فى اليابان :إبرة الراعى.

(نيويورك: جروف بريس، ١٩٧٣)

وصل العالم بالبريد، كانت عليه علامة "قابل للكسر"، وكان الملصق فوق
الغطاء يصور كأساً مكسوراً. فتحتة بعناية، فزعا من رنين بللور مكسور أو من
اكتشاف كسرة زجاج، لكنه كان سليماً. وبيدى الاثنتين رفعته وعرضته لضوء
الشمس، كان كرة شفافة، يمتلئ نصفها تقريباً بالماء. وكان مثبتاً عليها شريط
مكتوب عليه بشكل غير واضح الرقم ٤٢١٠. العالم رقم ٤٢١٠ : هذا يعنى وجود
كثير من هذه العوالم. وباحتراس وضعتة على قائم لوسايت^(**) الموجود معه.
وحملت داخله.

(*) نبات ابنة الراعى أو الغُرُنوقى. (المترجم)

(**) اسم تجارى لمادة صمغية مشهورة. (المترجم)

كان فى استطاعتى رؤية الحياة هناك داخله - شبكة من الغصون، بعضها مكسو بقشرة من الطحالب الخضراء الخيطية، وستة أو ثمانية حيوانات صغيرة، أغلبها قرنفلى، تثب مرحلة، هكذا بدت بين الأغصان.

إضافة إلى ذلك كانت هناك مئات من أنواع أخرى من الكائنات، التى كانت وافرة فى تلك المياه مثل الأسماك فى محيطات الأرض، لكنها كانت جراثيم، على درجة من الصغر لا أستطيع معها رؤيتها بالعين المجردة. ومن الواضح أن الحيوانات القرنفلية كانت حيوانات قشرية شبيهة بالربيان (الجمبرى) shrimp مع بعض التنوع المناسب البسيط، وهى تجذب اهتمامك فوراً لأنها كانت "مشغولة" جداً. قليل منها كان قد حط على الأغصان، وهى تسير على عشرة أرجل وتلوح بأعداد وافرة من الأعضاء الإضافية الأخرى. كان واحد منها يكرس كل اهتمامه وعدداً كبيراً من أطرافه لالتهام شعيرات عشبية، وبين الأغصان المكسوة بكثير من الطحالب مثل أشجار فى جورجيا وشمال فلوريدا المغطاة بطحلب إسباني، يمكن رؤية حيوانات ربيان أخرى تتحرك كما لو كان لديها مواعيد عاجلة فى مكان آخر، وقد تغير ألوانها أحياناً عندما كانت تسبح من بيئة إلى بيئة أخرى. كان أحدها شاحباً، شفافاً تقريباً، وآخر برتقالياً، مع تورّد معقد باللون الأحمر.

وبالطبع كانت تلك الكائنات مختلفة عنا من نواح عدة، فكانت هياكلها العظمية من الخارج، ويمكنها التنفس فى الماء، وكان هناك نوع من الشرج موجوداً بشكل مريب بالقرب من أفواهها. (ومع ذلك كانت شديدة الحساسية بالنسبة للمظهر والنظافة، حيث تملك زوجاً من المخالب المتخصصة ذات شعر منتصب يشبه الفرشاة. بحيث يمكن لأى منها أحياناً أن يحصل بنفسه على عملية حك جيدة للتنظيف).

لكنها من نواح أخرى كانت تشبهنا، كان من الصعب إغفال ذلك، كانت لها أمخاخ، وقلوب، ودم، وعيون. كان احتياج أطراف السباحة يدفعها خلال الماء ليظهر ما يبدو تلميحاً بوجود غرض واضح لتلك الأطراف. وعند وصولها إلى أهدافها تتجه إلى الطحالب العشبية بدقة ورهافة ومثابرة خبير مكرس للأكل. وكان اثنان منها - مغامران أكثر من البقية - يطوفان فى محيط هذا العالم، حيث يسبحان على ارتفاع من الطحالب، يعاينان ببطء أملاكهما.

بعد قليل يمكنك تمييز الأفراد بين تلك الكائنات، أحدها يطرح إهابه القديم، ينفصل عن هيكله العظمى ليتيح مكاناً لآخر جديد. وفى ما بعد يمكن رؤية هذا الشيء شفافاً ومثل الكفن، متدلياً بصلاية من أحد الأفرع، وقد خرج عنه ساكنه السابق ليهتم بشأنه فى ما يشبه درعاً قرنيًا جديدًا مصقولاً. وها هنا، أحدها وقد فقد ساقاً. هل كان هناك نوع من المعارك العنيفة مخلصاً بمخلب، ربما بسبب صراعات مدمرة حول حسناء صالحة للتزاوج؟

من زوايا معينة، يصبح سطح الماء مرآة، ويرى الكائن القشرى انعكاسه هناك. هل يتعرف على نفسه؟ الاحتمال الأقرب أنه يرى فقط الانعكاس كما لو كان كائناً قشرياً آخر. ومع زوايا أخرى تضخم سماكة الزجاج المقوس حجم تلك الكائنات، عندئذ يمكننى تصور شكلها الحقيقى. أذكر مثلاً أنه كان لها شوارب، وتسابق اثنان منها إلى سطح الماء وعندما عجزا عن التغلب على التوتر السطحي للماء ارتدا عند سطح الماء المحدب، عندئذ حدث فى الجانب العلوى الأيمن شىء ما أخافها – على ما أظن – فغاصت كلها برقة إلى القاع. كانت أذرعها متقاطعة دون قصد، هكذا كان الأمر يبدو تقريباً، كما لو أن الأعمال البطولية شىء مألوف، ولا يوجد ما هو جدير بالكتابة عنه. إنها كائنات ممتازة.

وإذا أتيت لى أن أرى بوضوح أحد تلك الكائنات القشرية من خلال البللورة المنحنية، أتصور أنه قادر على أن يرانى، أو يرى عينى على الأقل، ما يشبه قرصاً أسود بالغ الضخامة، بهالة بنية وخضراء. حقاً، كان يحدث أحياناً خلال مراقبتى واحداً منها وهو مشغول بلمس الطحالب، أن يبدو كما لو أنه تصلب ونظر خلفه تجاهى. لقد أجرينا اتصالاً بالعيون، وأتساءل عن تفكيره فيما رأى.

بعد انهماك فى العمل دام يوماً أو يومين، استيقظت وألقيت نظرة سريعة على العالم البلورى.. بدا أن تلك المخلوقات قد اختفت جميعها، وبخت نفسى. لست فى حاجة إلى إطعامها أو إعطائها فيتامينات أو تغيير مياهها أو اصطحابها إلى الطبيب البيطرى. وكل ما على عمله التأكد من أنها ليست فى إضاءة شديدة جداً ولم تتعرض طويلاً للظلام وأنها دائماً فى درجة حرارة تتراوح بين ٤٠ و ٨٥ درجة فهرنهايت. (إضافة إلى ذلك، خمنت أنها نوع من الحساء وليست منظومة بيئية).

فهل حدث خلال غفلتي عنها أننى تسببت فى قتلها ؟ لكنى رأيت حينئذ إحداها يخرج قرن استشعاره من خلف أحد الأفرع، وتأكدت أنها مازالت فى صحة جيدة، أنها مجرد كائنات قشرية مثل الروبيان، لكن بعد فترة تجد نفسك مهمومًا بها، مشجعًا إياها.

إذا كنت مسئولًا عن عالم مثل هذا، وتشغل نفسك وفق ما يمليه ضميرك بدرجة حرارته وتنوع شدة الإضاءة فيه، عندئذ - ومهما كانت تصوراتك فى البداية - ستهتم أخيرًا بحال الموجودات "هناك"، هل هى مريضة أو تموت ؟ رغم أنه ليس فى استطاعتك الكثير لتفعله من أجل إنقاذها، ومن نواح محددة، ليس لديك مزيد من القوة أكثر منها، لكنها تؤدى أفعالاً - مثل التنفس فى الماء - لا تستطيعها أنت، أنت محدود، محدود بشكل مزعج. أنك حتى تتساءل ما إذا كان من القسوة وضعها فى هذا السجن البللورى، لكنك تعيد التأكيد لنفسك بأنها هنا آمنة على الأقل من الحيتان ذات الفك ويقع النفط وصلصة الطماطم.

لا تبقى طويلاً تلك الأكفان الشبحية التى طُرحت وكذلك جثث الحيوانات القشرية التى ماتت، حيث يتم أكلها، من ناحية بواسطة الحيوانات القشرية الأخرى، ومن ناحية أخرى بواسطة الكائنات العضوية المجهرية غير المرئية التى يعج بها محيط هذا العالم، ويذكرك ذلك بأن تلك الكائنات لا تعمل بأنفسها. إنها "تحتاج" لبعضها البعض، إنها تعتنى ببعضها البعض بطريقة لا أستطيع اتباعها معها. تستنشق الحيوانات القشرية الأكسجين من الماء وتزفر ثانى أكسيد الكربون، وتأخذ الطحالب ثانى أكسيد الكربون من الماء وتزفر الأكسجين. كل منها يتنفس غاز العادم الناتج عن الآخر، ويتم تدوير عوادمها الصلبة أيضاً، بين النباتات والحيوانات والكائنات العضوية المجهرية. وفى جنة عدن هذه الصغيرة، تسود بين سكانها علاقة حميمة تماماً.

وحياة الحيوانات القشرية أكثر ضعفاً بكثير من حياة الكائنات الأخرى ومحفوفة بالمخاطر. يمكن للطحالب أن تعيش بدون الحيوانات القشرية مدة أطول من المدة التى يمكن للحيوانات القشرية أن تعيشها بدون الطحالب. تأكل الحيوانات القشرية الطحالب، لكن الطحالب تعيش بشكل أساسى على الضوء. وفى

آخر الأمر بدأت الحيوانات القشرية تموت واحدا تلو الآخر، ولا أعرف حتى يومنا هذا السبب وراء ذلك. وجاء الوقت الذي لم يبق فيه إلا واحد فقط، وبكآبة - كما بدا الأمر - كان يقضم برفق غصين طحالب حتى مات هو أيضا. وما أدهشني بعض الشيء اكتشافى أننى كنت فى حداد عليها جميعا. توقعت أن يكون سبب ذلك جزئيا أننى تعرفت عليها قليلا، ولكن من جانب آخر كنت أعرف أن السبب هو خوفى من وجود تشابه بين عالمها وعالمنا.

وليس هذا العالم حوضا لعرض الكائنات الحية، بل هو عالم صغير عبارة عن منظومة بيئية، حيث يدخل إليه الضوء ولا شئ سواه: لا طعام، لا ماء، لا مواد غذائية، وحيث يجب إعادة تدوير كل شئ. مثل ما يحدث على الأرض تماما، وفى عالمنا الأكبر، فنحن نعيش أيضا - النباتات والحيوانات والكائنات المجهرية - على بعضنا البعض، نتنفس ونأكل على بقايا بعضنا البعض، نعتمد على بعضنا البعض. والحياة فى عالمنا، أيضا، تستمد طاقتها من الضوء، الضوء الآتى من الشمس، الذى يمر خلال الهواء النقي، فتحصده النباتات ليعطيها الطاقة على دمج ثانى أكسيد الكربون مع الماء للحصول على الكربوهيدرات والمواد الغذائية الأخرى، التى تتيح بدورها العنصر الرئيسى لغذاء الحيوانات.

ويشبه عالمنا الكبير هذا العالم الصغير إلى حد بعيد، ونحن نشبه تماما هذه الحيوانات القشرية. ولكن يوجد فرق رئيسى واحد على الأقل: فخلافا للحيوانات القشرية، نحن قادرون على تغيير بيئتنا، يمكن أن نفعل فى أنفسنا ما يفعله مالك مهمل لهذه الكرة البلورية فى الحيوانات القشرية، فإذا لم يكن لدينا الحرص الواجب، يمكن أن نرفع درجة حرارة كوكبنا بسبب ظاهرة تصوب الغلاف الجوى أو نجعله باردا أو مظلما نتيجة حرب نووية أو إحراق كثيف لبئر نפט (أو بتجاهل خطر تصادم كويكب أو مذنب بالأرض).

ونتيجة المطر الحمضى وتآكل الأوزون والتلوث الكيميائى والنشاط الإشعاعى ومحو الغابات الاستوائية، وعشرات أخرى من أنواع الاعتداءات على البيئة، ندفع عالمنا الصغير ونجره إلى اتجاهات يصعب فهمها. وقد يكون الأمر أن حضارتنا المتقدمة المزعومة تغير التوازن البيئى الدقيق الذى تطوّر بشكل متعرج خلال فترة زمنية بلغت ٤ بلايين عام من الحياة على الأرض.

والقشريات المائية crustacea - شأنها شأن الحيوان القشري السابق ذكره shrimp - تعتبر كائنات أقدم من البشر أو الرئيسيات أو حتى الثدييات. وتعود الطحالب إلى ثلاثة بلايين سنة، أقدم من الحيوانات، مما يمثل الجزء الأكبر من مسار بدء الحياة على الأرض. وكانت الكائنات تعمل دائما معا _ النباتات والحيوانات والميكروبات _ منذ زمن بالغ الطول. ونظام الكائنات الحية في كرتى البللورية قديم، أقدم بكثير من أية مؤسسة ثقافية معروفة لدينا. وتم اقتلاع الميل إلى التعاون بشكل مؤلم خلال عملية التطور. وكان الموت فى انتظار تلك الكائنات الحية التى لم تتعاون، تلك التى لم تعمل مع بعضها البعض. وتم تشفير التعاون على جينات الكائنات التى نجت من الموت، إن من "طبيعتها" أن تتعاون، إن التعاون وراء بقائها.

لكننا نحن البشر قادمون جدد ظهرنا منذ عدة ملايين قليلة مضت، وعمر حضارتنا التقنية الراهنة مجرد بضع مئات من السنوات، لم نحصل على خبرة كبيرة معاصرة فى التعاون الطوعى ما بين الأجناس (أو حتى ضمن الجنس الواحد)، ونحن مكرسون تماما للمدى القصير، ويصعب تماما أن ننشغل بالمدى البعيد. ولا ضمان بأننا سنكون على درجة من الحكمة تكفى لأن نفهم نظامنا البيئى المغلق بسعة كوكب الأرض، أو لأن نحسن سلوكنا تبعاً لهذا الإدراك.

كوكبنا لا يتجزأ؛ ففي أمريكا الشمالية نتنفس الأكسجين الناتج من الغابات الممطرة فى البرازيل، والماء الحمضى من الصناعات الملوثة للبيئة فى وسط غرب الولايات المتحدة يدمر الغابات الكندية، والنشاط الإشعاعى الناجم عن الحادث النووى فى أوكرانيا يعرض اقتصاد وثقافة لابلاند للخطر، وحرق الفحم فى الصين يرفع درجة الحرارة فى الأرجنتين، والكلوروفلوروكاربونات الناتجة عن أجهزة تكييف فى نيوفاوندلاند تساهم فى إحداث إصابات بسرطان الجلد فى نيوزيلاند، والأمراض سريعة الانتشار فى الشرق الأقصى تنطلق فى العالم كله وتتطلب جهداً طبياً عالمياً لاستئصالها. وبالطبع فإن الحرب النووية واصطدام كويكب بالأرض يعرض الجميع للخطر. وأياً كان رأيك، فإننا نحن البشر مرتبطون برفاقنا، وبالنباتات الأخرى والحيوانات فى العالم كله، حياتنا جميعا مجدولة بشكل مشترك.

فإذا لم نتصف بفضيلة معرفة كيفية جعل عالمنا الذى تسوده التقنيات منظومة بيئية آمنة ومتوازنة، علينا أن "نكتشف" كيف نفعل ذلك. نحتاج إلى مزيد من الأبحاث العلمية ومزيد من القيود التقنية، وقد يكون من المبالغ فيه أن نأمل فى نوع من "حامى المنظومة البيئية" القادم من السماء ليصحح مساوئنا البيئية. إن الأمر يعتمد علينا نحن.

ويجب ألا يكون هذا الأمر من الصعوبة بحيث يستحيل تنفيذه. فالطيور - التى نعيب عليها قلة ذكائها - تعرف كيف لا تلوث أعشاشها، والربيان (الجمبرى) التى يصل حجم أمخاخها إلى جسيمات خيطية تعرف هذا الأمر، والطحالب أيضا تعرفه، والكائنات المجهرية ذات الخلية الواحدة تعرفه، وحن الوقت لكى نعرفه نحن أيضا.

الفصل الثامن

أين الحذر فى التعامل مع البيئة ؟

قد يكون هذا العالم الجديد أكثر أمناً، حيث أصبحت
معروفة مخاطر أمراض العالم القديم

جون دون

"تشرىح للعالم - الذكرى السنوية الأولى" (١٦١١)

توجد لحظة محددة فى الشفق، عندها يصبح أثر البخار والجليد فى خلفية
مسار الطائرة قرنفلى اللون. وإذا كانت السماء صافية يكون تباين هذا اللون مع
الأزرق المحيط به فاتناً بشكل غير متوقع، الشمس غابت توا وهناك لون وردى
متوهج عند الأفق، لىذكرنا بمكان اختفاء الشمس التى كانت حمراء تماماً قبل
الغروب بقليل، والماء الخارج من محركى الطائرة يتكثف فوراً، وعند درجات
الحرارة القارسة فى الارتفاعات العالية، يجر كل محرك خلفه سحابة صغيرة تشبه
الخيوط، تضيئها الأشعة الحمراء للشمس الغاربة.

وتكون هناك أحياناً عدة مسارات من بخار الماء المتكثف الناتج عن طائرات
مختلفة، فتتقاطع هذه المسارات، صانعة نوعاً من الكتابة على صفحة السماء. فإذا
كانت الرياح شديدة، ما أسرع ما تنتشر تلك المسارات على جوانب السماء، وبدلاً من
الخط الأنيق الذى يحدد مساراً عبر السماء، تصبح هناك زخرفة طويلة منتشرة غير

منتظمة وغير واضحة تتشتت وأنت تراقبها، فإذا لاحظت ذلك الذيل عند بدء تكوّنه، يمكنك غالباً معرفة هذا الشيء بالغ الصغر الذى صدر عنه، وبالنسبة لكثير من الناس، لا تكون الأجنحة والمحركات مرئية، بل مجرد بقعة متحركة منفصلة إلى حد ما عن مسارات بخار الماء المتكثف، البعيدة نسبياً عن مصدرها.

وعندما يزداد الظلام يمكنك غالباً رؤية هذه البقعة نفسها مضيئة ، حيث يكون هناك ضوء لامع أبيض، ويوجد أحياناً ضوء متقطع أحمر أو أخضر أو كلاهما.

أتخيل نفسى أحياناً صياداً جامعاً – أو حتى أجدادى عندما كانوا أطفالاً – أنظر عالياً إلى السماء وأرى تلك الأعاجيب المستقبلية المحيرة المروعة، خلال كل الأزمنة التى عاشها البشر على الأرض، فإنه لم يحدث إلا فى القرن العشرين أن أصبحنا حاضرين فى السماء. وحيث المرور الجوى فى الجزء الشمالى من نيويورك – حيث أسكن – يكون أكثر كثافة دون شك مقارنة بكل الأماكن فى العالم، يصعب أن تجد مكاناً آخر على كوكب الأرض لا يمكنك فيه – على الأقل أحياناً – النظر إلى أعلى ورؤية محركاتك تكتب رسائلها الغامضة على السماء نفسها التى ظنناها عبر زمن طويل مصدراً وحيداً للآلهة. لقد وصلت تقنياتنا إلى أبعاد مدهشة لسنا جاهزين بشكل ملائم، من صميم قلوبنا، للتعامل معها عقلياً ولا عاطفياً.

بعد قليل من بزوغ النجوم، يمكننى أحياناً أن ألاحظ بينها ضوءاً لامعاً متحركاً، يكون أحياناً شديد اللمعان. قد يكون تألقه مستمراً، أو قد يكون ناظراً إلى خلصة، وغالباً ما يكون هناك ضوءان مترادفان. ولم يعد الأمر خاصاً بما يشبه ذيول المذنبات التى تجرها خلفها. وتوجد لحظات يمكننى خلالها رؤية نحو ١٠ أو ٢٠ فى المائة من "النجوم" بالقرب من الطائرات البشرية، التى يمكن للحظة الخلط بينها وبين الشمس المتوهجة على المسافات الشاسعة. ومن الأكثر ندرة، خاصة بمجرد غروب الشمس – ، أن أرى نقطة مضيئة – التى تكون عادة باهتة – تتحرك برقة وببطء شديد. وعلى أن أتأكد أولاً من أنها عبرت هذا النجم، ثم ذلك النجم الآخر ؛ لأن العين لديها ميل فى اعتبار نقطة الضوء المعزولة المحوطة بالظلام فقط متحركة. تلك ليست طائرات، إنها مركبات فضاء، لقد صنعنا آلات تدور حول

الأرض مرة كل ساعة ونصف. فإذا كانت كبيرة بما يكفي أو عاكسة للضوء، يمكننا رؤيتها بالعين المجردة. إنها عالية جدا فوق الغلاف الجوي، في ظلام الفضاء القريب، وهي على درجة من الارتفاع فوقنا بحيث يمكنها رؤية الشمس حتى عندما يكون الظلام في ذروته تقريبًا هنا في الأسفل. ومثلها مثل القمر والكواكب، تلمع فقط بسبب انعكاس ضوء الشمس عليها.

تبدأ السماء غير بعيدة جدًا فوق رؤوسنا. إنها تشمل الغلاف الجوي الرقيق للأرض وكل اتساع الكون خلفها. ولقد صنعنا آلات تطير في هذه العوالم، وأصبحنا معتادين على هذا الأمر، متأقلمين تمامًا معه، حتى إنه يغيب عنا غالبًا إدراك كم هو أسطوري هذا الإنجاز. وأكثر من أية سمة لحضارتنا التقنية، تعتبر رحلات الطيران تلك التي أصبحت عادية هي رمز القوى التي نملكها الآن.

ولكن مع القوى الضخمة تأتي المسؤوليات الضخمة.

أصبحت تقنياتنا على درجة من القوة حتى إننا - ليس فقط بوعى ولكن أيضا بشكل غير متعمد - نصبح خطرًا على أنفسنا. أنقذ العلم والتقنية حياة البلايين، وحسّنا معيشة عدد أكبر من ذلك، وساهما في ربط كوكب الأرض في وحدة ملتحمة متأنية، وغيرا العالم في نفس الوقت بدرجة كبيرة حتى إن الكثير من الناس لم يعودوا يشعرون بأنهم في عالم يألّفونه. لقد خلقنا سلسلة من الشرور الجديدة يصعب التعرف عليها، يصعب فهمها، ومشاكل ليس لها حل جاهز، وبالتأكيد لا حل لها دون تحدٍ لمن في يدهم السلطة في وقتنا الراهن.

وهنا - كما في كل مكان - يعتبر فهم الجمهور للعلم أمرًا ضروريًا. حيث إن كثيرًا من العلماء يرون وجود مخاطر حقيقية ناجمة عن استمرارنا في إنجاز الأشياء بالطريقة التي اتبعناها حتى الآن، وأن حضارتنا الصناعية مصيدة بلهاء. لكن إذا كان علينا أخذ هذه التحذيرات الرهيبة مأخذًا جادًا، فإن التكلفة ستكون عالية؛ ستفقد الصناعات المتأثرة بالتغيرات المطلوبة أرباحها، وسيزداد قلقنا.

هناك أسباب طبيعية كافية لأن نحاول رفض تلك التحذيرات. ربما يكون العدد الأكبر من العلماء الذين يحذرون من الكوارث الوشيكة متشائمين، ربما يحصلون على متعة شريرة من إخافة الآخرين مثلنا، ربما كانت مجرد طريقة

لانتزاع التمويلات المالية للأبحاث من الحكومة. ومع كل ذلك، يوجد علماء آخرون يقولون إنه لا يوجد ما يستحق القلق، وإن الخلافات لم تحسم، وإن البيئة ستشفى نفسها، ومن الطبيعي أننا تواقون إلى تصديقهم، مَنْ ليس كذلك؟ إذا كانوا صادقين، سوف يزيحون عنا أعباء ضخمة. لذلك دعنا لا نقفز على النتائج، فلنكن حذرين، دعنا نأخذ الأمر بتمهل، ودعنا نتأكد من الأمر بشكل حقيقى.

من ناحية أخرى قد يكون هؤلاء الذين يعيدون الطمأنينة إلينا حول ما يخص البيئة مفرطين فى "التفاؤل"، أو خائفين من تحدى أصحاب السلطة، أو مدعومين بواسطة الذين يجنون الأرباح من نهب البيئة. لذلك يجب أن نتعجل الحل، دعنا نعالج الأمور قبل أن تصبح غير قابلة للعلاج.

كيف نأخذ قراراً ؟

توجد مناظرات ومناظرات مضادة تبعاً للتجريدات، والجوانب الخفية والمفاهيم والمصطلحات غير المألوفة، حتى إنه يحدث أحياناً أن تصبح كلمات مثل "احتياى" أو "خدعة" متداولة حول ما يخص السيناريوهات المنذرة بالكوارث. ما الدور الجيد الذى يلعبه العلم هنا؟ ألا يمكننا التوصل إلى حيادية صريحة ونزيهة ونترك الجماعات المتنافسة تتصارع حولها حتى تنتصر إحداها، أو ننتظر حتى تصبح الأدلة لا التباس فيها ألبتة ؟ ومع كل ذلك، فإن الدعاوى الاستثنائية تتطلب أدلة استثنائية. وباختصار، لماذا يجب على هؤلاء - أمثالى الذين يتبنون الشكوكية والحذر حول "بعض" الدعاوى الاستثنائية - القول إن دعاوى استثنائية أخرى يجب أن تؤخذ بشكل جاد وأن تعتبر ملحة ؟

يظن كل جيل أن مشاكله فريدة من نوعها وقد تكون مهلكة، ومع ذلك ينجو كل جيل حتى مقدم الجيل التالى، وكما يُقال : الذى يقلل من التشاؤم يستمر حياً معافى.

مهما كان ما استحقه هذا الجدل فى وقت ما - ومن المؤكد أنه يتيح موازنة مفيدة للهستيريا - فإن قدرته على الإقناع أقل بكثير فى أيامنا هذه. نسمع أحياناً عن "محيط" الهواء الذى يحيط بالأرض، لكن سمك غالبية الغلاف الجوى - بما فى ذلك كل أجزائه المتعلقة بظاهرة التصوب - لا يتجاوز ٠,١ فى المائة من نصف

قطر الأرض، حتى لو ضممنا إليه طبقة الستراتوسفير العليا، فلن يتجاوز الغلاف الجوى ١ فى المائة من نصف قطر الأرض. و" المحيط" يوحى بالضخامة والهيبة. وبرغم ذلك فإنه - بالمقارنة بحجم الأرض - يقترب سمك الهواء من سمك قشرة الورنيش التى تكسو نماذج الكرة الأرضية الموجودة فى الغرف الدراسية، مقارنة بتلك الكرة نفسها. وإذا تم الهبوط بطبقة الأوزون الحامية من طبقة الستراتوسفير إلى سطح الأرض، فأن سمكها - مقارنة بنصف قطر الكرة الأرضية - سيكون جزءاً من أربعة بلايين. وستكون غير مرئية بالمرة.

أشار كثير من رواد الفضاء إلى أنهم رأوا تلك الهالة الرقيقة الضئيلة الزرقاء على أفق ضوء نهار نصف الكرة الأرضية - الذى يمثل سمك كل الغلاف الجوى - وفوراً وبشكل تلقائى فكروا فى هشاشتها وقابليتها للتلف - وشعروا بالقلق تجاهها. وكان لديهم الحق فى القلق.

ونحن نواجه اليوم ظرفاً جديداً تماماً، لم يسبق له مثيل خلال كل التاريخ البشرى. عندما انطلقنا منذ مئات الآلاف من السنين تقريباً بمتوسط كثافة تعداد سكاني شخص واحد لكل كيلومتر مربع أو أقل من ذلك، وكانت إنجازات تقنياتنا مجرد الفتوس اليدوية والنار، كنا عاجزين عن إحداث تغيرات جوهرية فى البيئة العالمية. لم تكن لتخطر فى البال هذه الفكرة أبداً. كنا بالغى القلة من حيث العدد وكانت مصادر القوة لدينا بالغة الضعف، ولكن مع مرور الزمن ومع تحسن التقنيات، زاد عددها بشكل أسى، وها نحن الآن بمتوسط نحو عشرة أشخاص لكل كيلومتر مربع، ويتركز عددها فى المدن، وفى يدنا ترسانة تقنية رهيبة، وهى قوى لا نفهمها كما يجب ولا نتحكم فيها بشكل كامل.

ولأن حياتنا تعتمد على كميات صغيرة جداً من غازات مثل الأوزون، يمكن أن يحدث دمار بيئى رئيسى - حتى على المستوى الكوكبى - بسبب آلات الصناعة. ووسائل الكبح المفروضة على الاستخدام غير المسئول للتقنية ضعيفة، وتعوزها الحماسة غالباً، وتكون فى أغلبها تقريباً - على النطاق العالمى - خاضعة للمصالح القومية أو المشتركة قصيرة المدى. ونحن الآن قادرون - بشكل متعمد أو غير متعمد - على تغيير البيئة العالمية. وإلى أى مدى نحن بعيدون عن حدوث

الكوارث الكوكبية المتوقعة، فإن هذا أمر ما زال قيد الجدل بين العلماء. ولكن كوننا قادرين على إحداث تلك الكوارث يعتبر الآن أمراً مؤكداً.

قد تكون منتجات العلم ببساطة بالغة القوة وبالغة الخطر علينا. قد نكون لم ننضج بما يكفي لكي نحصل على هذه المنتجات. هل من الحكمة إعطاء مسدس هدية لطفل في المهد؟ وماذا عن طفل تعلم الخطو، أولم يبلغ المراهقة بعد، أو المراهق؟ أوريما - كما قال البعض - لا يجب إتاحة الأسلحة الآلية لأي شخص في الحياة المدنية، لأننا جميعاً مررنا من وقت لآخر بتجارب حول التعامى عن الولع الطفولي. وفقط إذا لم تكن الأسلحة متاحة، ويبدو أنها تكون دائماً في المتناول، لم تكن المأساة لتحدث (بالطبع هناك أسباب يقدمها الناس لتبرير الحصول على المسدسات، وهناك ظروف تكون فيها تلك الأسباب حقيقية. ونفس الشيء بالنسبة للمنتجات العلمية الخطيرة). والآن تعقيد آخر: تخيل أنك عندما تسحب زند المسدس، يحتاج الأمر عقوداً قبل أن يعرف أى من الضحية أو المعتدى أن هناك من أصيب؛ لذلك فإنه لأمر أكثر صعوبة بكثير إدراك مخاطر توافر الأسلحة فيما حولنا والتماثل هنا غير كامل، لكن يمكن تطبيق ما يشبه ذلك على النتائج البيئية الكوكبية للتقنيات الصناعية المعاصرة.

ويبدو لي أن هناك سبباً معقولاً للتساؤل، والجهر بالقول، وابتكار مؤسسات جديدة وطرق جديدة في التفكير. حقاً تعتبر الكياسة فضيلة ويمكنها أن تصل إلى خصم غير راغب في الإصغاء إلى أكثر التوسلات الفلسفية حماساً. صحيح أنه مما ينافي العقل أن نحاول تحويل كل شخص إلى طريقة جديدة في التفكير. وصحيح أننا قد نكون على خطأ ويكون خصمنا على حق (ومن المعروف أن ذلك قد حدث) ومن الصحيح أيضاً أنه من النادر أن يقنع أحد المجادلين غيره في مناظرة. (قال توماس جيفرسون إنه لم يصادف ذلك أبداً، لكن ذلك يبدو بالغ القسوة لأنه يحدث في مجال العلم طوال الوقت). وهذه ليست أسباباً كافية للامتناع عن المناقشة العامة.

خلال تحسين الممارسة الطبية، والمستحضرات الصيدلانية، والزراعة، ومنتجات منع الحمل، والتقدم في النقل والاتصالات، وتدمير أسلحة الحرب الجديدة، وحسن التعامل مع الأضرار الجانبية غير المتعمدة للصناعة، ومعالجة التحديات المزعجة

لوجهات النظر العالمية التى طال عليها الأمد ، غير العلم والتقنية حياتنا بشكل جذرى .

الكثير منا يسخط ويلهث للمحافظة على البقاء، ويكتفى أحيانا بالإدراك المتأنى لمضاعفات التطورات الجديدة. وحسب التقليد البشرى القديم يدرك الشباب التغير بمعدل أسرع من بقيتنا، ليس فقط فيما يخص تشغيل أجهزة الكمبيوتر الشخصية وبرمجة مسجلات شرائط الفيديو، ولكن أيضا فى التلاؤم مع الرؤى الجديدة لعالمنا ولأنفسنا. والسرعة الراهنة للتغير تعتبر أسرع بكثير من عمر الإنسان الفرد، بسرعة كافية لأن تمزق الأجيال إرباً. وهذا الجزء المتوسط من الكتاب يدور حول فهم الاضطرابات البيئية الناجمة عن العلم والتقنية والتأقلم معها، سواء كانت جيدة أو سيئة.

وسوف أركز على تآكل طبقة الأوزون وارتفاع حرارة الغلاف الجوى كمثالين للمآزق التى نواجهها، لكن هناك أيضا العديد من النتائج البيئية المزعجة الناجمة عن التقنيات البشرية وما يرتبط بها: استرجاع العدد الهائل من الأجناس المنقرضة، والحاجة الماسة لعلاجات السرطان وأمراض القلب والأمراض القاتلة الأخرى التى أتت من الأجناس النادرة أو المهددة بالمخاطر، والأمطار الحمضية، والأسلحة النووية والبيولوجية والكيميائية، والكيماويات السامة (والسموم الإشعاعية) التى توجد غالبا بالقرب من مناطق معيشة من هم أكثر فقرا وضعفا بيننا. وهناك نتيجة جديدة غير متوقعة يضعها علماء آخرون موضع نقاش، تدور حول انخفاض شديد رامن فى أمريكا وأوروبا الغربية وبلدان أخرى، فى عدد الحيوانات المنوية لدى الرجال، وقد يكون ذلك ناتجا عن الكيماويات والمواد البلاستيكية التى تشبه الهرمونات الجنسية الأنثوية . (ويقول البعض إن الانخفاض على درجة من الشدة حتى إنه لو استمر هكذا ستكون النتيجة أن يصاب الرجال فى الغرب بالعقم مع منتصف القرن الحادى والعشرين) .

كوكب الأرض خروج عن المألوف، ففى كل المنظومة الشمسية تعتبر الأرض - على قدر معرفتنا - الكوكب الوحيد المسكون. ونحن البشر جنس واحد من بين ملايين الأجناس المستقلة التى تعيش فى عالم مزدهر يعج بالحياة، ومع ذلك فإن أغلب الأجناس التى كانت هنا لم تعد موجودة. ويعد ازدهار استمر عبر ١٨٠

مليون عام اندثرت الديناصورات. كل ما تبقى منها اندثر ولم يبق أى منها. ليس لأى جنس ضمان ملكية على هذا الكوكب، ونحن هنا منذ نحو مليون سنة فقط، ونحن أول جنس ابتكر وسائل لتدمير نفسه، ونحن نادرين وأغزاء لأننا أحياء، لأنه يمكننا التفكير بشكل جيد بقدر ما فى استطاعتنا. لدينا امتياز التأثير على مستقبلنا وربما السيطرة عليه، وأعتقد أننا مضطرون للدفاع عن الحياة على الأرض، ليس فقط الدفاع عن أنفسنا، ولكن أيضا عن كل هؤلاء البشر الآخرين، الذى أتوا قبلنا والذين ندين بالفضل لهم، ولكل هؤلاء الذين سيأتون بعدنا، إذا توافر لدينا ما يكفى من الحكمة. ولا يوجد واجب أكثر إلحاحا ولا تفان أكثر ملاءمة من حماية مستقبل جنسنا. وكل مشاكلنا تقريبا ناتجة عن البشر ويمكن أن يحلها البشر. وليس هناك ميثاق اجتماعى ولا نظام سياسى ولا افتراضات اقتصادية، ولا عقيدة دينية أهم من ذلك.

لدى كل شخص خبرة - على الأقل على مستوى خلفيات غير واضحة - بأنواع متعددة من القلق، ولا يتم الشفاء منها تماما فى أغلب الأحوال، ويعود أغلبها بالطبع إلى أحوال حياتنا اليومية، ويكتسب طنين مصادر التذكر الهامسة قيمة تتيح له البقاء. كذلك الذكريات التى تسبب الإجفال حول الزلات الاجتماعية الماضية، والاختبارات العقلية لردود الفعل المحتملة تجاه المشكلات الوشيكة. وبالنسبة للغالبية العظمى منا يدور القلق حول أن نجد لأطفالنا ما يكفيهم من الطعام. ويعتبر القلق أحد تلك التسويات التطورية التى يتم تحسينها إلى أقصى درجة حتى تتيح للجيل التالى أن يوجد، لكنها تكون تسوية مؤلمة لهذا الجيل.

وتتمثل الخدعة - إذا استطعت اكتشافها - فى اختيار أنواع القلق المناسبة، حيث هناك بين البله المبهج والتشاؤم العصبى حالة للعقل يجب علينا أن نتقبلها. وباستثناء المؤمنين بالألفية من الطوائف ذوى المعتقدات المتنوعة، وباستثناء الصحف الشعبية ذات القطع النصفى، فإن الجماعة التى يبدو أنها قلقة عادة حول ادعاءات النكبات - الكوارث التى لم يكْمَح إليها فى كل التاريخ المسجل لجنسنا - هم العلماء، حيث يمكنهم معرفة حالة العالم، ويظهر أمامهم أن هذا العالم يمكن أن يصبح مختلفا تماما، فدفعة صغيرة هنا، أو شدة قوية هناك، كفيلة بإحداث تغيرات ضخمة. ولأننا نحن البشر متآلفون تماما بشكل عام مع ظروفنا -

التي تتراوح بين الطقس العالمي إلى الطقس السياسى - يمكن لأى تغير أن يكون سبباً للقلق والألم وتكون تكلفته مرتفعة؛ لذلك فمن الطبيعى أن نميل إلى مطالبة العلماء بأن يكونوا متأكدين إلى حد ما مما يقولونه لنا قبل أن نهول لنحمى أنفسنا من خطر متوهم. بعض المخاطر المزعومة تبدو على درجة من الجدية، لذلك فإن الفكر يصل تلقائياً إلى أنه قد يكون من الحكمة النظر بجدية حتى إلى الاحتمال الضئيل لحدوث خطر مهلك جداً.

تعمل أنواع القلق فى الحياة اليومية بطريقة مماثلة. نشترى التأمين ونحذر الأطفال من التحدث مع الغرباء، وبالنسبة لكل أنواع القلق نغفل أحياناً المخاطر كلها : " كل ما أخشاه لا يحدث أبداً. كل الأشياء السيئة أتت من الأماكن البعيدة" هكذا قال أحد المعارف لزوجتى آن ولى.

كلما كانت الكارثة أسوأ كان من الأصعب المحافظة على توازننا ويكون اختيارنا على درجة من سوء، فإما أن نتجاهلها تماماً أو نكرس كل مواردنا لتطويقها. من الصعب أن نتعامل مع الأمر باتزان للتفكير ملياً فى ظروفنا وأن ندع القلق المصاحب للحدث جانباً للحظة، ويبدو أن الغالبية العظمى تكون فى حالة مخاطرة. فى الصفحات التالية أحاول وصف بعض الأنشطة الراهنة لجنسنا التي تبدو مثيرة للقلق ، حول مدى رعايتنا لكوكب الأرض، وكيفية تنظيم سياساتنا. أحاول توضيح كلا الجانبين، لكننى - وأعترف تلقائياً - أتبنى وجهة نظر مستمدة من تقييمى لقيمة الدليل. حيثما يصنع البشر مشاكل، يمكن للبشر التوصل إلى حلول، وحاولت الإشارة إلى كيفية حل بعض مشاكلنا. يمكنك التفكير فى مجموعة أخرى من المشاكل التي لها أولوية أكبر، أو فى وجود مجموعة حلول مختلفة عن تلك التي أقدمها. لكننى أتمنى أنك عندما تقرأ هذا الجزء من الكتاب ستجد أنك مدفوع إلى مزيد من تأمل المستقبل. لا أريد أن أضيف بلا ضرورة أعباء أخرى إلى أنواع القلق الواقعة علينا ولدى الغالبية منا ما يكفيه منها لكن هناك بعض المشاكل التي - كما يبدو لى - لا تلقى لدى عدد كاف منا اهتماماً فكرياً. وهذا النوع من التفكير فى النتائج المستقبلية لأنشطتنا الراهنة له ذرية تدعو إلى الفخر بيننا نحن المنتمين للرئيسيات، وهو أحد الأسرار التي مازالت تمثل - إجمالاً - قصة النجاح المذهل للبشر على الأرض.

الفصل التاسع

كريسوس و كاساندر

الشعور بالخوف يتطلب شجاعة.

مؤقتاً

"مقالات، الجزء الثالث ، ٦" (١٥٨٨)

كان أبولو (الأولمبي) إلهاً للشمس. كان مسئولاً أيضاً عن شئون أخرى، إحداها النبوءة التي كانت إحدى اختصاصاته. والآن يمكن لآلهة الأولمب جميعاً استشراف قليل من المستقبل، لكن أبولو كان الوحيد الذي أعطى هذه الهبة للبشر بطريقة منظمة. أسس هياكل الوحي oracles ، وكان أكثرها شهرة في دلفي، حيث كان يطهر الكاهنات. وكان يُطلق على الكاهنة بيثيا Pythia ، تبعا للأصله python التي كانت أحد تجسّداتها. كان الملوك والأرستقراطيون - وأحياناً الناس العاديون - يأتون إلى دلفي ويتضرعون لمعرفة ما سوف يحدث. وكان كريسوس (ملك ليديا) من بين المتضرعين. ونتذكره بالجملة التي تقول "غنى مثل كريسوس"، التي مازالت متداولة إلى حد ما. ربما أصبح هذا التعبير مرادفاً للثروة لأنه حدث خلال عهده ومملكته ابتكار العملات المعدنية التي تم سكها بواسطة كريسوس في القرن السابع قبل الميلاد (كانت ليديا في الأناضول، تركيا المعاصرة). وكان النقد الطيني ابتكاراً أكثر قدماً يعود إلى السومريين. ولم يكن

من الممكن أن يظل طموح كريسوس محصورًا داخل حدود بلده الصغير، ولهذا السبب - تبعًا لـ "تاريخ" هيرودوتس - رسخ في عقله أنها ستكون فكرة جيدة أن يغزو ويخضع فارس، التي كانت حينئذ القوى العظمى في غرب آسيا. وكان قورش قد وحد الفرس والميديين وكون إمبراطورية فارسية ضخمة.

من أجل الحكم على حكمة الغزو بعث كريسوس رسلاً إلى راهبة دلفي، يمكنك أن تتخيلهم وهم يحملون الهدايا الكثيرة الثمينة التي تصادف أن كانت لاتزال معروضة في دلفي في القرن اللاحق، في زمن هيرودوتس. كان السؤال الذي ألقاه الرسل حسب طلب كريسوس هو "ماذا سيحدث إذا شن كريسوس حرباً على فارس؟".

وبدون تردد، أجابت الكاهنة "سيدمر إمبراطورية ضخمة".

"الآلهة معنا" هكذا فكر كريسوس، أو كلمات بهذا المعنى "حان وقت الغزو!".

وبعد أن غمره سرور التوقع وعدّ الولايات الفارسية التي ستصبح له، جمع جيوشه من المرتزقة. وغزا كريسوس فارس وهزم بشكل مخزٍ. لم تتحطم قوة ليديا فقط، لكنه أصبح هو نفسه، فيما تبقى من عمره، موظفاً مثيراً للشفقة في البلاط الفارسي، حيث يقدم نصائح ضئيلة لموظفين مختلفين غالباً، ملك سابق صار عالمة على غيره. ويشبه الأمر بعض الشيء حال الإمبراطور هيروهييتو الذي يقضى أيامه مستشاراً في بلتواي في واشنطن العاصمة.

حسنًا، لقد وقع عليه ظلم حقيقي، فرغم كل شيء لقد أدى دوره تبعاً للقواعد السائدة، فقد طلب النصيحة من الكاهنة، ودفع بسخاء، وهي التي أساءت إليه. لذلك فقد أرسل رسولا آخر إلى هيكل الوحي (مع مزيد من الهدايا المتواضعة هذه المرة، نظراً لأوضاعه المالية المتردية) وسأل "كيف أمكنك أن تفعل بي ما فعلت؟" وما هي الإجابة، تبعاً لـ "تاريخ" هيرودوتس:

قضت النبوءة التي أعطاها أبولو بأنه إذا شن كريسوس حرباً على فارس، فإنه سيدمر إمبراطورية ضخمة. والآن رغم ذلك، حيث إنه قد حصل على نصيحة صحيحة، كان عليه أن يرسل ويسأل من جديد، ما إذا كانت إمبراطوريته هي التي جرى ذكرها أو إمبراطورية قورش. لكن كريسوس لم يفهم ما قيل، ولم يسأل من جديد. لذلك فليس عليه أن يلوم أحداً سوى نفسه.

لو كان هيكل الوحي الدلفي مجرد احتيال لسلب أموال الملوك السذج، كان الأمر سيحتاج بالطبع إلى تقديم أعذار لتفسير الأخطاء المحتمومة. كان الالتباس الخادع بضاعته الرائجة. ورغم ذلك، يعتبر درس الكاهنة وثيق الصلة بالموضوع: حتى بالنسبة لهياكل الوحي يجب علينا أن نلقى أسئلة، أسئلة ذكية، حتى عندما يبدو الأمر أنها ترد علينا بما نرغب في سماعه بالضبط. يجب على صانعي السياسة أن لا يقبلوا على نحو أعمى، يجب أن يفهموا. ويجب أن لا يسمحوا لمطامحهم الخاصة أن تقف عثرة أمام الفهم. يجب أن تتم عملية الاهتمام بالنبوءة في مجال السياسة بعناية.

هذه النصيحة يمكن تطبيقها بالكامل على هياكل الوحي الحديثة: العلماء وهيئات الخبرة الاستشارية والجامعات، والمعاهد الممولة عن طريق الصناعة، واللجان الاستشارية للأكاديمية القومية للعلوم. ويطلب صانعو السياسة، عن كره أحياناً، إجابات عن أسئلتهم من الكاهنة، ويتلقون إجابات. ويعطى الكهان في وقتنا هذا - متطوعين في أغلب الأحوال - تنبؤاتهم حتى لو لم يطلبها أحد. وينطقون بأقوال تكون أكثر تفصيلاً بكثير مقارنة بالأسئلة التي تتضمن بروميد الميثيل - مثلاً - أو الدوامات حول قطبي الأرض، أو الهيدرو كلوروفلورو كاربونات أو الغطاء الثلجي غرب أنتاركتيكا.

ويتم صياغة الاستنتاجات أحياناً بمصطلحات الاحتمالات الرقمية. ويبدو غالباً أنه من المستحيل بالنسبة للسياسي الأمين أن يستنبط ببساطة قراراً بنعم أو لا. ويجب على صانعي السياسة اتخاذ قرار، إذا كان ذلك ممكناً، بما عليهم أن

(*) قارة غير مأهولة حول القطب الجنوبي (المترجم).

يفعلوه فى مواجهة هذا الأمر. وأول ما يجب عمله هو الفهم. وبسبب طبيعة الكهان المعاصرين وتنبؤاتهم، يحتاج صانعو السياسة - أكثر مما كان الوضع فى أى وقت مضى - إلى فهم العلم والتقنية. (واستجابة لهذه الحاجة، ألغى الكونجرس الجمهورى بحماسة مكتبة الخاص بالتقييم التقنى، ولا يكون هناك فى أغلب الأحوال علماء أعضاء فى الكونجرس الأمريكى، وهو غالباً نفس الوضع فى البلدان الأخرى).

لكن توجد قصة أخرى عن أبولو والكاهنات، على الأقل مساوية للقصة السابقة فى الشهرة، أو على الأقل تساويها من حيث اتصالها بالموضوع، وهى قصة كاساندرا أميرة طروادة (وتبدأ القصة قبل غزو المسينيين^(*) لطرودة بقليل عندما بدءوا الحرب الطروادية). كانت أذكى وأجمل بنات الملك بريام^(**). وقع أبولو - الباحث دائماً عن فرائس من بين البشر ذوى الجاذبية (كما كان الحال فعليا لدى كل الآلهة والإلهات الإغريقية) - فى غرام كاساندرا.

ومن الغريب - وهذا لم يحدث فى الغالب فى الأساطير اليونانية - أنها رفضت عروضه. عندئذ حاول أن يرشوها. ولكن ماذا يمكنه أن يعطيها؟ لقد كانت حينئذ أميرة، كانت غنية وجميلة، كانت سعيدة. مازال لدى أبولو شئ أو اثنان يمكنه عرضهما. وعدها بهبة النبوءة، كان العرض مما يصعب مقاومته، وافقت كتعويض. وفعل أبولو كل ما يمكن للآلهة فعله لخلق العرافات والكاهنات والمتنبئين بعيداً عن الأخلاقيات المجردة. لكن حدث عندئذ - بشكل مخزٍ - أن نكثت كاساندرا بوعداها، رفضت عروض إله.

ثار سخط أبولو. لكن لم يكن فى استطاعته استرجاع هبة النبوءة، لأنه - فى نهاية الأمر - كان إلهاً. (ومهما كان رأيك حول الآلهة، فإنهم يوفون بوعودهم). وبدلاً من ذلك قضى عليها بمصير قاس ويرى: لن يصدق نبوءاتها أحد. (ما أستعيره هنا هو فى أغلبه من مسرحية إيسخيلوس "أجاممنون"). تنبأت كاساندا لشعبها بسقوط طروادة. لم يهتم بذلك أحد. تنبأت بموت القائد اليونانى الغازى أجاممنون، لم يلتفت أحد لما تقول. حتى إنها توقعت موتها المبكر، وظل الأمر على

(*) نسبة إلى مدينة مسينى فى جنوب اليونان (المترجم).

(**) آخر ملوك طروادة فى الميثولوجيا اليونانية (المترجم).

ما هو عليه، ولم يصدقها أحد، لم تكن لديهم رغبة فى سماعها، كانوا يسخرون منها، أطلقوا عليها - سواء كانوا يونانيين أو طرواديين - "سيدة البلايا الكثيرة"، ولو كانت فى أيامنا هذا ربما انفضوا من حولها لأنها "متنبئة الشؤم والكآبة".

كانت تمر بها لحظات صعبة تعجز خلالها عن فهم كيف أن تلك التنبؤات بكارثة وشيكة - التى يمكن منع بعضها، إذا تم تصديق النبوءات - تواجه بتجاهل. وقالت لليونانيين "كيف لا تفهموننى؟ قد لا أكون على دراية بلهجتكم بشكل محكم". لكن المشكلة لم تكن طريققتها فى التلطف باليونانية. كانت الإجابة (كما أعيد صياغتها) "كما ترين، الأمر قد يكون كما يلى .. حتى كاهنة دلفى تخطئ أحيانا. وقد تكون تنبؤاتها ملتبسة فى أحيان أخرى، لا يمكننا التأكد. فإذا لم يكن فى استطاعتنا الثقة فى دلفى فمن المؤكد أنه لا يمكننا أن نثق فىك" قد يكون هذا أقرب إلى ما تلقته دائماً من استجابة.

وكانت القصة هى نفسها مع الطرواديين، حيث تقول "إننى أتنبأ لأهل بلدى حول كل الكوارث التى تهددهم". لكنهم تجاهلوا استبصاراتها ولحقهم الدمار، وعاجلاً أصابها نفس المصير.

تلك المقاومة للنبوءة المنذرة بالكوارث التى واجهتها كاساندر، يمكن التعرف عليها فى عصرنا، إذا واجهتنا نبوءة مشئومة تتضمن قوى ضخمة قد لا يمكن التصدى لها بالسرعة الواجبة، يكون لدينا ميل طبيعى لرفض أو تجاهل تلك النبوءة. يحتاج الإقلال من الخطر أو تطويقه وقتاً وجهداً ومالاً وشجاعة. وقد يحتاج منا إلى تغيير أولويات حياتنا. ولا تتحقق كل نبوءة بكارثة، حتى لو كانت ضمن تلك التى يقدمها العلماء: حيث لا تموت أغلب الحيوانات التى تعيش فى المحيط بسبب المبيدات الحشرية، وعلى الرغم مما يحدث فى إثيوبيا والساحل، لم تصبح المجاعة العالمية سمة مميزة للثمانينيات، ولم يتأثر إنتاج الغذاء فى جنوب آسيا بشدة بسبب اشتعال حرائق آبار النفط فى الكويت ١٩٩١، ولا تهدد رحلات الطيران الأسرع من الصوت طبقة الأوزون - رغم كل تلك النبوءات التى قدمها علماء جادون؛ لذلك فإنه عندما تواجهنا نبوءة جديدة وغير سارة، قد يغرينا ذلك بأن نقول: "هذا بعيد الاحتمال" "تشاؤم واكتئاب" "محاولة لبث الخوف فى قلوب الجميع" "هذا سيئ بالنسبة للحالة المعنوية للجمهور".

ويضاف إلى ذلك، إذا كانت العوامل التى تعجل بالكارثة المتوقعة ستدوم وقتاً طويلاً، فإن النبوءة نفسها تصبح نوعاً من التوبيخ المباشر أو المستتر. لماذا نسمح نحن المواطنين العاديين لهذا الخطر أن يداهمنا؟ ألم يكن من الواجب أن نطلع بأنفسنا على هذا الأمر مبكراً؟ ألسنا مشتركين نحن أيضاً فى الجريمة، حيث لم نتخذ خطوات للتأكد من أن قادة الحكومة قد أزالوا ما يهددنا؟ ولأن التفكير فى كل هذه الأمور غير سار - حول أن إهمالنا وتراخيها قد يتسببان فى وضعنا ومن نحب فى خطر - يوجد ميل طبيعى، إن لم يكن سوء تكيف لتجنب الموضوع برمته. سيحتاج الأمر إلى مزيد من الأدلة الأفضل، هكذا نفكر، قبل أن نحتاج إلى أخذه مأخذاً جاداً. وهناك إغراء للإقلال من الخطر ونبذه ونسيانه. ويدرك علماء النفس تماماً هذا الإغراء. يطلقون عليه "الإنكار". وكما تقول كلمات أغنية روك قديمة "الإنكار Dnial ليس مجرد نهر فى مصر^(*)".

تمثل قصتنا كروسيك وكاساندرا طرفى النقيض لرد الفعل السياسى تجاه نبوءات الخطر القاتل حيث يمثل كريسوس نفسه قطب سرعة التصديق والقبول دون انتقاد (ويكون ذلك عادة مع التأكيد على أن كل شىء على ما يرام) مدفوعاً بالطمع أو العيوب الأخرى فى الشخصية، ويمثل رد الفعل اليونانى والطروادى تجاه كاساندرا قطب تبلد الحس والرفض الثابت لاحتمال وقوع الخطر. وعلى صانع السياسة أن يتخذ سبيلاً حكيماً بين كلا الطرفين المحجوبين.

افترض أن مجموعة علماء قالوا إن كارثة بيئية ضخمة تلوح فى الأفق. وافترض أيضاً أن المطلوب لمنع الكارثة أو التقليل من آثارها مرتفع التكلفة، مرتفع التكلفة من جهة الموارد المالية أو الفكرية، وأيضاً من جهة التحديات لطريقتنا فى التفكير، أى مرتفع التكلفة سياسياً. إلى أى حد يجب على متخذى القرار السياسى أخذ نبوءات العلماء بشكل جاد؟ هناك طرق لتقييم مصداقية النبوءات المعاصرة؛ لأنه تبعاً للطرق العلمية، توجد عملية لتصحيح الخطأ، وهى مجموعة قواعد تكرر اختبار صحة عملها، يطلق عليها أحياناً المنهج العلمى. هناك

(*) تستخدم الجملة التشابه فى النطق بين كلمتى Dnial والنيل the Nile (الترجم).

عدد من المعتقدات (أشرت إلى بعضها فى كتابى " عالم تحكمه العفاريات ") :
حجج السلطة قليلة القيمة ("لأننى أقول ذلك" ليس قولاً جيداً بما يكفى)، والتنبؤ
الكمى طريقة بالغة الجودة لتمحيص الأفكار المفيدة وتلك التى لا قيمة لها،
ويجب أن تعطى طرق التحليل نتائج أخرى تتسق تماماً مع النتائج التى نعرفها
عن الكون، والجدل القوى علامة صحية، ونفس النتائج يجب الحصول عليها بشكل
مستقل عن طريق جماعات علمية كفاء مختصة حتى يتم أخذ أية فكرة مأخذاً جاداً،
وهكذا. وهناك طرق يمكن لصانعى السياسات الاستعانة بها لاتخاذ قرار،
وللتوصل إلى مسار وسطى بين الفعل العاجل وعدم الفعل. ومع ذلك يحتاج الأمر
إلى قليل من الانضباط العاطفى، وأهم شىء إلى مواطنين واعين ومثقفين علمياً -
يكونون قادرين على الحكم بأنفسهم على مدى احتمال أن تؤدى المخاطر
إلى كوارث.

الفصل العاشر

ثقب فى السماء

هذا الهيكل الضخم، الأرض، يبدو لى نقوءًا مجديًا،
هذه السماء بالغه الروعة، والهواء، انظروا، هذه القبة
الزرقاء الرائعة المتوعدة، هذا السقف الملكى المزين
بالنار الذهبية، لماذا لا يبدو لى سوى تجمع ويائى خطير
للأبخرة؟

وليم شكسبير

هاملت ، الفصل الثانى ، الجزء الثانى، ٣٠٨ (١٦٠٠ - ١٦٠١).

رغبت دائما فى الحصول على قطار كهربائى، لكن ذلك لم يحدث حتى
بلغ عمري عشر سنوات عندما أصبح فى قدرة والدى شراءه لى. لم يكن القطار
الذى أحضراه لى - وكان مستعملا لكن حالته جيدة - من تلك الطرازات الحديثة
ذات الأوزان الخفيفة، والطويلة النحيلة بالتفاصيل المصغرة، لكنه كان آلة
قديمة حقًا. لا بد أن القاطرة وحدها كانت تزن خمسة أرتال. كان له أيضا مقطورة فحم
ومقطورة ركاب وحافلة شحن فى نهايته. وكانت المسارات المعدنية المتشابكة ثلاثة
أنواع: مستقيمة ومنحنية وإحداها تحويل متقاطع جميل سمح بتركيب للقضبان
الحديدية على شكل ثمانية 8. وادخرت حينئذ لشراء نفق أخضر من البلاستيك،

حتى يمكننى رؤية المحرك ومصباحه الأمامى يبدد الظلام، متحركًا بصوته الاحتفالى خلال النفق.

كانت تشوب ذكرياتى عن تلك الأوقات السعيدة رائحة ليست سيئة، لطيفة إلى حد ما، تخرج دائمًا من المحوّل، وهو عبارة عن صندوق معدنى كبير ذى رافعة حمراء منزقة تتحكم فى سرعة القطار. لو طلب منى وقتها وصف وظيفته ، لعلنى كنت أجيب بأنه يحوّل نوع الكهرباء الموجودة فى حائط شقتنا إلى نوع من الكهرباء يحتاجها المحرك . ولم أعرف إلا فى وقت لاحق بعد مدة طويلة أن الرائحة ناتجة عن مادة كيميائية خاصة - تحدث نتيجة مرور الكهرباء خلال الهواء - وأن لهذه المادة اسمًا هو الأوزون.

الهواء المحيط بنا من كل جانب ، وما نتنفسه ، يحتوى على نحو ٢٠ فى المائة أكسجين - ليس الذرة التى يرمز لها بالحرف O ، ولكن الجزيء الذى يشار إليه بالرمز O_2 ، أى ذرتين أكسجين ملتحمتان كيميائيًا معًا . وهذا الأكسجين الجزيئى هو ما يجعلنا نعيش. نستنشقه حيث يتحد مع الطعام فى أجسامنا ويستخلص الطاقة. والأوزون شكل أكثر ندرة لالتحام ذرات الأكسجين، يحمل الرمز O_3 أى ثلاث ذرات أكسجين ملتحمة كيميائيًا معًا.

كان لمحولى عيب، كانت شرارة كهربائية بالغة الصغر تفرقع خارجة منه، محطة روابط جزيئات الأكسجين عند حدوثها تبعًا لما يلى:



(السهم يعنى أن الطرف الأيمن أنتج الطرف الأيسر) ، لكن ذرات الأكسجين المفردة O غير مستقرة، نشطة كيميائيًا، وشغوفة بالالتحام بالجزيئات المجاورة - وهذا ما تفعله:

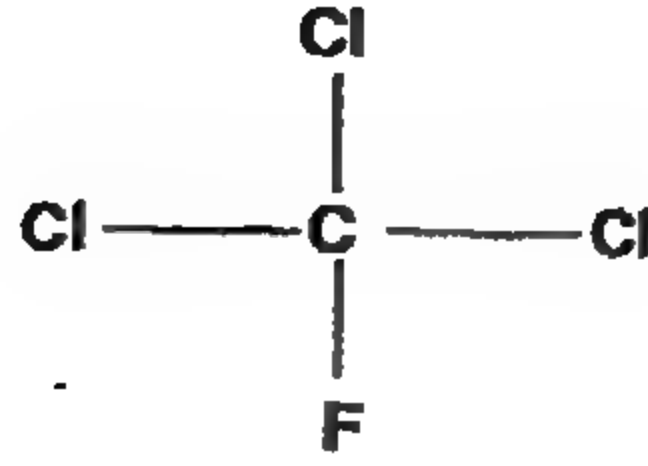


حيث ج هي أى جزيء ثالث، لا يدخل فى التفاعل لكنه مطلوب لإجرائه.
ج عبارة عن مادة حفازة، ويوجد الكثير من هذه المواد الحفازة حولنا، خاصة
النتروجين الجزيئى.

هذا ما كان يحدث فى محوّلَى لإنتاج الأوزون، وهو ما يحدث أيضا فى
محركات السيارات وفى حرائق الصناعات، فينتج أوزون نشط بالقرب من سطح
الأرض، يساهم فى الضباب الدخاني والتلوث الصناعى. لم تعد رائحته سارة
بالنسبة لى، ولا يتمثل الخطر الأكبر للأوزون فى كثرة وجوده هنا بالقرب من
سطح الأرض، ولكن فى قلة وجوده تماما فى السماء.

فيما يتعلق بالبيئة بدأ العمل بعناية وبما يكفل تحمل المسؤولية. استقبل
الناس فى العشرينيات الثلاثات الكهربائية بترحاب. وبحثا عن الراحة، والصحة
العامة، واتساقا مع قدرة منتجى الفواكه والخضراوات ومنتجات الألبان على
الوصول إلى أسواق على مسافات بعيدة جدا، وتجمعات الوجبات الشهيّة، أصبح
الجميع راغبين فى الحصول على تلك الثلاثات. (لم تعد هناك حاجة لبذل الجهد
فى حمل قوالب الثلج، فما هو السىء فى ذلك؟). لكن السائل المستخدم، الذى يتيح
تسخينه وتبريده تشغيل الثلاثة، كان إما النشادر أو ثانى أكسيد الكبريت، وهما
غازان سامان لهما رائحة كريهة. وكان التسرب شيئا مزعجا جدا، وكانت الحاجة
ماسة إلى مادة أخرى، مادة تكون سائلة فى الحالات المطلوبة، وتدور داخل
الثلاثة ولا ضرر لها إذا حدث تسرب من الثلاثة أو تم التخلص منها كخردة
معدنية، ولهذا الغرض أصبح من المناسب التوصل إلى مادة تكون أيضا غير سامة
وغير قابلة للاشتعال، ولا تتسبب فى الصدأ، ولا تكوى العيون، ولا تجذب الحشرات،
ولا حتى تزعج القطط. لكن بالنسبة لكل ما تحتوى عليه الطبيعة، يبدو أن تلك
المادة لم تكن موجودة.

عندئذ ابتكر الكيميائيون فى الولايات المتحدة وفيما ر وألمانيا النازية نوعا
من الجزيئات لم يكن موجودا أبدا على الأرض قبل ذلك. وأطلقوا على تلك الجزيئات
كلوروفلوروكاربون CFCs وهى مصنوعة من ذرة كربون أو أكثر يتحد بها بعض
ذرات الكلور والفلورين أو أى منهما. وهما هو واحد منها:



(حيث C الكربون، Cl للكلور، و F للفلورين). وكانت ناجحة تماماً، بما يتخطى كل توقعات من ابتكروها. ولم تصبح فقط السائل المستخدم الرئيسى فى الثلاجات الكهربائية، لكن أيضاً فى أجهزة التكييف. ووجدت تطبيقات واسعة فى الإيروسولات(*) وورغاوى العزل، والمذيبات الصناعية والمنظفات (خاصة فى صناعة الإلكترونيات الدقيقة). وأكثر الأسماء التجارية شهرة هو الفريون، (وهو علامة تجارية لشركة ديبون) وتم استخدامه عدة عقود ولم يبدُ أن هناك أى ضرر ناتج عنه، واعتبره الجميع بالغ الأمان، وكان ذلك وراء ما حدث بعد فترة قصيرة حيث اتضح أن كمية كبيرة من الصناعة الكيماوية التى تحوز قبولاً معتمدة على الكلوروفلوروكاربون.

ومع بداية السبعينيات كان يتم صناعة مليون طن من هذه المادة سنوياً. هكذا كان الأمر فى بداية السبعينيات، دعنا نقول إنك كنت واقفاً فى حمامك ترش عطرًا تحت إبطيك، وينتشر إيروسول الكلوروفلوروكاربون حاملاً ضباباً رقيقاً يزيل الروائح الكريهة، ولا تلتصق جزيئات الكلوروفلوروكاربون المندفعة بجسمك، وتنطلق إلى الهواء مثل الدوامة بالقرب من المرأة، وتميل إلى الحوائط، وفى آخر الأمر يتسلل بعضها خارج النافذة أو من أسفل الباب، ويمرور الزمن - وقد يستغرق ذلك أياماً أو أسابيع - تكون قد وصلت إلى الهواء الطلق. وتصطدم تلك الجزيئات بالجزيئات الأخرى فى الهواء، جزيئات المباني وأعمدة التليفونات، ثم تحملها تيارات انتقال الهواء الساخن أو دورة الغلاف الجوى الكوكبى، لتنجرف حول الكوكب. وباستثناءات قليلة، فإنها لا تتفكك ولا تتحد كيميائياً بأية جزيئات أخرى قد تلتقى بها؛ فهى خاملة عملياً. وبعد سنوات قليلة تجد نفسها فى الغلاف الجوى العلوى، وهناك يتكوّن الأوزون بشكل طبيعى عند ارتفاع يصل إلى ٢٥ كيلو مترا (١٥ ميلاً) تقريباً. وتحطم الأشعة فوق البنفسجية UV الآتية من الشمس - وهى

(*) مثل المبيدات الحشرية والعطور (المترجم).

تناظر الشرارة في محول غير المعزول كهربائياً بشكل جيد - جزيئات O_2 إلى ذرات O ، التي تتحد من جديد لتكوين الأوزون، تماماً كما حدث في محول.

يظل جزيء الكلوروفلوروكاربون على هذه الارتفاعات زمناً يصل في المتوسط إلى قرن قبل أن تجعله الأشعة فوق البنفسجية يطلق الكلور، والكلور مادة محفزة تدمر جزيئات الأوزون لكنها ليست مادة مدمرة في حد ذاتها. ويستغرق الأمر نحو عامين قبل أن يعود الكلور إلى طبقات الجو السفلية وتحمله مياه الأمطار. وخلال هذا الوقت تؤدي ذرة الكلور إلى تدمير ١٠٠٠٠٠ جزيء أوزون.

ويتم التفاعل كما يلي:



فتكون النتيجة النهائية:



تم تدمير جزيء أوزون، تكونت ثلاثة جزيئات أكسجين، وتظل ذرات الكلور موجودة للقيام بمزيد من عملها الشرير.

ولكن لماذا الانزعاج؟ بعض الجزيئات غير المرئية هناك في مكان ما في أعالي السماء تم تدميرها بواسطة بعض الجزيئات الأخرى غير المرئية التي صُنعت هنا على الأرض. لماذا يجب علينا أن نزعج؟

لأن الأوزون هو درعنا الواقى من الأشعة فوق البنفسجية الصادرة عن الشمس، وإذا تم الهبوط بكل طبقة الأوزون الموجودة في طبقات الهواء العليا إلى أسفل في درجة الحرارة والضغط الموجودين حولنا الآن، فإن تلك الطبقة قد لا تتجاوز في سمكها ثلاثة ملليمترات فقط، ويصل ارتفاعها إلى ارتفاع ظفر أصبعك الخنصر إذا لم تكن تداوم على تسوية ظفرك بإفراط. لذلك فلا تمثل تلك

الطبقة كمية كبيرة من الأوزون، لكن هذا الأوزون هو الذى يقف عازلاً بيننا وبين تلك الأشعة للموجات فوق البنفسجية الطويلة الضارة اللافحة الآتية من الشمس.

وخطر الأشعة فوق البنفسجية الذى نسمع عنه كثيراً هو سرطان الجلد. ويتعرض له بشكل خاص الأشخاص البيض، ويتمتع السود بتوافر مادة الميلانين التى تحميهم (واسمرار البشرة عند التعرض لأشعة الشمس يعتبر تكيفاً يكتسب خلاله البيض مادة الميلانين الحامية عند تعرضهم للأشعة فوق البنفسجية). ويبدو ذلك نوعاً من العدالة الكونية النائية تجاه البيض الذين ابتكروا الكلوروفلوروكاربون، الذى يسبب الإصابة بسرطان الجلد بشكل تمييزي للبيض، بينما السود عاجزون عن فعل أى شيء تجاه هذه المادة العجيبة المبتكرة، يتمتعون بحماية طبيعية. ويشهد العالم حالياً ارتفاعاً فى عدد حالات الإصابة بسرطانات الجلد الخبيثة المسجلة بأكثر من عشرة أضعاف مقارنة بالخمسينيات. وقد يعود جزء من هذا الارتفاع إلى تحسن عمليات التسجيل، لكن فقد الأوزون وزيادة التعرض للأشعة فوق البنفسجية يساهمان فى هذه الزيادة. وإذا زادت الحالة سوءاً، يجب على البيض استخدام ملابس حماية خاصة خلال النزوهات المعتادة فى الهواء الطلق، على الأقل فى المناطق الأكثر ارتفاعاً عن سطح البحر والمناطق الأكثر بعداً عن خط الاستواء.

لكن ارتفاع حالات الإصابة بسرطان الجلد - التى تعتبر نتيجة مباشرة لزيادة التعرض للأشعة فوق البنفسجية، وتهدد الملايين بالوفاة لا تعتبر أسوأ ما فى الموضوع، ولا حتى زيادة معدل الإصابة بعتمة عدسة العين^(٤). والأكثر خطورة حقيقة أن الأشعة فوق البنفسجية تصيب جهاز المناعة (آلية الجسم فى محاربة الأمراض) وذلك يحدث أيضاً للذين يخرجون بدون حماية إلى ضوء الشمس. ورغم ما يتضح من خطورة كل ذلك، إلا أن الخطر الحقيقى يكمن فى شيء آخر.

عند التعرض للأشعة فوق البنفسجية تتفكك الجزيئات العضوية التى تشكل كل الحياة على الأرض أو تنتج روابط كيميائية غير صحية. وأكثر الكائنات التى

(٤) المياه البيضاء (المتروجم).

تسكن المحيطات انتشاراً هي نباتات وحيدة الخلية تطفو بالقرب من سطح الماء وهي العوالق Phytoplankton والتي لا يمكنها الاختباء بعيداً عن الأشعة فوق البنفسجية بالغوص فى الأعماق ؛ لأنها تعيش معتمدة على ضوء الشمس. إنها تعيش على قوت يومها (وهذا مجرد مجاز). وتوضح التجارب أن مجرد زيادة بسيطة فى الأشعة فوق البنفسجية تضر النباتات وحيدة الخلية المنتشرة فى محيط القطب الجنوبي وأماكن أخرى. ويتوقع أن تؤدي زيادة أكبر إلى خطر بالغ وفى آخر الأمر عمليات فناء واسعة النطاق.

وتشير القياسات الأولية لتعداد تلك النباتات المجهرية فى مياه القطب الجنوبي إلى وجود نقص مقلق حالياً - يبلغ ٢٥ فى المائة - بالقرب من سطح المحيط. ولأن العوالق بالغة الصغر فإنها تفتقد إلى الكساء الصلب لدى الحيوانات والنباتات الأعلى الذى يمتص الأشعة فوق البنفسجية. (إضافة إلى حدوث مجموعة نتائج متتابة فى سلسلة الغذاء فى المحيط، يؤدي فناء العوالق إلى إلغاء دورها فى استخلاص ثانى أكسيد الكربون من الهواء مما يرفع من ظاهرة التصوب العالمى. وهذه إحدى الطرق العديدة التى يرتبط خلالها تقلص طبقة الأوزون بظاهرة التصوب، رغم أنهما مشكلتان مختلفتان تماماً. فالسبب الرئيسى لتآكل الأوزون هو الأشعة فوق البنفسجية، أما بالنسبة للتصوب العالمى فهو الضوء المرئى والأشعة تحت الحمراء).

لكن إذا سقطت الأشعة فوق البنفسجية التى تزيد باستمرار على المحيطات، لن يقتصر الخطر على تلك النباتات الضئيلة، لأنها طعام لحيوانات وحيدة الخلية هى العوالق الحيوانية^(*)، والتى تعتبر بدورها طعاماً للقشريات الصغيرة (مثل تلك التى كانت موجودة فى كرتى الزجاجية رقم ٤٢١٠ - وهو سمك بحرى يشبه الربيان تعيش عليه الحيتان) التى تأكلها الأسماك الصغيرة، وهى طعام بدورها للأسماك الكبيرة، التى تأكلها الدلافين والحيتان والبشر.

وتكون نتيجة هلاك النباتات الصغيرة فى قاعدة السلسلة الغذائية انهياراً فى السلسلة كلها. وهناك كثير من هذه السلاسل الغذائية على الأرض كما هو الحال

(*) مثل المرجان وشقيقة البحر وقنديل البحر (المترجم).

فى الماء، وىبدو أنها جمىعاً معرضة للتلف بواسطة الأشعة فوق البنفسجية. مثال لذلك البكتريا المثبتة لنتروجين الهواء فى جذور نباتات الأرز فهى قابلة للتأثر بالأشعة فوق البنفسجية. وقد تهدد زيادة الأشعة فوق البنفسجية المحاصيل، ومن الممكن أيضاً أن تعرض مخزون الغذاء البشرى للخطر. وتوضح الدراسات المختبرية لمحاصيل على خطوط العرض المتوسطة أن كثيراً منها يصاب بالضرر نتيجة زيادة الأشعة فوق البنفسجية القريبة التى تصل إليها كلما تآكلت طبقة الأوزون.

وبإتاحة الفرصة لتآكل طبقة الأوزون وزيادة كثافة الأشعة فوق البنفسجية على سطح الأرض، فإننا نحدث تحديات قد تؤدى إلى مخاطر مجهولة لكنها مثيرة للقلق على بناء الحياة فوق كوكبنا. ونحن جهلاء بما يخص الاعتماد المتبادل المعقد بين الكائنات على الأرض، وما ستؤول إليه النتائج المتعاقبة إذا استأصلنا بعض الميكروبات المعرضة بشكل خاص للضرر والتى تعتمد عليها الكائنات الحية الأكبر. نحن نجذب بقوة نسيجاً بيولوجياً بسعة الكوكب ولا نعرف ما إذا كان خيطٌ واحدٌ سيخرج بين أيدينا أم أن النسيج كله سينحلّ أمامنا.

لا يصدق أحد أن كل طبقة الأوزون معرضة لخطر الاختفاء الوشيك. لن يصل وضعنا - حتى لو ظللنا على عنادنا حول معرفة الخطر الذى نتعرض له - إلى حالة خلو سطح المريخ من الكائنات الحية، الذى يتلقى باستمرار ضربات الأشعة فوق البنفسجية غير المرشحة الصادرة من الشمس. وحتى لو نقصت كمية الأوزون على المستوى العالمى بنسبة ١٠ فى المائة فقط - وهو ما يعتقد كثير من العلماء أنه سيحدث نتيجة الجرعة "الحالية" من الكلوروفلوروكاربون فى الجو - فإن ذلك يمثل خطراً بالغاً.

فى عام ١٩٧٤ حذر العالمان ف. شيرود رولاند وماريو مولينا من كلية إرفين فى جامعة كاليفورنيا، لأول مرة من أن الكلوروفلوروكاربون - الذى يتم حقن بضع ملايين من الأطنان منه سنوياً فى الستراتوسفير^(*) - سيصيب طبقة الأوزون بتلف خطير. ودعمت التجارب المتتالية والحسابات التى أجراها عدد من العلماء

(*) الجزء العلوى من الغلاف الجوى (المترجم).

هذه النتائج. فى البداية أشارت بعض الحسابات المؤكدة لتلك النتائج بأن التأثير موجود، لكنه قد يكون أقل خطرا مما أشار إليه رولاند ومولين، وأوضحت حسابات أخرى أن التأثير قد يكون أكثر خطرا. وهذا حال شائع بالنسبة للنتائج العلمية الجديدة، حيث يحاول علماء آخرون اختبار مدى قوة الاكتشاف الجديد. لكن الحسابات استقرت على أية حال على ما توصل إليه رولاند ومولين (وحصلا معا نتيجة بحثهما على جائزة نوبل فى الكيمياء فى ١٩٩٥).

لكن شركة ديبون التى كانت تباع الكلوروفلوروكاربون بنحو ٦٠٠ مليون دولار سنوياً، نشرت إعلانات فى الجرائد وفى المجلات العلمية، وشهدت أمام لجان فى الكونجرس بأن خطر الكلوروفلوروكاربون على طبقة الأوزون لم يتم إثباته، وأنه تمت المبالغة فيه بشدة، أو أنه اعتمد على أدلة علمية خاطئة. وقارنت إعلاناتها بين "الباحثين النظريين وبعض المشرعين" الذين عليهم حظر استخدام الكلوروفلوروكاربون فى الإيروسولات، و"الباحثين وصناعة الإيروسول" الذين يسايرون تيار الرأى العام، مشيرة إلى أن "المواد الكيميائية الأخرى .. مسئولة فى المقام الأول" وحذرت من "الدمار الذى يلحق بمجال الأعمال نتيجة القرارات التشريعية المبتسرة". وأعلنت "نقص الأدلة" فيما يتعلق بالمشكلة، ووعدت ببدء أبحاث تستغرق ثلاث سنوات، تتخذ بعدها موقفاً محدداً. لم تكن الشركة القوية ذات الأرباح الضخمة تسمح بخسارة مئات الملايين من الدولارات سنوياً لمجرد إشاعات صادرة عن قلة من الباحثين فى مجال الكيمياء الضوئية. وعندما تم إثبات النظرية ولم تعد تثير أية شكوك، كانت حصيلة أقوالهم أنه سيتم فى وقت قريب اتخاذ قرارات بإجراء التغييرات المطلوبة. ويبدو عليهم أحياناً أنهم يرون أن صناعة الكلوروفلوروكاربون ستتوقف بمجرد أن يصبح من المتعذر علاج التلف الذى أصاب طبقة الأوزون، لكن عندما يحين هذا الوقت لن يكون هناك زبائن.

بمجرد وصول الكلوروفلوروكاربونات إلى الجوايست هناك طريقة للتخلص منها (أو لضخ أوزون من هنا على الأرض، حيث يكون ملوثاً، إلى هناك فى الغلاف الجوى العلوى حيث الحاجة ماسة إليه). وبمجرد حدوث تأثيرات الكلوروفلوروكاربون فى الجو، فأنها تظل قائمة لنحو قرن. ولذلك يطالب شيرود رولاند وعلماء آخرون ولجنة الدفاع عن المصادر الطبيعية فى واشنطن بحظر

الكلوروفلوروكاربون. وفي ١٩٧٨ تم اعتبار الكلوروفلوروكاربونات المندفعة من رشاشات الإيروسولات غير قانونية في الولايات المتحدة وكندا والنرويج والسويد. لكن أغلب الإنتاج العالمي من الكلوروفلوروكاربون لا يدخل في تلك الرشاشات.

تمت تهديئة القلق العام مؤقتاً، وتحول الانتباه إلى مجال آخر، واستمر محتوى الهواء من الكلوروفلوروكاربون في زيادة. ووصلت كمية الكلور في الجو إلى ضعف ما كانت عليه عندما أطلق رولاند ومولينا التحذير وخمسة أضعاف ما كان عليه في ١٩٥٠.

ولعدة سنوات كان المسح البريطاني للأراضي في القطب الجنوبي، الذي يمارسه فريق من العلماء المقيمين في هالي باي أقصى جنوب القارة، يقيس ارتفاع طبقة الأوزون في السماء. وفي ١٩٨٥ أعلنوا أخباراً محبطة حول أن أوزون الربيع تقلص إلى نحو نصف ما قاسوه قبل بضع سنوات سابقة. وتؤكد هذا الاكتشاف بواسطة قمر صناعي تابع لناسا.

ويعتبر ثلثاً أوزون الربيع فوق القطب الجنوبي مفقوداً الآن. يوجد ثقب في طبقة الأوزون فوق القطب الجنوبي، ويظهر كل ربيع منذ أواخر السبعينيات. وفي الوقت الذي تعالج تلك الطبقة خلاله نفسها في الشتاء يبدو على الثقب أنه يبقى طويلاً كل ربيع. ولم يسبق لأي عالم أن تنبأ بذلك.

كان من الطبيعي أن يدفع وجود هذا الثقب المزيد من المطالبة بحظر الكلوروفلوروكاربون (كما حدث عندما تم اكتشاف أن الكلوروفلوروكاربون يعتبر عاملاً إضافياً في ظاهرة التصوب الناجمة عن تأثير الصوبة بواسطة ثاني أكسيد الكربون) لكن المسؤولين في عالم الصناعة يجدون صعوبة على ما يبدو في استيعاب طبيعة المشكلة. ويشكو ريتشارد س. بارنيت، مدير "التحالف من أجل سياسة مسئولة حول الكلوروفلوروكاربون" الذي أسسه منتجو الكلوروفلوروكاربون، قائلاً: "قد يكون للوقف السريع التام لإنتاج الكلوروفلوروكاربون الذي يطالب به البعض نتائج رهيبة، حيث ستضطر بعض الصناعات إلى التوقف لأنها لا تجد منتجات بديلة، وقد يقتل العلاج المريض". لكن المريض ليس "بعض الصناعات"، قد يكون المريض الحياة على الأرض.

ترى جمعية منتجي الكيماويات أن ثقب القطب الجنوبي "ليس من المرجح تماما أن يكون له تأثير عالمي .. وحتى في أغلب المناطق المماثلة في العالم، في القطب الشمالي، تحول الأحوال الجوية بشكل مؤثر دون حدوث حالة مماثلة".

وفي زمن أقرب تم العثور على مستويات أعلى من الكلور النشط في "ثقب الأوزون"، مما يساهم في إثبات دور الكلوروفلوروكاربون في هذه الظاهرة. وتشير القياسات بالقرب من القطب الشمالي إلى ظهور ثقب في الأوزون في القطب الشمالي أيضا. وتوصلت دراسة في ١٩٩٦ بعنوان "برهان بواسطة القمر الصناعي لانتشار الكلوروفلوروكاربون في مخزون كلور طبقة الستراتوسفير العالمية" إلى استنتاج قوى غير عادي (بالنسبة لورقة بحثية علمية) يشير إلى أن الكلوروفلوروكاربون متورط في تآكل الأوزون "بدون أدنى شك". والدور الذي يلعبه الكلور الصادر من البراكين ورذاذ البحر - وهو ما يؤيده بعض من المعلقين الإذاعيين من الجناح اليميني المحافظ - مسئول في الغالب عن ٥ في المائة من عملية تدمير الأوزون.

وفي مناطق خطوط العرض الوسطى الشمالية، حيث يعيش أغلب سكان الأرض، تبدو كمية الأوزون في تناقص مستمر على الأقل منذ ١٩٦٩. هناك بالطبع تقلبات، وتعمل إيروسولات البراكين في الستراتوسفير على إنقاص مستويات الأوزون لمدة عام أو عامين قبل أن تعود إلى الاستقرار. لكن وجود نضوب نسبي (تبعاً للمنظمة العالمية للأرصاد الجوية) ٣٠ في المائة فوق خطوط العرض المتوسطة لعدة أشهر سنوياً، و٤٥ في المائة في بعض المناطق، يعتبر سبباً للتنبيه للخطر. ولا يحتاج الأمر إلى رصد هذه الظواهر سنوات متتالية حتى يصبح مرجحاً أن الحياة تحت طبقة أوزون تتقلص مهددة بالمخاطر.

حظرت بيركلي في كاليفورنيا رغوة العزل المنتفخة البيضاء التي يدخل في صناعتها الكلوروفلوروكاربون وتستخدم للمحافظة على الأطعمة الجاهزة دافئة. وتعهدت مكدونالد باستبدال أنواع الكلوروفلوروكاربون الأكثر خطورة في تغليفاتها. وفي مواجهة الوقوع تحت تهديد النظم الحكومية ومقاطعات المستهلكين، أعلنت ديبون أخيراً في ١٩٨٨، بعد ١٤ عاماً من اكتشاف خطر

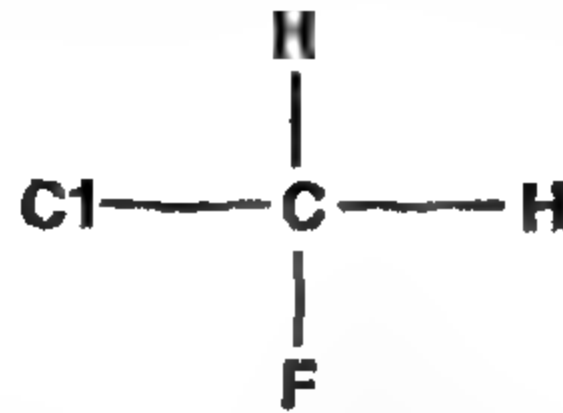
الكلوروفلوروكاربون، أنها ستخفض تدريجيا من صناعته، على ألا يكتمل ذلك إلا فى عام ٢٠٠٠. أما المنتجون الأمريكيون الآخرون فلم يعدوا حتى بمثل هذا. ومع ذلك تشارك الولايات المتحدة بنسبة ٣٠ فى المائة من الإنتاج العالمى للكلوروفلوروكاربون. وحيث إنه أصبح من الواضح أن التهديد طويل المدى لطبقة الأوزون أمر عالمى، فإن الحل يجب أن يكون عالميا أيضا.

فى سبتمبر ١٩٨٧ اجتمع كثير من الدول المنتجة والمستهلكة للكلوروفلوروكاربون فى مونتريال لعقد اتفاقية محتملة للحد من استخدام الكلوروفلوروكاربون. فى البداية شاركت بريطانيا وإيطاليا وفرنسا، متأثرة بالصناعات الكيماوية الضخمة لديها (وفرنسا بصناعة العطور لديها)، فى المناقشات وهى مكرمة على ذلك فقط. (كانت تلك الدول تخشى أن يكون لدى ديبيون بديل أخفته وكانت تعدّه طوال الوقت الذى كانت خلاله تعوق التصديق على حظر الكلوروفلوروكاربون. وكانت تلك الدول تخشى أيضا أن الولايات المتحدة تعدّ حظرا على الكلوروفلوروكاربون بهدف زيادة القدرة التنافسية على المستوى العالمى لإحدى شركاتها المهمة. وكانت عدة دول منها كوريا الجنوبية غائبة تماما. ولم يوقع الوفد الصينى على الاتفاقية. واقترح وزير الداخلية دونالد هوديل (المحافظ المعين من قبل ريجان والكاره للتدخل التنظيمى الحكومى) أنه كبديل للحد من إنتاج الكلوروفلوروكاربون، يمكننا جميعا ارتداء نظارات شمسية وقبعات. وحرية الاختيار هذه ليست متاحة بالطبع للكائنات المجهرية فى قاعدة السلاسل الغذائية التى تبقى الحياة على الأرض. وقعت الولايات المتحدة على بروتوكول مونتريال رغم هذه النصيحة، وحدث ذلك فى الوقت الذى لم يكن من المتوقع حدوث فورة النشاط المعادى للبيئة فى زمن حكومة ريجان (بالطبع إلا إذا كان الخوف من المنافسين فى ديبيون الأوروبية حقيقيا). وفى الولايات المتحدة وحدها كان يجب استبدال ٩٠ مليون جهاز تكييف هواء فى السيارات و١٠٠ مليون ثلاجة كهربائية، ويمثل ذلك تضحية ضخمة من أجل المحافظة على البيئة. يجب الاعتراف بفضل كل من السفير ريتشارد بينديك الذى ترأس وفد الولايات المتحدة فى مونتريال، ورئيسة الوزراء مارجريت تاتشر (ذات الخبرة فى مجال الكيمياء) حيث كانت على وعى بالمشكلة.

وحصل بروتوكول مونتريال حاليًا على مزيد من التوسع بواسطة المعاهدات التعديلية التي تم التوقيع عليها في لندن وكوينهاجن. وحتى تاريخ كتابة هذا الكتاب، كانت ١٥٦ بلدًا، منها جمهوريات الاتحاد السوفيتي السابق والصين وكوريا الجنوبية والهند، قد وقعت على الاتفاقية. (رغم تساؤل بعض الدول عن أنه، في الوقت الذي استفادت خلاله اليابان والغرب من الكلوروفلوروكاربون، أصبح مطلوبًا منها هي الامتناع عن استخدام الثلجات الكهربائية وأجهزة تكييف الهواء، بالضبط عندما بدأت صناعاتها تحرز نجاحات ملحوظة. وهو تساؤل عادل لكنه يتصف بضيق أفق شديد). وتمت الموافقة على التوقف التام عن استخدام الكلوروفلوروكاربون حتى عام ٢٠٠٠، ثم تم تعديله إلى ١٩٩٦. ووافقت الصين - التي كان استهلاكها من الكلوروفلوروكاربون يرتفع ٢٠ في المائة سنويًا خلال الثمانينيات - على وقف اعتمادها على الكلوروفلوروكاربون ولم تنتفع هي بالذات بفترة عشر سنوات المهلة التي تتيحها الاتفاقية. وأصبحت دييون رائدة في تخفيض الكلوروفلوروكاربون، وألزمت نفسها بتوقف أسرع من كثير من الدول، وتنخفض كمية الكلوروفلوروكاربون في الهواء بشكل ملحوظ. وتتمثل المشكلة في أننا سنوقف إنتاج "كل" الكلوروفلوروكاربون ثم ننتظر حينئذ قرنًا قبل أن نستطيع الجو تنظيف نفسه وكلما طالبت إضاعتنا للوقت سدى، كلما زاد عدد الدول الممتنعة عن تنفيذ الاتفاقية، وأصبح الخطر أشد.

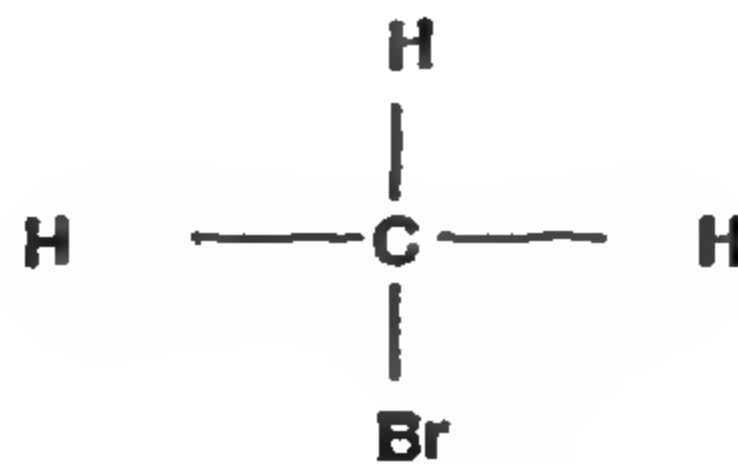
ومن الواضح أنه يمكن حل المشكلة إذا تم التوصل إلى مادة أرخص وأكثر فعالية من الكلوروفلوروكاربون، ولا تسبب أضرارًا لنا ولا للبيئة، لكن ماذا يحدث إذا لم نتوصل إلى تلك المادة؟ ماذا لو أن أفضل مادة أكثر تكلفة من الكلوروفلوروكاربون؟ من ينفق على الأبحاث، ومن يعوّض عن فرق السعر؟ المستهلك، أم الحكومة أم الصناعة الكيميائية التي أوقعتنا في هذا المأزق وتستفيد منه؟ هل تقدم الدول الصناعة التي استفادت من تقنية الكلوروفلوروكاربون مساعدة ذات قيمة للدول الصناعية الوليدة التي لم تجن فوائد من هذه التقنية؟ ماذا لو احتاج الأمر ٢٠ عامًا للتأكد من أن هذه المادة لا تسبب السرطان؟ ماذا عن الأشعة فوق البنفسجية التي تنهمر على محيط القطب الجنوبي؟ وماذا عن كل الكلوروفلوروكاربون المنتج حديثًا الذي يصعد نحو طبقة الأوزون منذ الآن حتى يتم حظر تلك المادة بشكل كامل؟

تم العثور على مادة - أو من الأفضل القول على بديل مؤقت إلى حد ما - تم استبدال بالكلوروفلوروكاربون مؤقتًا ، مواد الهيدرو كلوروفلوروكاربون HCFCs، وهي جزيئات مماثلة لكنها تحتوى على ذرات الهيدروجين، مثال لذلك:



وهذه المواد تسبب أيضا بعض الضرر لطبقة الأوزون لكنها أضرار أقل بكثير، وهي - مثلها مثل الكلوروفلوروكاربون - تساهم بدور مهم فى ظاهرة التصوب العالمى، وهي أكثر تكلفة، خاصة فى بداية استخدامها، لكنها تناسب الاحتياج الأكثر إلحاحا، وهو حماية طبقة الأوزون. وتم تطوير مواد HCFCs بواسطة شركة ديبون، لكن ذلك حدث فقط "بعد" الاكتشافات فى هالى باى، كما تؤكد الشركة.

البروم، إذا قورن ذرة بذرة، يعتبر أكثر فعالية بمقدار ٤٠ مرة على الأقل من الكلور فى تدميره للأوزون فى الستراتوسفير. ولحسن الحظ أنه أكثر ندرة من الكلور، وينبعث البروم فى الهواء من خلال الهالونات (غاز مركب من الكربون والبروم والهالوجين) المستخدمة فى إخماد النيران، ومن بروميد الميثيل



المستخدم فى تدخين التربيية والحبوب المخزنة، وبين ١٩٩٤ و ١٩٦٩ وافقت البلدان الصناعية على التوقف التدريجى عن إنتاج هاتين المادتين، ووضع حد أعلى لها فى ١٩٩٦، مع عدم التوقف التام عن استخدامها حتى ٢٠٣٠؛ حيث لا يوجد حتى الآن بدائل لبعض الهالونات، وقد يكون هناك إغراء لاستخدامها سواء تم الحظر أو لم يتم. وفى غضون ذلك يكون قد تم التوصل إلى حل أفضل طويل المدى لهذه المشكلة التقنية المهمة للاستغناء عن مواد HCFCs. وقد يتضمن ذلك ابتكار تركيب آخر رائع لجزء جديد، وقد يتم السير فى اتجاهات أخرى،

ثلاجات صوتية^(٥) مثلاً لا تستخدم سائلاً ينتشر لينقل خطراً مأكراً. ها هي فرصة للابتكار الإبداعي، والعائد المالى مرتفع والفوائد بعيدة المدى لكوكب الأرض والأجناس التى تعيش عليه كثيرة جداً، وأتمنى أن أرى المهارة التقنية الهائلة فى مختبرات الأسلحة النووية، والتى تحتضر حالياً بعد انتهاء الحرب الباردة، تتحول إلى هذه المساعي المجدية، وأتمنى أن أرى منحا سخية وجوائز مغرية تُقدم لابتكار طرازات جديدة من أجهزة تكييف وثلاجات فعالة ومريحة وآمنة وبالطبع غير مرتفعة الأسعار، وتكون ملائمة للمنتج المحلى فى البلدان النامية.

يعتبر بروتوكول مونتريال مهماً من ناحية ضخامة التغييرات التى تمت الموافقة عليها، لكنه مهم بشكل خاص فيما يتعلق باتجاه تلك التغييرات. ربما يكون الأكثر إثارة للدهشة حظر الكلوروفلوروكاربون فى وقت لم يكن من الواضح إمكانية وجود بديل فى الأفق. رعى برنامج البيئة التابع للأمم المتحدة مؤتمر مونتريال، ولقد وصف مديره مصطفى طلبة ما حدث بأنه "أول معاهدة كوكبية حقيقية تتيح حماية لكل فرد فى العالم".

من الأشياء المشجعة أنه يمكننا إدراك المخاطر الجديدة غير المتوقعة، التى يمكن أن يتحد الجنس البشرى ممثلاً لنا جميعاً فى مواجهة المشاكل الناجمة عنها، وأن ترغب الدول الغنية فى تحمل جزء من التكاليف، وأن يتم إقناع الشركات المهددة بخسائر ضخمة ليس فقط بتغيير أفكارها ولكن أيضاً بأن ترى فى مثل هذه الأزمات فرصاً لأنشطة جديدة. يتيح حظر الكلوروفلوروكاربون ما يُعرف فى علم الرياضيات بأنه نظرية وجود existence theorem – البرهنة على أن شيئاً ما قد يكون – تبعاً لكل ما هو معروف – مستحيلاً ثم يمكن إنجازه واقعياً. وهذا سبب للتفاؤل الحذر.

يبدو أن الكلور قد تضاعف بنحو أربع ذرات كلور لكل بليون جزيء آخر فى الستراتوسفير. وهذه الكمية مستمرة فى الانخفاض حالياً. ولكن بسبب البروم جزئياً على الأقل لا يُتوقع أن تعالج طبقة الأوزون نفسها قريباً.

(٥) acoustic refrigerators تقنية جديدة تعتمد على إنتاج صوت فى أنبوب ملىء بغاز، حيث تسبب موجات الصوت تمدداً فى جزيئات الغاز فتبرد، وتستغل هذه البرودة فى الثلاجات وأجهزة التكييف (المترجم).

من البديهي أن الوقت مبكر تمامًا للاسترخاء التام فيما يتعلق بحماية طبقة الأوزون، ونحتاج إلى التأكد من أن إنتاج هذه المواد قد تم التوقف عنه نهائياً تقريباً في كل العالم، ونحتاج إلى زيادة ضخمة في الأبحاث للتوصل إلى مواد آمنة، ونحتاج إلى رصد شامل (من محطات أرضية، وطائرات وأقمار صناعية في المدارات) لطبقة الأوزون حول كل الكرة الأرضية* على الأقل بنفس الضمير الحي الذي نراقب به محبوبا يعاني من خفقان القلب بسرعة وقوة.

ونحتاج إلى معرفة إلى أية درجة يحدث مزيد من الإجهاد على طبقة الأوزون عن طريق الانفجارات البركانية غير الدائمة ، أو التصوب الكوكبي المستمر ، أو إطلاق بعض المواد الكيماوية الجديدة في الغلاف الجوي العالمي.

بدأت مستويات الكلور في الستراتوسفير تنخفض بعد وقت قصير من بروتوكول مونتريال. وابتداءً من ١٩٩٤ انخفضت مستويات الكلور والبروم (معاً) في الستراتوسفير. وإذا انخفضت مستويات البروم أيضاً ستبدأ طبقة الأوزون - كما هو متوقع - في الالتئام على المدى الطويل مع نهاية القرن.

وإذا لم يتم وضع قيود على الكلوروفلوروكاربون حتى ٢٠١٠، قد يرتفع الكلور في الستراتوسفير إلى مستويات أعلى ثلاث مرات عنها حالياً، وقد يبقى الثقب في أوزون القطب الجنوبي حتى منتصف القرن الثاني والعشرين، وقد يتجاوز تآكل أوزون الربيع فوق خطوط العرض الوسطى الشمالية ٣٠ في المائة، وهي قيمة تمثل هزيمة منكرة، تبعا لمايكل براتير زميل رولاند في إرفين.

ما زالت هناك مقاومة في الولايات المتحدة من صناعتي مكيفات الهواء والثلاجات، من "المحافظين" المتطرفين ومن أعضاء الكونجرس الجمهوريين.

(*) لعبت الإدارة القومية للطيران والفضاء والإدارة القومية للمحيطات والطقس أدواراً بطولية في الحصول على بيانات حول تآكل طبقة الأوزون وأسبابه. (رصد القمر الصناعي نيمبوس ٧ مثلاً زيادة في الأشعة فوق البنفسجية الأكثر خطورة التي وصلت إلى سطح الأرض بمقدار ١٠ في المائة خلال عقد بالنسبة لتشيلى والأرجنتين ونصف هذا المقدار عند خطوط العرض الوسطى الشمالية حيث يعيش أغلب سكان الأرض). وسوف يواصل برنامج قمر صناعي جديد تابع لناسا تحت اسم "بعثة إلى كوكب الأرض" رصد الأوزون والظواهر الجوية المرتبطة به على نطاق طموح لمدة عقد أو أكثر. وخلال ذلك تدخل في النشاط روسيا واليابان والأعضاء المؤسسون في وكالة الفضاء الأوروبية وآخرون، ببرامجهم الخاصة ومركباتهم الفضائية، وعلى هذا المستوى أيضاً يأخذ الجنس البشري خطر تآكل الأوزون مأخذاً جاداً.

كان من رأى توم ديلاى (مراقب الأغلبية الجمهورية فى مجلس النواب) فى ١٩٩٦ أن "العلم يصل ضمناً إلى أن حظر الكلوروفلوروكاربون أمر مختلف فيه" وأن بروتوكول مونتريال "نتيجة فزع وسائل الإعلام". ويصر جون دوليتل، جمهورى آخر فى المجلس، على أن الارتباط السىء بين تآكل الأوزون والكلوروفلوروكاربون "مازال إلى حد بعيد مفتوحاً لمختلف الآراء". وردا على محرر ذكره بالرأى الخطير المناظر الذى يشكك فى ما يقول والصادر عن الخبراء حول أن الأبحاث أثبتت أن هذه العلاقة قد تم التحقق منها، أجاب دوليتل "لست مستعداً لأن أنشغل بتشوش رأى مناظر"، وكان من الأفضل للوطن أن يفعل ذلك ؛ لأن رأى المناظر يكون كاشفاً جيداً للتشوش. وكان قرار لجنة جائزة نوبل مختلفاً، حيث أشادت خلال منحها الجائزة لكل من رولاند ومولينا - اللذين يجب أن يعرف اسمهما كل تلميذ - بأنهما "قد ساهما فى إنقاذنا من مشكلة بيئية كوكبية كان من الممكن أن تنتهى بكوارث". من الصعب فهم كيف يمكن "للمحافظين" معارضة حماية البيئة التى تعتمد عليها حياتنا جميعاً إلى حد بعيد - ومعنا المحافظون وأطفالهم - فما الذى يحافظ عليه المحافظون بالضبط؟

تشبه العناصر الجوهرية فى قصة الأوزون كثيراً من أوجه التهديدات الأخرى للبيئة: نطلق بعض المواد فى الغلاف الجوى (أو نحن مستعدون لأن نفعل ذلك) ، وبشكل أو بآخر لا نختبر مفعول تلك المواد على البيئة بشكل كامل ؛ لأن تكاليف الاختبار قد تكون مرتفعة، أو قد تؤخر الإنتاج وتقلل الأرباح، أو لأن المسؤولين عن هذا الأمر لا يرغبون فى سماع آراء معارضة، أو أنه لم تتم الاستعانة بأفضل الخبرات العلمية لتتحمل مسئولية الأمر، أو ببساطة لأننا بشر معرضون للخطأ وغير مؤهلين بشكل كامل لمواجهة الموقف. لذلك نواجه فجأة خطراً لم نكن نتوقعه ألبتة على المستوى العالمى قد تكون له آثار مشؤمة تمتد عقوداً أو قروناً منذ الآن. ولا يمكن حل المشكلة بشكل محلى أو فى المدى القصير.

والدرس واضح فى كل هذه الحالات: لسنا دائماً بالذكاء والحكمة الكافيين للتنبؤ بكل آثار أنشطتنا. كان ابتكار الكلوروفلوروكاربون إنجازاً رائعاً، لكن بقدر ما كانت تلك المواد الكيميائية مأكرة فإنها لم تكن بالذكاء الكافى. ذلك لأن الكلوروفلوروكاربونات على وجه الدقة مواد خاملة تستمر وقتاً طويلاً يتيح لها

الوصول إلى طبقة الأوزون. والعالم معقد، والهواء ضعيف والطبيعة رقيقة، وقدرتنا على إحداث الأضرار عالية. يجب أن نكون أكثر حرصًا وأقل صفحًا عن تلويث هوائنا الرقيق.

يجب علينا تطوير مستويات أعلى للأحوال والعادات الصحية لكوكبنا وبشكل خاص التوصل إلى مصادر علمية أكثر قدرة على الكشف عن العالم وفهمه. ويجب أيضًا أن نفكر ونعمل ليس تبعًا لوطن كل منا أو لمصلحة جيلنا فقط (وأدنى من ذلك بكثير البحث عن أرباح صناعة محددة)، ولكن لمصلحة كوكب الأرض بكامله المعرض للمخاطر ولمصلحة أجيال الأطفال القادمين.

وثقب الأوزون نوع من الكتابة السماوية، بدت في البداية كما لو كانت تشرح رضانا الذاتي المستمر أمام تجمع سحري لمخاطر قاتلة. لكنها قد تشير في الحقيقة إلى موهبة تم العثور عليها أخيرًا في العمل المشترك لحماية بيئتنا الكوكبية. ويمثل بروتوكول مونتريال وتعديلاته نصرًا ومجدًا للجنس البشري.

الفصل الحادى عشر

فخ ارتفاع درجة حرارة العالم

أما هم فينصبون شركاً لأنفسهم

(العهد القديم _ أمثال ١: ٨١)

منذ ثلاثمائة مليون سنة كانت الأرض مغطاة بالمستنقعات هائلة الاتساع. وعندما اندثرت السراخس ferns والأسوخات horsetails والطحالب السباتية club mosses, دفنت فى قاع الوحل، مرت الأزمنة وهبطت البقايا تحت سطح الأرض حيث تحولت عبر مراحل بطيئة إلى مادة عضوية صلبة جافة نطلق عليها الفحم. وفى مواضع أخرى وعهود أخرى مات عدد هائل من النباتات وحيدة الخلية والحيوانات، وغرقت فى قاع البحر، وتغطت بالمواد الرسوبية، ظلت بقايا تلك النباتات والحيوانات تغلى برفق عبر أزمنة عديدة، على مراحل تدريجية، لتتحول إلى سوائل وغازات عضوية نطلق عليها البترول والغاز الطبيعى. (قد تكون بعض الغازات الطبيعية الإضافية غازات أصلية - ليس لها أصل بيولوجى عضوى لكنها اندمجت بالأرض خلال نشأتها). بعد تطور البشرية كان الإنسان يصادف أحياناً هذه المواد الغريبة عندما كانت تظهر على سطح الأرض. ويُعتقد أن تسرب النفط والغاز واشتعالهما بالبرق هو أصل "اللهب الأبدى" الذى يحتل مكانة مركزية فى عبادات أديان فارس القديمة. وواجه ماركو بولو إنكاراً شديداً عندما حكى للخبراء الأوروبيين فى زمانه قصة منافية للعقل عن صخرة سوداء من منجم تحترق عندما يتم إشعالها.

وفى آخر الأمر عرف الأوروبيون أن هذه المواد الغنية بالطاقة القابلة للنقل بسهولة يمكن أن تكون مفيدة ، كانت أفضل بكثير من الخشب، يمكنك تدفئة منزلك بها وأن تغذى بها فرنًا، ويمكنها تشغيل ماكينة بخارية، وتوليد الكهرباء، وإمداد الصناعة بالطاقة، وتشغيل القطارات والسيارات والسفن والطائرات. وكانت هناك تطبيقات حربية ذات فعالية. لذلك تعلمنا أن نحفر استخراج الفحم من باطن الأرض وأن نصنع حفرا عميقة فى الأرض حتى يمكن للغاز والنفط المدفونين فى الأعماق، المضغوطين بأحمال ثقيلة جدا من الصخور، أن ينطلقا إلى السطح. وأخيرا أصبحت هذه المواد مهيمنة على الاقتصاد. وأتاحت دفعا لحضارتنا التقنية الكوكبية. وليس من المبالغة القول إنها بطريقة ما تدير العالم، وكما هى العادة دائما، لا بد من دفع الثمن.

يطلق على الفحم والنفط والغاز الوقود الأحفوري، لأنها نتجت غالبًا من البقايا الأحفورية للكائنات منذ أزمنة بعيدة . والطاقة الكيميائية المخزنة داخلها هى نوع من ضوء الشمس المتراكم فى الأصل عن طريق النباتات. وتسير حضارتنا بواسطة حرق بقايا الكائنات المتواضعة التى سكنت الأرض منذ مئات الملايين من السنوات قبل ظهور البشر الأوائل فى المشهد، وفى ما يشبه طائفة مروعة آكلة للحم البشر، نعيش على جثث أسلافنا وأقاربنا بالغى القدم.

إذا عدنا بتفكيرنا إلى الزمن الذى كان الخشب فيه هو وقودنا الوحيد، سندرك قيمة الفوائد التى تتيحها لنا الأنواع المختلفة من الوقود الأحفوري. لقد ساهمت أيضا فى إنشاء صناعات ضخمة فى العالم، ذات سلطة مالية وسياسية هائلة – ليس فقط تلك الصناعات التى تعتمد على النفط والغاز والفحم أو على أى منها – لكن ذلك ينطبق أيضًا على صناعات مساعدة سيات كان اعتمادها عليها كاملا (السيارات والطائرات) أو جزئيا (المواد الكيماوية والأسمدة والزراعة). ويعنى هذا الاعتماد أن الدول ستذهب إلى حد التطرف فى المحافظة على الموارد التى تمدها بتلك الطاقة. وكانت أنواع الوقود الأحفوري عوامل مهمة فى نشوب الحريين العالميتين الأولى والثانية ، وتم تفسير وتبرير العدوان اليابانى فى الحرب العالمية الثانية على أساس أن اليابان كانت مضطرة إلى حماية مصادرها

النفطية. وكما توضح لنا مثلاً حرب الخليج الفارسي ١٩٩١ أن الأهمية السياسية والعسكرية للوقود الأحفوري ما زالت مرتفعة.

يأتي نحو ٣٠ في المائة من كل النفط الذي تستورده الولايات المتحدة من الخليج الفارسي ، وفي بعض الأشهر يكون أكثر من نصف النفط المستهلك في الولايات المتحدة مستوردًا ، ويمثل النفط أكثر من نصف العجز في إجمالي ميزان المدفوعات الأمريكي ، وتنفق الولايات المتحدة أكثر من مليون دولار أسبوعيًا على واردات النفط من الخارج ، وتصل الفاتورة اليابانية لاستيراد النفط إلى نحو نفس المبلغ. ويتوقع أن تصل الصين - مع التوسع في الطلب على السيارات - إلى نفس المستوى في بدايات القرن الواحد والعشرين. ونفس الأرقام تخص أوروبا الغربية. وينسج علماء الاقتصاد سيناريوهات حول أن الزيادة في أسعار النفط تسبب التضخم وارتفاع معدلات الفائدة وتقلل الاستثمار في الصناعة الجديدة مما يؤدي إلى انخفاض فرص العمل والركود الاقتصادي. قد لا يحدث ذلك، لكنه أثر محتمل لإدماننا للنفط ، يدفع النفط الدول إلى سياسات قد تراها في أحوال أخرى غير أخلاقية أو متهورة ، خذ مثلاً لذلك التعليق التالي (١٩٩٠) لكاتب الأعمدة المشهور جاك أندرسون الذي ينشر في عدد من الصحف والمجلات، وهو يعبر عن رأي واسع الانتشار: "رغم أن الفكرة قد تبدو غير مقبولة شعبياً، فإن الولايات المتحدة يجب أن تواصل القيام بدور رجل الشرطة العالمي ، ولأسباب أنانية بحتة، يحتاج الأمريكيون إلى ما يملكه العالم ، والنفط هو الحاجة البارزة". وتبعاً لبوب دول رئيس الأقلية في مجلس الشيوخ حينئذ، فإنه تم شن حرب الخليج الفارسي - التي عرّضت حياة أكثر من ٢٠٠ ألف شاب وشابة أمريكيين للخطر "لهدف واحد فقط هو ال ن ف ط".

وكما أقول عادة فإن التكلفة الاسمية لبرميل النفط ٢٠ دولارًا تقريبًا، بينما الاحتياطيات البترولية العالمية الموثقة أو التي "ثبت" وجودها تصل إلى تريليون برميل تقريبًا ، وعشرين تريليون دولار تمثل أربعة أضعاف الدين القومي الأمريكي، وهو الأعلى عالمياً. إنه لذهب أسود حقاً.

يصل الإنتاج العالمي للبترول نحو ٢٠ بليون برميل سنوياً، وهكذا فإننا نستخدم نحو ٢ في المائة من الاحتياطيات التي ثبت وجودها ، لعلك تظن أن تلك

الاحتياطات ستنفذ قريباً وأن ذلك قد يحدث خلال الأعوام الخمسين المقبلة. لكننا ما زلنا نكتشف احتياطات جديدة، وثبت أن التنبؤات السابقة حول أن الاحتياطات ستنفذ في تاريخ كذا أو كذا لا أساس لها. توجد كميات محدودة من النفط والغاز والفحم في العالم، هذا حقيقي ، لمجرد أنه كان هناك الكثير من تلك الكائنات القديمة التي قدمت أجسامها لراحتنا ورفاهيتنا. لكن يبدو من غير المرجح أن الوقود الأحفوري سينفذ قريباً ، وتتمثل المشكلة الوحيدة في أن تكلفة البحث عن احتياطات جديدة لم يسبق اكتشافها ترتفع أكثر فأكثر، وقد يحدث اختلال في الاقتصاد العالمي إذا تسارعت التغيرات في أسعار النفط، وقد تشن الدول حروباً للحصول على تلك المادة ، وهناك أيضاً بالطبع التكلفة البيئية.

لا يتم قياس الثمن الذي ندفعه بسبب الوقود الأحفوري بالدولارات فقط. لوثة "الطواحين الشيطانية" في إنجلترا في السنوات الأولى من الثورة الصناعية الهواء وسببت أمراضاً تنفسية وبائية ، وكان الضباب "الكثيف" في لندن - الذي أُلغى في الأعمال الدرامية عن هولموز وواطسون وعن جيكل وهايد وجاك وريبير وضحاياه - تلوثاً منزلياً وصناعياً ناجماً بشكل أساسي من حرق الفحم. وتضيق السيارات في عصرنا أدخنتها من العادم لتمتلئ مدننا المبتلاة بمزيج من الضباب والدخان - الذي يؤثر على الصحة والسعادة والقدرة الإنتاجية لكل المشاركين في الملوثات. ونعرف أيضاً المطر الحمضي والاضطراب الإيكولوجي^(*) الناجمين عن عمليات حرق النفط ، لكن الرأي الشائع ظل يقول إن العقوبات الواقعة على الصحة والبيئة تفوقها بكثير الفوائد التي نحصل عليها من الوقود الأحفوري.

والآن رغم ذلك أصبحت حكومات وشعوب الأرض تعي إضافة لذلك بالتدريج أثراً آخر خطيراً لحرق الوقود الأحفوري: إذا أحرقت قطعة من الفحم أو جالونا من البترول أو قدماً مكعباً من الغاز الطبيعي، فإنني أحدث اتحاداً بين الكربون في الوقود الأحفوري والأكسجين في الهواء. وينتج عن هذا التفاعل طاقة تم تخزينها

(*) الناشئ عن أضرار الحضارة الحديثة على البيئة. والإيكولوجيا فرع من علم الأحياء يدرس العلاقة بين الكائنات الحية وبيئتها. (المترجم)

فى مكان أمين ربما لمدة ٢٠٠ مليون سنة، ولكن عند اتحاد ذرة كربون C بجزىء أكسجين O₂ فإننى أصطنع أيضا جزىء ثانى أكسيد الكربون CO₂



ما الذى يحدد درجة الحرارة المتوسطة للأرض، أى الطقس الكوكبى؟ يمكن إهمال كمية الحرارة التى تنفذ ضعيفة من جوف الأرض إلى سطحها مقارنة بكمية الحرارة الساقطة على سطح الأرض من الشمس. وفى الواقع إذا انطفت الشمس ستخفض درجة حرارة الأرض بمقدار كبير جدا حتى أن الهواء سيصبح جسما صلبا متجمدا، ويصبح الكوكب مغطى بطبقة من جليد النتروجين والأكسجين بسمك ١٠ أمتار (٣٠ قدم)، حسنا، نعرف كمية ضوء الشمس الساقط على الأرض والذى يدفعها. ألا يمكننا حساب قيمة درجة الحرارة المتوسطة التى يجب أن يكون عليها سطح الأرض؟ هذا حساب بسيط تتم دراسته فى مناهج علم الفلك الأولى وأساسيات علم الأرصاد الجوية، وهو مثال آخر على قوة وجمال الحساب الكمي.

يجب أن تتساوى فى المتوسط كمية ضوء الشمس الذى تمتصها الأرض مع كمية الطاقة التى تشع عائدة من جديد إلى الفضاء. لا ننظر عادة إلى الأرض من زاوية أنها تشع فى الفضاء، وإذا طرنا بعيدا عنها ليلا لن نراها تتألق فى الظلمة (باستثناء المدن). لكن ذلك يعود فقط إلى أننا ننظر بالضوء المرئى فقط، وهو النوع الذى تعتبر أعيننا حساسة بالنسبة له. إذا كان لنا أن ننظر بالأشعة تحت الحمراء وهى ما يطلق عليها الجزء الحرارى فى الطيف للأشعة تحت الحمراء - وهو مثلا أطول ٢٠ مرة من الطول الموجى للضوء الأزرق - يمكننا رؤية الأرض تتألق بضوء الأشعة تحت الحمراء البارد الغريب، ويشد تألقها أكثر فى الصحارى الإفريقية عنه فى القطب الجنوبي، ويكون أشد فى النهار عنه فى الليل، وليس ذلك ضوء شمس ينعكس من الأرض، لكنها حرارة الكوكب الخاصة. وكلما زادت كمية الطاقة الآتية من الشمس زاد إشعاع الأرض العائد إلى الفضاء. وكلما ارتفعت حرارة الأرض كلما زاد تألقها فى الظلام.

وتعتمد عملية تدفئة الأرض على مدى تألق الشمس ومدى قدرة الأرض على عكس الحرارة. (ومهما كان ما يتم انعكاسه من جديد إلى الفضاء فإنه يتم امتصاصه بواسطة الأرض والسحب والهواء، فإذا كانت الأرض مصقلة تماما

وتعكس كل ما يرد إليها من حرارة لن يدفئها أبداً ضوء الشمس الساقط عليها). وضوء الشمس المنعكس يكون بشكل رئيسي بالطبع، في نطاق جزء مرئي في الطيف ، وهكذا يمكنك وضع الدخل (الذي يعتمد على كمية ضوء الشمس الذي تمتصه الأرض) مساوياً للخروج (الذي يعتمد على درجة حرارة الأرض) وقارن طرفي المعادلة لتحصل على درجة الحرارة المتوقعة للأرض. ما أسهل ذلك! ليس هناك ما هو أكثر سهولة! لقد حسبت درجة الحرارة، فما هي النتيجة؟

تقول لنا حساباتنا إن متوسط درجة حرارة الأرض يجب أن يكون ٢٠ درجة حرارة مئوية تقريباً تحت درجة حرارة تجمد الماء. وهذا يعنى أن المحيطات كان يجب أن تكون كتلا من الثلج وأن نكون نحن جميعاً جثثاً متجمدة ، كان يجب أن تكون الأرض غير مسكونة تقريباً بكل أشكال الحياة. ما الخطأ في الحساب؟ هل ارتكبنا خطأ؟

لم نقع بالضبط في خطأ حسابي، لكننا فقط نسينا شيئاً : تأثير الصوبة ، لقد اعتبرنا ببساطة أن ليس للأرض غلاف جوى. فبينما يعتبر الهواء شفافاً تماماً بالنسبة للموجات ذات الأطوال العادية (عدا بعض الأماكن مثل دينفير ولوس أنجلوس)، فإنه يكون معتماً أكثر بكثير بالنسبة للأشعة الحرارية تحت الحمراء في الطيف، حيث تميل الأرض لأن تشع إلى الفضاء ، ويؤدي ذلك إلى كل الاختلافات الموجودة في العالم. بل ويحدث أن بعض الغازات في الهواء حولنا - ثاني أكسيد الكربون وبخار الماء وبعض أكاسيد النيتروجين وغاز الميثان والكلوروفلوروكربون - تمتص الأشعة تحت الحمراء بشدة وتحتفظ بها، رغم أنها شفافة تماماً بالنسبة للضوء المرئي. إذا وضعت طبقة من هذه المواد فوق سطح الأرض، سيظل ضوء الشمس يخرقها. لكن عندما يحاول السطح إعادة الإشعاع إلى الفضاء، ستكون هناك إعاقة في هذا المسار بسبب ذلك الدثار من الأشعة تحت الحمراء التي تمتصها الغازات، حيث تكون شفافة بالنسبة للضوء المرئي وشبه معتمة بالنسبة للأشعة تحت الحمراء. وتكون النتيجة تدفئة الأرض إلى حد ما لتصل إلى إحداث توازن بين ضوء الشمس الواصل إليها وخروج الأشعة تحت الحمراء منها. إذا أردت أن تحسب إلى أي مدى تكون تلك الغازات معتمة بالنسبة

(*) تحت الصفر المئوي (المترجم) .

للأشعة تحت الحمراء، وكمية حرارة جسم الأرض التى تحصرها تلك الغازات، ستحصل على الإجابة الصحيحة ، ستجد أنه فى المتوسط - أخذ المتوسط خلال المواسم وخطوط العرض وأوقات اليوم - ستكون درجة حرارة الأرض نحو ١٣ درجة مئوية فوق الصفر. وهذا هو سبب عدم تجمد المحيطات، وسبب أن الطقس ملائم لجنسنا البشرى وحضارتنا.

وهكذا تعتمد حياتنا على التوازن الدقيق لغازات غير مرئية والتى تعتبر مركبات ضئيلة فى الغلاف الجوى للأرض ، وقليل من التصوب شىء جيد، لكنك إذا أضفت مزيداً من غازات التصوب - كما ظللنا نفعل منذ بداية الثورة الصناعية - سيحدث امتصاص لمزيد من الأشعة تحت الحمراء. ويصبح ذلك الدثار أكثر سمكا، وتزداد الأرض دفئاً.

يبدو كل ذلك بالنسبة للجمهور ولصانعى السياسات على درجة من التجريد - غازات غير مرئية ودثار الأشعة تحت الحمراء وحسابات علماء الفيزياء. وإذا كان مطلوباً اتخاذ قرارات صعبة فيما يخص إنفاق المال، ألا نكون فى حاجة إلى قليل من الأدلة الإضافية التى تثبت وجود ظاهرة التصوب حقاً وأنها إذا زادت أكثر من اللازم فإن ذلك قد يمثل خطراً ؟ لقد أمدتنا الطبيعة بكرم - فى معالم أقرب الكواكب - بتذكارات تحذيرى . فكوكب الزهرة أقرب قليلاً إلى الشمس مقارنة بالأرض، لكن سحبه الدائمة على درجة من التآلق تجعل الكوكب يمتص فعليا ضوء الشمس بمقدار أقل من الأرض ، وإذا صرفنا النظر عن ظاهرة التصوب فإن سطحه يجب أن يكون أكثر برودة من سطح الأرض. وله حجم وكتلة يقتربان تماماً من حجم وكتلة الأرض، ومن كل ذلك قد نطن بسذاجة أن له بيئة ملائمة كما فى الأرض مناسبة تماماً للسياحة. ومع ذلك إذا كان عليك إرسال مركبة فضائية تخرق هذه السحب - وتلك السحب، بالمناسبة، مكونة بشكل رئيسى من حامض الكبريتيك - كما فعل الاتحاد السوفييتى فى سلسلة سفنه الفضائية الاستكشافية فينيرا الرائدة، ستكتشف وجود غلاف جوى بالغ الكثافة مكون بشكل أساسى من ثانى أكسيد الكربون ذى ضغط على السطح ٩٠ ضعفاً مقارنة بنظيره على الأرض. إذا وضعت الآن ترمومترا، كما فعلت المركبة الفضائية فينيرا، ستجد أن درجة الحرارة

تصل إلى نحو ٤٧٠ درجة مئوية (نحو ٩٠٠ درجة فهرنهايت) ، على درجة من السخونة تكفى لإذابة القصدير والرصاص. والسبب الأساسي لارتفاع درجات حرارة السطح – الذى يكون أكثر سخونة من أشد الأفران المنزلية سخونة – هو الغلاف الجوى ذو الكثافة العالية من ثانى أكسيد الكربون. (هناك أيضًا كميات صغيرة من بخار الماء والغازات الأخرى الممتصة للأشعة فوق البنفسجية). يعتبر كوكب الزهرة برهانًا عمليًا على أن زيادة الوفرة فى غازات التصوب قد يكون لها تأثيرات ضارة ، وإنها للحظة مناسبة لأن نشير إلى الضيوف ذوى الدوافع الأيديولوجية فى عروض الحوار الإذاعية الذين يصرون على أن ظاهرة التصوب مجرد "خدعة".

وحيث أن تعداد البشر على الأرض لا يكف عن الزيادة، وحيث أن قوانا التقنية ما زالت تنمو متضخمة، فإننا نضخ المزيد والمزيد من الغازات الممتصة للأشعة تحت الحمراء فى الغلاف الجوى ، وهناك آليات طبيعية لإخراج تلك الغازات من الهواء، لكننا ننتجها بمعدلات تتجاوز آليات التخلص منها. ومن حرق الوقود الأحفورى إلى تدمير الغابات (تتخلص الأشجار من ثانى أكسيد الكربون وتحوله إلى سليولوز الخشب)، نعتبر نحن البشر مسئولين عن إطلاق نحو ٧ بلايين طن من ثانى أكسيد الكربون سنويًا فى الهواء.

يمكنك أن تلاحظ فى الشكل فى صفحة ١٥٧ زيادة ثانى أكسيد الكربون مع مرور الزمن فى الغلاف الجوى للأرض ، والبيانات مأخوذة من مرصد مونا لوا الجوى فى هاواي ، وليست هاواي متقدمة جدًا صناعيًا وليست مكانًا تم فيه إحراق الغابات بشكل كثيف (حتى تطلق مزيدًا من ثانى أكسيد الكربون فى الهواء). والزيادة فى ثانى أكسيد الكربون التى تم رصدها بمرور الزمن فوق هاواي تنجم عن أنشطة منتشرة على الأرض كلها ، حيث يتم ببساطة نقل ثانى أكسيد الكربون بواسطة الدوران العام للهواء حول العالم – بما فى ذلك هاواي – ويمكنك ملاحظة أنه يحدث فى كل عام زيادة ونقص فى ثانى أكسيد الكربون، ويعود ذلك إلى الأشجار التى تطرح أوراقها سنويًا، حيث تكون مورقة فى الصيف فتستخلص ثانى أكسيد الكربون من الهواء، لكنها تكون فى الشتاء خالية من الأوراق ولا تفعل ذلك ، ولكن يصاحب هذا التذبذب السنوى اتجاه بعيد المدى للزيادة لا التباس فيه ألبتة، وتخطت نسبة خلط ثانى أكسيد الكربون حاليًا ٣٥٠ جزءًا لكل مليون – وهى

نسبة أعلى من أى نسبة حدثت خلال كل زمن سيطرة الإنسان على الأرض ، وكانت معدلات زيادة الكلوروفلوروكربون هى الأسرع - حيث وصلت إلى نحو ٥ فى المائة سنوياً بسبب النمو العالمى لصناعة الكلوروفلوروكربون - لكنها بدأت الآن فى التضاؤل ^(٩) . ونتشأ الغازات الأخرى المسببة للتصوب، مثل الميثان، بسبب زراعتنا وصناعتنا.

حسناً، إذا عرفنا كمية إنتاج الغازات المسببة للتصوب فى الغلاف الجوى وطالبنا بحقنا فى فهم عدم الإنفاذية الناتجة بالنسبة للأشعة تحت الحمراء، ألا يمكننا فى هذه الحالة حساب الزيادة فى درجة الحرارة خلال العقود الأخيرة نتيجة تنامى ثانى أكسيد الكربون والغازات الأخرى؟ نعم يمكننا ذلك، لكن علينا أن نتصف بالحرص ، يجب أن نتذكر أن للشمس دورة تستغرق ١١ عاماً، وأن كمية الطاقة التى تطلقها تتغير قليلاً خلال هذه الدورة ، ويجب أن نضع فى اعتبارنا أن البراكين تفجر قممها بين الحين والآخر وتطلق قطرات دقيقة من حامض الكبريتيك فى الستراتوسفير، فتكون النتيجة انعكاس مزيد من ضوء الشمس وعودته إلى الفضاء وتبريد الأرض إلى حد ما. ويمكن لانفجار ضخّم - وهو ما تم حسابه - أن يخفض من درجة حرارة العالم بمقدار يقترب من درجة مئوية واحدة لعدة سنوات. يجب أن نضع فى اعتبارنا أنه فى الطبقات السفلى من الغلاف الجوى يوجد حجاب من جزيئات دقيقة محتوية على الكبريت ناتجة عن التلوث من المداخن الصناعية الذى مهما كانت أضراره على البشر على سطح الأرض فإنه يؤدى أيضاً إلى تبريد كوكب الأرض (مثله مثل الغبار المعدنى الذى تحمله الرياح من التربة المضطربة حيث يكون له نفس التأثير) فإذا أدخلت فى تقديراتك تلك العوامل والكثير غيرها، وإذا أجدت العمل وهو ما يستطيعه علماء المناخ حالياً، ستصل إلى النتيجة التالية : خلال القرن العشرين - ونتيجة لحرق الوقود الأحفورى - كان لابد أن يرتفع متوسط درجة حرارة الأرض بأجزاء عشرية من درجة الحرارة المئوية.

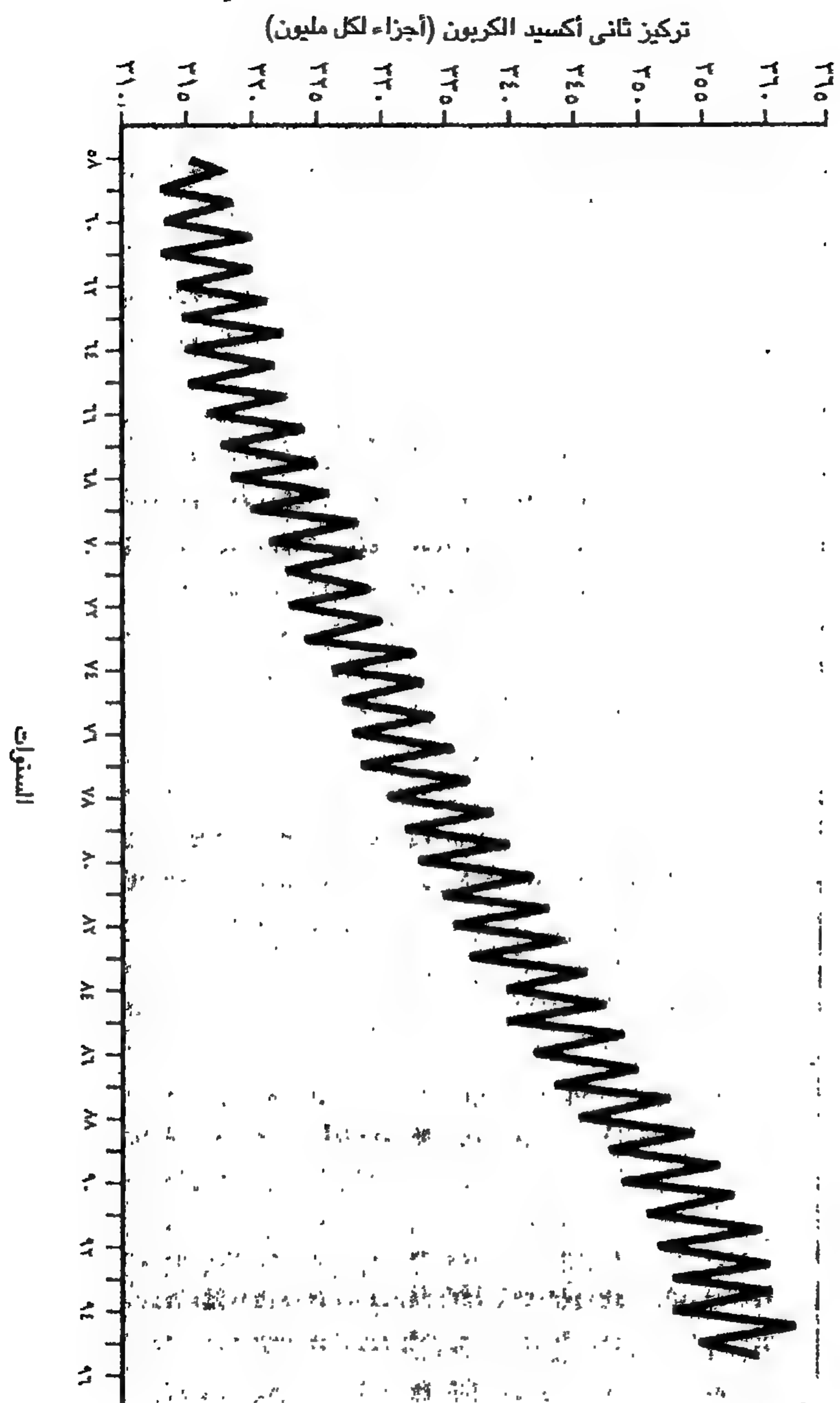
من الطبيعى أن ترغب فى مقارنة هذا التنبؤ بالحقائق ، هل ارتفعت درجة حرارة الأرض من حيث المبدأ، خاصة بهذا المقدار، خلال القرن العشرين؟ هنا أيضاً

(٩) مرة أخرى لأن الكلوروفلوروكربون يحدث تآكلاً فى طبقة الأوزون ، ويشارك فى إحداث ظاهرة الصوبية العالمية، وكان هناك بعض الخلط بين هاتين النتيجةين البيئيتين المختلفتين تماماً .

يجب أن تكون حريصا. يجب الاستعانة بقياسات درجات الحرارة بعيدًا عن المدن، لأن المدن بما فيها من صناعات وافتقارها النسبي للمزروعات، تعتبر أكثر سخونة واقعيًا من المناطق الريفية المجاورة لها ، وعليك بالحصول بشكل صحيح على متوسط القياسات التي يتم أخذها على خطوط عرض مختلفة، ومواسم وأوقات يومية مختلفة ، ويجب أن تتوقع اختلافًا بين القياسات على الأرض والقياسات على الماء ، ولكن بعد أن تنجز كل ذلك، ستظهر النتائج متسقة مع التوقعات النظرية.

لقد ارتفعت درجة حرارة الأرض قليلاً، بمقدار أقل من درجة مئوية، خلال القرن العشرين. هناك تذبذب كبير في المنحنيات، اضطراب في الإشارة الطقسية الكوكبية ، كانت السنوات العشر الأكثر سخونة منذ ١٨٦٠ قد حدثت في الثمانينيات وبداية التسعينيات ، رغم تبريد الأرض الناجم عن انفجار بركان مونت بيناتوبو في الفلبين مطلقاً من ٢٠ إلى ٣٠ ميجابا من ثاني أكسيد الكبريت وأيروسولات في جو الأرض. وأحاطت هذه المواد تمامًا بالأرض خلال ثلاثة أشهر ، وخلال شهرين فقط كانت قد غطت نحو خمسي سطح الأرض ، وكان ذلك أكثر الانفجارات البركانية عنفاً في هذا القرن (يأتي في الدرجة الثانية إذا قورن فقط بانفجار مونت كاتماي في آلاسكا في ١٩١٢) . وإذا كانت الحسابات مضبوطة ولم تحدث انفجارات بركانية أكثر ضخامة في المستقبل القريب، سيواصل الاتجاه إلى الارتفاع إلى تأكيد نفسه. وهذا ما حدث فعلاً: كان ١٩٩٥ كحد أعلى هو العام الأكثر سخونة الذي تم تسجيله.

هناك طريقة أخرى للتأكد مما إذا كان علماء المناخ خبراء في مجالهم وهي أن تطلب منهم عمل تنبؤات باستعادة الأحداث ، مرت الأرض بعصور جليدية ، تتوافر طرق لقياس مدى تذبذب درجة الحرارة في الماضي ، فهل يمكنهم التنبؤ بالمستقبل predict أو من الأفضل القول التنبؤ بالماضي postdict فيما يتعلق بطقس مضي؟



تم التوصل إلى نتائج مهمة عن تاريخ مناخ الأرض بدراسة قلب قطع الجليد المستخرجة من القمم الجليدية في جرينلاند والقطب الجنوبي. استعيرت تقنية الثقب المستخدمة مباشرة من صناعة البترول، وبهذه الطريقة تمكن المسئولون عن استخراج الوقود الأحفوري من الأرض من اكتشاف مخاطر هذه العملية ، وتشير التسجيلات الفيزيائية والكيميائية لقلب قطع الجليد إلى أن درجة حرارة الأرض ووجود ثاني أكسيد الكربون في غلافها الجوى يسيران جنباً إلى جنب، فكلما زاد ثاني أكسيد الكربون ارتفعت حرارة الأرض ، وفي نفس الإطار تم استخدام نماذج كمبيوترية لفهم اتجاهات درجة الحرارة الكوكبية خلال العقود القليلة الماضية، وتنبأت بدقة بالماضى مشيرة إلى وجود مناخ عصر جليدى من تذبذب غازات التصوب فى الأزمنة القديمة. (لا يدعى أحد بالطبع أنه كانت هناك حضارات سابقة على العصر الجليدى استخدمت سيارات تسير بوقود غير مناسب وأطلقت كميات ضخمة من غازات التصوب فى الغلاف الجوى، فبعض التغير فى كمية ثاني أكسيد الكربون يحدث بشكل طبيعى).

خلال بضع مئات الآلاف القليلة من السنوات الماضية، دخلت الأرض عدة عصور جليدية وخرجت منها ، ومنذ عشرين ألف سنة مضت كانت مدينة شيكاغو تحت ميل من الجليد ، ونحن الآن بين عصور جليدية، وهو ما يطلق عليه فترة بيجليدية^(*) Interglacial. والاختلاف النموذجى فى درجة الحرارة لكل العالم بين عصر جليدى وفترة بيجليدية يتراوح فقط بين ٣° و ٦° مئوية (ما يعادل اختلافاً فى درجة الحرارة بين ٥° و ١١° درجة فهرنهايت). وذلك يطلق فوراً أجراس الإنذار : إن تغيراً مقداره بضع درجات قليلة فقط قد يكون أمراً بالغ الخطورة.

بتلك الخبرة فى جعبتهم، وبهذه المعايير لقدراتهم، يمكن لعلماء المناخ أن يحاولوا الآن فقط التنبؤ بما قد يكون عليه مناخ الأرض فى المستقبل إذا استمر حرقنا للوقود الأحفوري، وإذا ظللنا نطلق غازات الصوبة إلى الغلاف الجوى فى تنافس مسعور. استخدمت مجموعات علمية مختلفة _ النظير المعاصر لكاهنة ديلفى _ نماذج كمبيوترية لحساب ما يمكن أن تكون عليه الزيادة فى درجة

(*) بين دورين جليديين (المترجم) .

حرارة الأرض، متنبئين بما ستكون عليه الزيادة في درجة الحرارة إذا حدث مثلاً أن تضاعفت كمية ثاني أكسيد الكربون في الغلاف الجوي، وهو ما سيحدث مع نهاية القرن الواحد والعشرين (مع استمرار المعدل الراهن لحرق الوقود الأحفوري). والكهان الرئيسيين هم المختبر الجيوفيزيائي لديناميكا الموائع التابع للإدارة القومية للمحيطات والمناخ NOAA في برينسيتون، ومعهد جودارد لبحوث الفضاء التابع لناسا في نيويورك، والمركز القومي للأبحاث الجوية في بولدير في كولورادو، وقسم الطاقة في مختبر لورانس ليفرمور القومي في كاليفورنيا، جامعة أوريغون الرسمية، مركز هادلي للتنبؤ المناخى والأبحاث في بريطانيا، ومعهد ماكس بلانك للأرصاد الجوية في هامبورج. وتنبأت كلها بأن متوسط ارتفاع درجة الحرارة سيكون بين ١° و ٤° درجات مئوية (ضعف ذلك بدرجات الفهرنهايت).

وهذا أسرع من أى تغير فى المناخ تم رصده منذ بداية الحضارة. وفى الحد الأدنى قد تستطيع المجتمعات الصناعية المتقدمة مع شىء من الكفاح التآلف مع تغير الأحوال. وفى الحد الأقصى قد تحدث تغيرات خطيرة فى الخريطة المناخية للأرض وتكون النتائج كارثية لكل من البلدان الغنية والفقيرة. وفوق غالبية كوكب الأرض حاصرنا الغابات والحياة البرية فى مناطق معزولة غير متجاورة. ولن يُتاح لتلك المناطق أن تتسع مع التغيرات المناخية، وسوف يحدث تسارع فى انقراض الأجناس، وسوف يصبح من الضرورى إجراء عمليات نقل ضخمة للمحاصيل والبشر.

ولم تعلن أى من الجماعات العلمية أن مضاعفة محتوى الغلاف الجوى من ثانى أكسيد الكربون سيحدث تبريداً للأرض. ولم يعلن أحد أن ذلك سيرفع حرارة الأرض عشرات أو مئات الدرجات، ولدينا فرصة كان كثير من اليونانيين القدامى محرومين منها - يمكننا استشارة عدد من الكاهنات ومقارنة التنبؤات بعضها ببعض، وعندما نفعل ذلك سيقولون نفس الشىء بطريقة أو بأخرى. وتتفق الأجابات جيداً مع معظم نبوءات الكهان القدامى عن الموضوع - بما فى ذلك عالم الكيمياء السويدى الحاصل على جائزة نوبل سفانت أرهينيوس، الذى قدّم فى مطلع القرن تقريباً تنبؤاً مماثلاً بعد أن استخدم بالطبع معلومات أقل دقة بكثير

حول امتصاص الأشعة تحت الحمراء لثاني أكسيد الكربون وخواص الغلاف الجوى للأرض. وتتنبأ الفيزياء المستخدمة بواسطة كل تلك الجماعات بشكل مضبوط بدرجة الحرارة الراهنة للأرض، إضافة إلى ظواهر التصوب على الكواكب الأخرى مثل الزهرة، وبالطبع قد يكون هناك بعض الأخطاء البسيطة يمكن أن يغفل عنها أى شخص، لكن بالتأكيد تستحق تلك التنبؤات المنسجمة أن تؤخذ بشكل جاد تمامًا.

هناك إشارات مقلقة أخرى، توصل باحثون نرويجيون إلى نقصان فى امتداد الغطاء الجليدى للقطب الشمالى منذ ١٩٧٨، وكانت تصدعات هائلة فى لوح "ووردى الجليدى فى قارة أنتاركتيكا" قد ظهرت واضحة خلال نفس الفترة. وفى يناير ١٩٩٥ انحدرت قطعة مساحتها ٤٢٠٠ كيلو متر مربع من رف لارسين الجليدى إلى محيط القطب الجنوبى، وكان هناك تراجع ملحوظ فى الأنهار الجليدية فى كل مكان على الأرض، وتشهد أجزاء كثيرة من العالم تطرفات فى الطقس، ويواصل مستوى البحر الارتفاع، ولا يعتبر أى من الظاهرتين فى حد ذاته برهانا حاسماً بأن أنشطة مدنيّتنا هى المسؤولة أكثر من التقلبات الطبيعية، لكنهما معا يثيران انزعاجاً بالغاً.

يزداد عدد خبراء المناخ الذين يتوصلون حديثاً إلى أنه تم العثور على "بصمة" من صنع البشر بالنسبة لارتفاع حرارة كوكب الأرض، وأشار ممثلون لعدد ٢٥٠٠٠ عالم ينتمون لمجلس التبادل الحكومى فى مجال التغير المناخى - بعد أبحاث مضنية - فى عام ١٩٩٥ إلى أن "توازن الأدلة يشير إلى وجود تأثير بشرى يمكن تمييزه على المناخ". وبينما لم يصبح بعد "غير مشكوك فيه" كما يقول مايكل ماكراكين (مدير برنامج أبحاث التغير الكوكبى الأمريكى) فإن الدليل "فى طريقه لأن يصير حاسماً تماماً". وارتفاع الحرارة الملحوظ "ليس من المرجح أنه ناجم عن التقلبات الطبيعية" كما يقول توماس كارل من مركز البيانات المناخية القومى الأمريكى. ويضيف "هناك احتمال ما بين ٩٠ إلى ٩٥ فى المائة أنه لم يتم خداعنا".

(٥) قارة غير مأهولة حول القطب الجنوبى (المترجم).

فى الرسم التخطيطى التالى منظور بالغ الاتساع. ففى أقصى اليسار- وكان ذلك منذ ١٥٠ ألف سنة مضت - كانت لدينا الفتوس الحجرية وكنا سعداء حقاً بأنفسنا لأن لدينا ناراً منزلية ، وتغيرت درجة حرارة كوكب الأرض بمرور الزمن ما بين العصور الجليدية الموعلة فى القدم والفترات بين الجليدية. كانت السعة الكلية للتذبذب - من الأشد برودة إلى الأكثر سخونة - نحو ٥ درجات مئوية (نحو ١٠ درجات فهرنهايت)؛ لذلك فإن المنحنى يتذبذب على مساره، وبعد نهاية العصر الجليدى الأخير، أصبح لدينا أقواس وأسهم، حيوانات مستأنسة، ثم بداية الزراعة، الحياة المستقرة، الأسلحة المعدنية، المدن، قوات الشرطة، الضرائب، النمو السكانى الأسى، الثورة الصناعية، والأسلحة النووية (وكل هذا الجزء الأخير ظهر بالضبط عند الطرف الأقصى من المنحنى غير المتقطع) ، ثم نأتى إلى الوضع الراهن، نهاية المنحنى غير المتقطع ، والخطوط المنقطة تشير إلى التغيرات الأساسية التى سنواجهها بسبب ظاهرة التصوب. وهذا الشكل يجعل من الواضح تماماً أن درجات الحرارة الراهنة (أو التى قد تستمر وقتاً قصيراً إذا استمرت الاتجاهات الحالية) ليست الأكثر سخونة فى "القرن" الماضى، لكنها الأكثر سخونة منذ ١٥٠ ألف سنة. وهذا مقياس آخر لاتساع التغيرات الكوكبية التى نتسبب فيها نحن البشر، وطبيعتها غير المسبوقة.

لا تؤدى ظاهرة الصوية الكوكبية فى حد ذاتها إلى طقس سيئ ، لكنها ترفع من فرص حدوث طقس سيئ . ولا يستلزم الطقس السيئ ظاهرة تصوب كوكبية، لكن كل النماذج الكمبيوترية تشير إلى أن ظاهرة التصوب تصاحبها حتما زيادة ملحوظة فى سوء الأحوال الجوية : جفاف قاس على الأرض، منظومات عاصفة شديدة وفيضانات بالقرب من السواحل ، ومزيد من السخونة ومزيد من البرودة فى الطقس المحلى، كل ذلك تتحكم فيه زيادة متواضعة نسبياً فى متوسط درجة الحرارة الكوكبية ، ويوضح ذلك كيف أن الطقس بالغ البرودة الذى يحدث مثلاً فى يناير فى ديترويت لا يعبر عن تفنيد ظاهرة التصوب الكوكبية كما تزعم بعض الصفحات الافتتاحية فى الصحف ، لكن تكاليف الطقس السيئ قد تكون بالغة الارتفاع ، ولنأخذ مثلاً واحداً، عانت صناعة التأمين الأمريكية وحدها

خسارة صافية تصل إلى نحو ٥٠ بليون دولار في أعقاب إعصار واحد (أندرو) في ١٩٩٢- وهذا جزء فقط من مجمل خسائر ١٩٩٢ - تكلف الكوارث الطبيعية الولايات المتحدة أكثر من ١٠٠ بليون دولار سنوياً. والإجمالي العالمي أكبر بكثير. وتؤثر التغيرات المناخية أيضاً على الحيوانات والميكروبات الناقلة للمرض. ويُشتبه في أن الانتشار الحديث للكوليرا والمالاريا والحمى الصفراء وحمى الضنك ومتلازمة فيروس هانتا (*) الرئوية، له علاقة بتغيرات المناخ. ويشير تقييم طبي حديث إلى أن زيادة المساحة المشغولة على الأرض بالمناطق الاستوائية وشبه الاستوائية، وما ينتج عنه من تضخم في تعداد البعوض الحامل للملاريا، سيؤدي في نهاية القرن الواحد والعشرين إلى حالات إضافية للإصابة بالملاريا سنوياً تتراوح بين ٥٠ و ٨٠ مليون حالة ، فإذا لم يتم اتخاذ أي إجراء، يقول تقرير علمي صادر عن الأمم المتحدة ١٩٩٦ "إذا كان من المرجح حدوث تأثيرات غير ملائمة على الصحة العامة بسبب التغير المناخي، لن يكون لدينا الخيار العادي في البحث عن أدلة تجريبية محددة قبل اتخاذ الإجراءات. وستكون طريقة انتظار لنرى غير حكيمة في أحسن الأحوال وسلوكاً أحمق في أسوأ الأحوال".

ويعتمد التنبؤ المناخي في القرن الواحد والعشرين على ما إذا كنا سنطلق غازات التصوب في الجو بالمعدل الراهن أو بمعدل متسارع أو بمعدل متناقص. كلما زادت غازات التصوب أصبح المناخ أكثر سخونة، وحتى لو افترضنا زيادات متوسطة، فمن الواضح أن درجة الحرارة سترتفع زيادة خطيرة. لكن تلك الزيادات تعتبر متوسطات عالمية، فبعض الأماكن ستكون أكثر برودة بكثير وغيرها سيكون أكثر دفئاً ، لكن التنبؤ يشير إلى زيادة في مساحة الجفاف. وفي كثير من النماذج تشير التنبؤات إلى أن مساحات ضخمة منتجة للغذاء في العالم في جنوب وجنوب شرق آسيا وفي أمريكا اللاتينية وما تحت الصحراء الأفريقية ستصبح أكثر حرارة وأكثر جفافاً.

(*) أحد أنواع الفيروسات التي تسبب أمراضاً تنفسية حادة ، تم اكتشافه للمرة الأولى بالقرب من نهر هانتان في كوريا (المترجم) .

قد جنى بعض البلدان المصدرة للمنتجات الزراعية على خطوط العرض المرتفعة والمتوسطة (الولايات المتحدة وكندا وأستراليا، مثلاً) فى البداية فوائد جمة حيث ترتفع صادراتها إلى الذروة ، وستتأثر البلدان الفقيرة ، بشكل حاد، ويسبب ذلك ولأسباب أخرى، سيزداد التفاوت فى القرن الثانى والعشرين بشدة بين الأغنياء والفقراء ، وسيمثل ملايين من البشر وأطفالهم الذين يموتون جوعاً، الذين ليس لديهم ما يفقدونه، مشاكل عملية وخطيرة بالنسبة للأغنياء ، كما يعلمنا تاريخ الثورة.

ويتوقع أن تبدأ خطورة الأزمة الزراعية الناجمة عن الجفاف فى حوالى ٢٠٥٠. ويرى بعض العلماء أن احتمال حدوث انهيار زراعى عالمى شديد بسبب ظاهرة التصوب فى ٢٠٥٠ احتمال ضعيف ، قد يصل إلى ١٠ فى المائة فقط. لكن بالطبع كلما طال انتظارنا زادت تلك الاحتمالات. قد يبدو للوهلة الأولى أن بلدانا مثل كندا وسيبيريا سوف تتحسن (إذا كانت التربة ملائمة للزراعة)، حتى لو أصبحت خطوط العرض الأكثر انخفاضاً أسوأ ، انتظر ما يكفى من الزمن وسيكون التدهور المناخى على مستوى العالم.

ومع ارتفاع حرارة الارض يزداد مستوى البحار ، ومع نهاية القرن الواحد والعشرين قد يرتفع مستوى البحار عشرات السنتيمترات ، ومن المحتمل أن يصل ذلك الارتفاع إلى متر ، ويعود ذلك جزئياً إلى ذوبان الأنهار الجليدية والجليد القطبى ، وبمرور الزمن سيكون هناك المزيد من ارتفاع مستوى البحار. لا أحد يعرف متى سيحدث ذلك، لكن فى آخر الأمر ستغرق تماماً كثير من الجزر المأهولة فى بولينيزيا وميلانيزيا والمحيط الهندى، تبعاً لمدى بروزها، وتختفى من على وجه الأرض. ومن المنطقى تماماً نشوء تحالف بين دول الجزر الصغيرة للنضال فى مواجهة مزيد من إطلاق غازات التصوب ، وتشير التنبؤات أيضاً إلى كوارث بالنسبة لفينيسيا ويانكوك والإسكندرية ونيو أورليانز وميامى ونيويورك، وبشكل أكثر عمومية بالنسبة للمناطق الأكثر كثافة فى السكان على شواطئ أنهار المسيسيبي واليانجتز والنهر الأصفر (*) والراين والرون ونهر بو(**) والنيل ونهر

(*) يسمى أيضاً نهر هوانج وينج من غرب الصين. (المترجم)

(**) فى إيطاليا وينج من الألب. (المترجم)

إندس^(*) ونهر الجانج^(**) والنيجر وميكونج. سوف يشرّد ارتفاع مستوى البحر عشرات الملايين من البشر في بنجلاديش وحدها ، وستكون هناك مشكلة جديدة ضخمة تتمثل في اللاجئين بسبب البيئة ، مع نمو التعداد السكاني ودمار البيئة وتفاقم عجز النظم الاجتماعية في التعامل مع التغيرات السريعة ، وأين المكان المتوقع لجوءهم إليه؟ ويمكن توقع نفس الشيء بالنسبة للصين. فإذا استمر نشاطنا على ما هو عليه حالياً كما هي العادة، ستزداد حرارة الأرض سنوياً، وسوف يستوطن الجفاف والفيضانات، وسيغرق مزيد من المدن والمقاطعات وبلدان كاملة تحت الأمواج – إذا لم يتم اتخاذ إجراءات هندسية مضادة بطولية على المستوى العالمي – وعلى المدى البعيد، قد يظل هناك احتمال لحدوث مزيد من النتائج القاسية، بما في ذلك انهيار اللوح الجليدي غرب القطب الجنوبي، واندفاعه إلى البحر، مما يؤدي إلى ارتفاع عالمي خطير في مستويات البحار، وغرق كل المدن الساحلية على كوكب الأرض تقريباً.

تشير نماذج التصوب إلى تأثيرات مختلفة – فيما يخص درجة الحرارة والجفاف والطقس وارتفاع مستوى البحر مثلاً – تصبح قابلة للملاحظة على مختلف المقاييس الزمنية المختلفة ، من عدة عقود حتى قرن أو قرنين . ويبدو أن تلك النتائج على درجة عالية من السوء وتحتاج تكاليف ضخمة حتى أنه يمكن الإقرار بأنه من الطبيعي وجود جهود جادة للعثور على خطأ ما في هذه القصة. وبعض هذه الجهود لا ينتج إلا من نزعة الشك العلمية النموذجية في مواجهة الأفكار الجديدة، ووراء بعض الجهود الأخرى دافع الربح في الصناعات المتوقعة تأثرها ، وأهم مشكلة هي ما يسمى بالتغذية المرتدة feedback .

هناك تغذية مرتدة إيجابية وأخرى سلبية محتملتان فيما يخص منظومة المناخ العالمي ، والتغذية الإيجابية هي النوع الأكثر خطورة، وها هنا مثال عنها: تزداد درجة الحرارة بمقدار صغير بسبب التصوب ولذلك يذوب بعض الجليد

(*) ينبع من التبت ويمر خلال كشمير وباكستان ويصب في بحر العرب. (المترجم)

(**) في الهند. (المترجم)

القطبي. لكن الجليد القطبي ساطع مقارنة بسطح البحر ، ونتيجة لهذا الذوبان ستكون الأرض عندئذ أكثر قتامة نسبياً، ولأنها أكثر قتامة فإنها تمتص عندئذ مزيداً ولو قليلاً من ضوء الشمس، لذلك تزداد سخونتها نسبياً، فتذيب المزيد من الجليد القطبي، وتستمر هذه العملية ربما بلا عودة. هذا نوع من التغذية المرتدة الإيجابية. وإليك تغذية مرتدة أخرى إيجابية : يؤدي وجود بعض الزيادة في ثاني أكسيد الكربون في الهواء إلى تسخين سطح الأرض قليلاً، بما في ذلك المحيطات. وتبخر المحيطات التي أصبحت أكثر دفئاً زيادة قليلة من بخار الماء مطلقة إياه في الهواء. وبخار الماء هو أيضاً من غازات التصوب، لذلك فإنه يحتفظ بمزيد من الحرارة فترتفع درجة الحرارة أكثر.

عندئذ تحدث التغذية المرتدة السلبية، وهي عمليات تصحيحية. مثال لذلك: عند تسخين الأرض بعض الشيء بإطلاق مزيد من ثاني أكسيد الكربون، مثلاً، في الغلاف الجوي. كما سبق سوف يؤدي ذلك إلى إطلاق مزيد من بخار الماء في الغلاف الجوي، لكن ذلك يسبب مزيداً من السحب. والسحب ساطعة لذلك فإنها تعكس مزيداً من ضوء الشمس في الفضاء، فتقلل من ضوء الشمس الذي يرفع حرارة الأرض. أي أن رفع درجة الحرارة يؤدي أخيراً إلى خفض درجة الحرارة . أو احتمال آخر: ضخم مزيد من ثاني أكسيد الكربون في الهواء. تحب النباتات عموماً ثاني أكسيد الكربون ؛ لذلك فإنها تنمو بشكل أسرع، وخلال نموها الأسرع تحصل على مزيد من ثاني أكسيد الكربون من الهواء - الذي يقلل بدوره من حدوث ظاهرة التصوب. لذلك فإن التغذية المرتدة السلبية تشبه الثرموستات (منظم الحرارة الآلي) فيما يخص المناخ الكوكبي . فإذا كانت لحسن الحظ قوية جداً قد يمثل ذلك تقييداً ذاتياً لتأثيرات الصوبة، ويمكننا التمتع بتurf محاكاة مستمعى كاساندرادون مشاركتهم مصيرهم.

والسؤال هو: مع موازنة كل عمليات التغذية المرتدة الإيجابية والسلبية أين سينتهي الأمر؟ والإجابة هي: لا أحد متأكد بشكل كامل. وتعطى محاولات استعادة الظروف الماضية لحساب التسخين والتبريد الكوكبي خلال العصور الجليدية عند زيادة غازات التصوب وانخفاضها الإجابة الصحيحة ، وبطريقة أخرى، عند معايرة

النماذج الكمبيوترية بفرض وجود اتساق مع البيانات التاريخية، تدخل فى الحسبان أوتوماتيكيا كل آليات التغذية المرتدة، المعروف منها وغير المعروف، فى ماكينة المناخ الطبيعى. لكن من المحتمل أنه مع دخول الأرض فى نطاقات مناخية مجهولة خلال الـ ٢٠٠ ألف سنة الماضية، حدثت عمليات تغذية مرتدة جديدة نجهلها. مثال لذلك: يكون كثير من الميثان محجوزا فى المستنقعات (وهو ما ينتج عنه أحيانا الأضواء الراقصة الجميلة الغريبة التى يطلق عليها "الوهج المستنقعى"). قد تبدأ فى الفوران بمعدلات أسرع مع ارتفاع حرارة الأرض. يدفع الميثان الإضافى الأرض بمزيد من الحرارة وهكذا تظهر تغذية مرتدة إيجابية أخرى.

يشير والاس بروكير من جامعة كولومبيا إلى ارتفاع فى الحرارة بالغ السرعة حدث نحو ١٠ آلاف سنة قبل الميلاد، تماما قبل اكتشاف الزراعة. وكان ارتفاعا بالغاً، كما يعتقد بروكير، حتى أنه يقتضى عدم استقرار فى منظومة المحيط - الطقس المزدوجة، وحتى أنك لو دفعت مناخ الأرض بشدة إلى أحد الاتجاهين أو الآخر، ستعبر تخمنا، سيكون هناك نوع من "الانفجار"، وتفر المنظومة بنفسها إلى حالة استقرار أخرى. ويقترح أننا قد نكون متأرجحين فى مثل هذه الحالة غير المتزنة حتى الآن. ولا يؤدى هذا الاعتبار إلا إلى مزيد من السوء، إلى وضع قد يكون أكثر سوءاً.

وعلى أية حال، من الواضح أنه كلما ازدادت سرعة تغيرات المناخ زادت صعوبة أن تتمكن أى من المنظومات التصحيحية فى تدارك الأمر والعودة إلى الاتزان. ترى هل من المرجح أننا نقصر فى فهم عمليات التغذية المرتدة السيئة أكثر من تلك المريحة. لسنا بالذكاء الكافى الذى يتيح لنا التنبؤ بكل شئ. وهذا واضح تماما. وأرى أنه من غير المرجح أن إجمالى ما نجهل طبيعته جهلا كبيرا ستكون فيه نجاتنا. قد ينجينا. ولكن هل نريد أن نراهن بحياتنا عليه؟

تنعكس قوة وأهمية القضايا البيئية فى لقاءات الجمعيات العلمية المتخصصة. مثال لذلك يعتبر الاتحاد الأمريكى لفيزياء الأرض أكبر منظمة لعلوم الأرض فى العالم. وفى لقاء سنوى أخير (١٩٩٣)، كانت هناك جلسة حول فترات السخونة السابقة فى تاريخ الأرض، مع التركيز على فهم ما ينتج عن ارتفاع

حرارة الكوكب ، وحذر أول بحث قائلًا "لأن اتجاهات التصوب في المستقبل بالغة السرعة، لا نظائر مطابقة لظاهرة التصوب في القرن الواحد والعشرين". كانت هناك أربع جلسات كل منها نصف يوم مكرسة لتآكل الأوزون، وتم تخصيص ثلاث جلسات للدراسات الأكثر عمومية حول مناخات الماضي. بدأ جى. دى. ماهلمان من المختبر الجيوفيزيائي لديناميكا الموائع التابع للإدارة القومية للمحيطات والمناخ NOAA محاضراته بملاحظة أن "اكتشاف الثقوب الكبيرة نسبيًا في الأوزون فوق القطب الجنوبي في الثمانينيات كان حدثًا لم يسبق لأحد التنبؤ به". وعرض بحث مركز بيرد للأبحاث القطبية في جامعة ولاية أوهايو دليلًا من أعماق جليدية في غرب الصين وأنهار جليدية في بيرو على سخونة حديثة للأرض مقارنة بدرجات الحرارة خلال الـ ٥٠٠ سنة الماضية.

مع الوضع في الاعتبار كثرة النزاعات في المجتمع العلمي، من الملاحظ أنه لم يتم تقديم بحث واحد يقول بأن تآكل طبقة الأوزون أو التصوب الكوكبي خدع أو تضليلات، أو أنه كان هناك دائمًا ثقب في طبقة الأوزون فوق القطب الجنوبي، أو أن التصوب الكوكبي سيكون أقل بدرجة ملحوظة عن القيم التي تم تقديرها والتي تتراوح بين ١ و٤ درجات مئوية إذا حدث تضاعف في غزارة ثاني أكسيد الكربون ، وحوافز التوصل إلى أنه لا يوجد تآكل في طبقة الأوزون أو أن التصوب الكوكبي ضئيل حوافز بالغة الضخامة ، حيث يوجد الكثير من الصناعات القوية والغنية والأفراد يمكنهما الاستفادة إذا كانت مثل هذه النزاعات صحيحة فحسب. لكن تبعًا لما تشير إليه اللقاءات العلمية، ربما يكون ذلك أملاً بائسًا.

تسبب حضارتنا التقنية حاليًا خطرًا حقيقيًا على نفسها. وفي العالم أجمع يسبب الوقود الأحفوري في نفس الوقت تدهورًا في الصحة التنفسية وفي حياة الغابات والبحيرات والمناطق الساحلية والمحيطات والمناخ العالمي. ولا يقصد أحد أن يسبب ضررًا، بالتأكيد.

كان زعماء صناعة الوقود الأحفوري يحاولون ببساطة الحصول على أرباح لأنفسهم وللمساهمين، وأن يتيحوا منتجًا يريده الجميع، وأن يدعموا القوة العسكرية والاقتصادية أيا كانت البلدان التي ينتمون إليها ، أما وقائع أن ذلك كان

غير متعمد، وأن المقاصد كانت حميدة، وأن أغلبنا فى العالم المتقدم استفاد من حضارة الوقود الأحفورى، وأن كثيرًا من البلدان وكثيرًا من الأجيال شاركت جميعًا فى المشكلة، فلا تعنى أن هناك وقتًا لتوزيع الاتهامات. ليست هناك دولة بمفردها أو جيل أو صناعة قد أدخلتنا فى هذا المأزق وليس هناك دولة واحدة أو جيل أو صناعة يمكنها إخراجنا بنفسها منه. إذا كان علينا أن نمنع هذا الخطر المناخى من الوصول إلى ما هو أسوأ، يجب علينا جميعًا ببساطة أن نعمل معًا، ولمدى طويل. والعقبة الرئيسية هى بالطبع القصور الذاتى ومقاومة التغيير، على المستوى الضخم فى العالم أجمع بكل تشابكه الصناعى والاقتصادى ومؤسساته السياسية التى تدين بالفضل جميعًا للوقود الأحفورى، عندما يصبح الوقود الأحفورى هو المشكلة. وفى الولايات المتحدة – مع تعاظم الأدلة حول خطورة التصوب على المستوى العالمى – فيبدو أن هناك تضًاؤلاً حول أن تفعل الإرادة السياسية شيئًا ما بالنسبة لهذا الأمر.

الفصل الثاني عشر

النجاة من الفخ

(بصراحة، لن يخاف من يعتقد أن ليس هناك ما سوف يصيبه... الخوف هو ما يشعر به من يعتقدون أن هناك ما يحتمل أن يصيبهم... ولا يصدق الناس ذلك عندما يكونون - أو يظنون أنفسهم - في غمرة ازدهار عظيم، فيكونون بالتالي متغطرسين، مليئين بالازدهار، ومتهورين.... لكن إذا كانوا سيشعرون بكرب الشك، قد تكون هناك فرصة استثنائية ضئيلة للنجاة)

أرسطو (٤٨٣ - ٢٢٣ ق.م.)

(فن الخطابة، ١٣٨٢، ٢٩)

ماذا علينا أن نفعل؟ وحيث أن ثنائي أكسيد الكربون الذي نضخه في الجو حالياً سيستمر فيه حتى عدة عقود، لن تجدى حتى مجهودات التحكم الذاتى التقنية الضخمة لمدة طويلة تصل إلى جيل قادم ، رغم أن مشاركة بعض الغازات الأخرى فى ارتفاع حرارة الكوكب يمكن الإقلال منها بمعدل أسرع، ونحتاج إلى التمييز بين عمليات التسكين قصيرة المدى والطول طويلة المدى، رغم أننا نحتاج إلى كليهما. وعلينا - فيما يبدو - أن نؤسس بالتدريج بأسرع ما يمكن اقتصاد طاقة عالمى جديد لا يسبب كل هذا المقدار الضخم من غازات التصوب والملوثات الأخرى. لكن تحقيق هذا الأمر "بأسرع ما يمكن" يحتاج عقوداً على

الأقل، ويجب أن نقلل الضرر في الوقت الحالي، مع الحرص الشديد على أن يكون للانتقال أقل الأضرار الممكنة على البنية العالمية الاجتماعية والاقتصادية، وألا تنحدر مستويات المعيشة تبعاً لذلك. وتتمثل المشكلة الوحيدة فيما إذا كنا نسيطر على الأزمة أم أنها تسيطر علينا.

يطلق نحو اثنين من كل ثلاثة أمريكيين على أنفسهم حماية بيئية - تبعاً لاستطلاع جالوب ١٩٩٥ - ويوافقون على أن يكون لحماية البيئة الأولوية على النمو الاقتصادي. قد تدعّن الغالبية لزيادة الضرائب إذا خصصت لحماية البيئة. ومع ذلك قد يتضح أن كل هذا مستحيل ، وأن الاستثمارات الصناعية المنوط بها هذا العمل ذات قوة ضخمة ومقاومة المستهلكين بالغة الضعف لدرجة أنه لن يحدث تغير من الناحية العملية كما هي العادة حتى يكون الوقت قد أصبح متأخراً، أو أن الانتقال إلى حضارة لا تعتمد على الوقود الأحفوري سيكون له تأثير شديد على اقتصاد عالمي يعاني حالياً من الهشاشة مما يؤدي إلى فوضى اقتصادية. بصراحة يجب أن ننتقي طريقنا بحذر. وهناك ميل طبيعي لإطالة المناقشات : هذا مجال مجهول. ألا يجب أن نتمهل؟ لكن بمجرد أن نلقى نظرة على خرائط خصائص تغيرات المناخ سنعرف أنه لا يمكننا إطالة المناقشات، وأنه من التهور أن نتأني كثيراً.

أكبر كمية من ثاني أكسيد الكربون تنطلق في جو الكوكب تأتي من الولايات المتحدة، تليها روسيا وجمهوريات الاتحاد السوفياتي الأخرى السابقة ، ثم تأتي في المرتبة الثالثة البلدان النامية إذا جمعناها معاً ، هذه حقيقة مهمة جداً : ليست المشكلة خاصة فقط بالدول ذات التقنيات العالية ، فمن خلال الزراعة بحرق الغابات والمستنقعات وحرق حطب الوقود وما شابه ذلك تعتبر البلدان النامية مشاركة رئيسية في رفع حرارة الكوكب. والبلدان النامية لديها أكبر معدل نمو سكاني في العالم. وحتى لو لم تنجح في إحراز نجاح مماثل لمستوى المعيشة في اليابان وفي الهلال الباسيفيكي^(*) وفي الغرب، ستظل تلك البلدان تشكل جزءاً

(*) جنوب شرق آسيا (المترجم).

متناميا باستمرار من المشكلة. والشريك التالي فى هذه المشكلة هى أوروبا الغربية ثم الصين وبعدها فقط تأتى اليابان (أحد أكثر بلدان العالم كفاءة فى استعمال الوقود) ومرة أخرى ، حيث أن سبب ارتفاع حرارة الكوكب مشكلة عالمية فإن أى حل يجب أن يكون عالميا أيضا.



تسخين الصوية

من حرق الفحم ، والنفط والغاز قد يعرض البيئة العالمية للخطر.

وحجم التغيير المطلوب لمواجهة هذه المشكلة من أساسها رهيب تقريباً - خاصة بالنسبة لصانعي السياسة الذين يهتمون بشكل أساسى بما سينفعهم خلال فترة حكمهم - فإذا كان إنجاز الأشياء المفيدة المطلوبة سيضعها ضمن برامج عامين أو أربعة أو ستة أعوام، فإن السياسيين سيكونون أكثر تأييداً لها، لأن المنافع السياسية تكون مطلوبة حينئذ فى فترة ما قبل الانتخابات. لكن البرامج العشرينية أو الأربعينية أو الستينية أقل جاذبية من الناحية السياسية، حيث تتحقق الفوائد ليس فقط والسياسيون خارج الخدمة لكنها قد تأتى بعد وفاتهم.

بالتأكيد علينا أن نكون حذرين من أن نتعجل العثور على حل مرتجل مثل كريسوس ثم نكتشف أننا رغم التكاليف الضخمة قد فعلنا شيئاً غير ضرورى أو أحمق أو خطير. لكن الأكثر هروباً من المسؤولية أن نتجاهل كارثة تهددنا ونكتفى بأن نأمل فى سذاجة أنها سوف تختفى. ألا يمكننا التوصل إلى نوع من الاستجابة السياسية الوسطية تكون مناسبة لخطورة المشكلة، لكنها لا تضرنا فى حالة ما إذا بالغنا فى تقدير خطورة الموقف، إذا كانت هناك تغذية مرتجعة سلبية غير متوقعة مثلاً؟

افترض أنك تصمم جسراً أو ناطحة سحاب، من المألوف إدخال، والمطالبة بإدخال، احتمال انهيار كارثى فى الحسابان يحدث قبل الإجهاد المتوقع بكثير. لماذا؟ لأن نتائج انهيار جسر أو ناطحة سحاب شىء بالغ الخطورة كما نعرف. لذلك يحتاج الأمر إلى ضمانات يعول عليها تماماً. ونفس الشىء - كما أعتقد - يجب تبنيه بالنسبة للمشاكل البيئية المحلية والإقليمية والعالمية. وعندئذ - كما سبق أن قلت - تكون هناك مقاومة شديدة، جزئياً بسبب المبالغ المالية الضخمة المطلوبة من الحكومة والصناعة. ولهذا السبب نرى تنامياً فى محاولات التشكيك فى ارتفاع حرارة الكوكب. لكن الأموال مطلوبة أيضاً لإقامة الجسور المدعمة بالجمالونات ولتقوية ناطحات السحاب. ويعتبر ذلك جزءاً عادياً من تكلفة الأبنية الضخمة. ولا يتم اعتبار المصممين والبنائين الذين يتبعون أسرع الطرق وأرخصها والذين لا يدخلون فى حساباتهم هذه التدابير الوقائية رأسماليين متعقلين عندما لا يضيعون الأموال على مصادفات غير متوقعة. ويعتبرون مجرمين. وهناك قوانين لضمان عدم انهيار الجسور وناطحات السحاب، ألا يجب أن تكون لدينا

أيضاً قوانين وتحريمات أخلاقية تعالج المشاكل البيئية المحتملة الأكثر خطورة بما لا يقاس؟

أريد أن أعرض الآن بعض الاقتراحات العملية حول التعامل مع التغير المناخي. وأرى أنها تمثل اتفاقاً جماعياً في الرأي بين الخبراء، رغم أنه ليس اتفاقاً بين جميع الخبراء بالطبع. إنها تمثل مجرد بداية، مجرد محاولة للتخفيف من المشكلة، ولكن بمستوى معقول من الجدية. ويعتبر إبطال ارتفاع حرارة الكوكب وإعادة مناخ الأرض إلى ما كان عليه في الستينيات، مثلاً، أمراً أكثر صعوبة بكثير. والاقتراحات أكثر تواضعاً من جهة أخرى أيضاً، وتتمتع بمبررات ممتازة لكي يتم تنفيذها، مستقلة عن مشكلة ارتفاع الحرارة العالمية.

يمكننا بالرصد المنتظم للشمس والغلاف الجوي والسحب والأرض والمحيطات من الفضاء والطائرات والسفن ومن الأرض - باستخدام أنظمة استشعار واسعة النطاق - أن نقلل من مدى الشكوك الراهنة، وأن نحدد حلقات التغذية المرتدة، ونلاحظ أطر التلوث الإقليمي وتأثيراتها، ونتابع تقلص الغابات ونمو المناطق الصحراوية، مع رصد التغيرات في أغطية الجليدية القطبية وفي الأنهار الجليدية وفي مستوى المحيطات، وأن نفحص كيمياء طبقة الأوزون، ونلاحظ سرعة الانقراض البركانية وتأثيراتها المناخية، وندقق في التغيرات التي تلحق بكمية ضوء الشمس الذي يصل إلى الأرض - لم يكن لدينا من قبل مثل هذه الوسائل الفعالة لدراسة البيئة الكوكبية وحمايتها - وفي الوقت الذي توشك فيه مركبات فضائية لكثير من البلدان على المشاركة في هذا المجال فإن الوسيلة الرئيسية هي "المنظومة الآلية لرصد الأرض" التابعة لناسا، كجزء من بعثتها إلى كوكب الأرض.

عند إطلاق غازات التصوب في الجو لا يتأثر مناخ الأرض بشكل فوري. لكن يبدو أنه يحتاج إلى نحو قرن حتى يمكن الشعور بنحو ثلثي التأثير الكلي. وهكذا، حتى لو تم التوقف التام عن إطلاق ثاني أكسيد الكربون والابتعاثات الأخرى، يمكن أن يستمر وجود تأثيرات التصوب حتى نهاية القرن التالي على الأقل. وهذا سبب قوي لعدم الثقة في أسلوب "فلننتظر لنرى" في معالجة هذه المشكلة - فقد يكون ذلك بالغ الخطورة.

وعندما كانت هناك أزمة نقط بين ١٩٧٣ و ١٩٧٩، رفعنا الضرائب للإقلال من الاستهلاك، وجعلنا السيارات أصغر حجمًا، وخفضنا من حدود السرعات. والآن ونحن متخمون بالبترول خفضنا الضرائب وجعلنا السيارات أكبر حجمًا، ورفعنا حدود السرعات. ليس هناك ما يشير إلى التفكير في المدى الطويل.

لمنع مزيد من ارتفاع ظاهرة التصوب، يجب على العالم أن يكف عن اعتماده على الوقود الأحفوري بأكثر من النصف. وفي المدى القصير - ونحن متعلقون بالوقود الأحفوري - يمكننا استخدامه بشكل أكثر فعالية. وفي الوقت الذي تمثل فيه الولايات المتحدة ٥ في المائة من التعداد العالمي، فإنها تستخدم نحو ٢٥ في المائة من الطاقة العالمية. والسيارات مسئولة عن ثلث ثانى أكسيد الكربون الذي تنتجه الولايات المتحدة تقريبًا. تطلق سيارتك ثانى أكسيد كربون أكثر من وزنها سنويًا. ومن الواضح أنه إذا أمكننا الحصول على مزيد من الأميال لكل جالون من البنزين، سنطلق ثانى أكسيد كربون أقل في الجو. ويوافق كل الخبراء تقريبًا على إمكانية الحصول على تحسينات ضخمة في كفاءة الوقود. فلماذا نرضى نحن - حماة البيئة أصحاب الخبرة الذاتية - بسيارات تعطى ٢٠ ميلاً فقط لكل جالون؟ إذا كنا نستطيع قطع ٤٠ ميلاً لكل جالون، سنطلق نصف ما نطلقه من ثانى أكسيد الكربون فقط في الجو، وبالحصول على ٨٠ ميلاً لكل جالون سنطلق في الجو، ربع هذه الكمية فقط. وهذا الموضوع يعتبر نموذجًا للخلاف الناشئ بين البحث عن أقصى الأرباح في المدى القصير والإقلال طويل المدى من الأضرار البيئية.

لن يشتري أحد السيارات التي تستخدم الوقود الأكثر كفاءة - كما اعتادت "ديترويت" القول - لأنها ستكون أصغر حجمًا وبالتالي أكثر خطرًا، ولن تعجل بسرعة (رغم أنها بالتأكيد يمكنها تخطي حدود السرعة)، وأن تكلفتها ستكون أعلى. حدث حقًا في وسط التسعينيات تنام في ميل الأمريكيين لقيادة سيارات وشاحنات شرهة للوقود بسرعات فائقة - كان ذلك جزئيًا لأن البترول كان بالغ الرخص. لذلك فإن صناعات السيارات الأمريكية حاربت ومازالت تحارب أي تغيير ذي قيمة في هذا المجال. وفي ١٩٩٠، مثلاً، بعد ضغط شديد من ديترويت، رفض مجلس الشيوخ (بقوة) مشروع قانون قد يتطلب تحسينات مهمة في كفاءة الوقود بالنسبة للسيارات الأمريكية، وفي ١٩٩٥ - ٩٦ تم التخفيف من كفاءات الوقود المسموح بها فعلاً في عدد من الولايات.

ليس مطلوباً تصغير حجم السيارات فى حد ذاته، وهناك طرق لجعل حتى السيارات الأصغر أكثر أماناً - مثل استخدام نظم امتصاص صدمات جديدة، مكونات تتقوض أو ترتد، بنية مركبة، ووسائد هوائية لكل المقاعد. وباستثناء الشباب المصاب بنوبات سكر حادة بهرمون التستسترون، ما الذى نفقده فى حالة منع إمكانية تخطى السرعة المحددة لعدة ثوان، مقارنة بما سوف نجنيه؟ هناك سيارات تحرق البنزين ذات تسارع عال تسير على الطرق حالياً تعطى خمسين ميلاً أو أكثر لكل جالون. قد يكون شراء تلك السيارات أكثر تكلفة، لكنها بالتأكيد أقل تكلفة بكثير بالنسبة للوقود : وتبعاً لتقدير أمريكى رسمى، يمكن تعويض التكلفة الإضافية خلال ثلاث سنوات فقط. وكلما انتشر الزعم بأن أحدا لن يشتري تلك السيارات، فإن ذلك يعد استخفافاً بذكاء الشعب الأمريكى واهتمامه بالبيئة ، ويضعف من قوة الإعلانات التى يجب أن تكون مطلقة السراح فى تأييد مثل هذا الهدف النبيل.

تم وضع حدود للسرعة وتقنين الحصول على رخص القيادة وفرض كثير من القيود الأخرى على قائدى السيارات بهدف المحافظة على الحياة. ويمكن للسيارات أن تكون على درجة عالية من الخطورة حتى أن الحكومة مضطرة إلى وضع بعض الحدود على كيفية صناعتها وصيانتها وقيادتها. وتزداد أهمية هذا الأمر إذا عرفنا خطورة التصوب الكوكبى. لقد استفدنا من حضارتنا العالمية، أفلا يمكننا تعديل سلوكنا بعض الشيء للمحافظة عليها؟

سوف يستحدث تصميم نوع جديد من السيارات يكون آمناً وسريعاً ويستخدم وقوداً ذا كفاءة ويكون غير ملوث ويحافظ على البيئة، تقنيات جديدة، وسيكون صفقة مالية ضخمة للقادرين على التحول التقنى. ويتمثل الخطر الأكبر على صناعة السيارات الأمريكية فى أنها إذا استمرت فى المقاومة مدة أطول مما يجب، فإن التقنية الجديدة الضرورية ستأتى من المنافسين الأجانب وستكون لهم براءة الاختراع. ولدى ديترويت دافع خاص ومحدد لأن تطور سيارات محافظة على البيئة ، ألا وهو بقاءها. ولا يتعلق الأمر بموقف أيديولوجى أو سياسى مسبق، لكنه ناتج - حسب اعتقادى - مباشرة عن ظاهرة التصوب.

وأكبر ثلاث شركات منتجة للسيارات فى ديترويت - يتم تشجيعها وتمويلها جزئيا عن طريق الحكومة الفيدرالية - تحاول بشكل بطيء ولكن متعاون تطوير سيارة تقطع ٨٠ ميلا لكل جالون، أو المكافئ لها من السيارات التى تستخدم وقودا غير البنزين. ولو تم رفع الضرائب على البنزين، سوف تزداد الضغوط على صانعى السيارات لتصميم سيارات ذات كفاءة وقود أعلى.

أخيرا تغيرت بعض المواقف، حيث تقوم شركة جنرال موتورز بمحاولة صناعة سيارة كهربائية. "يجب أن تدمج اتجاهاتك البيئية مع أعمالك" كما يوصى دينيس مينانو - نائب مدير أعمال الشركة فى جنرال موتورز فى ١٩٩٦. "بدأت كوريوريت أمريكا ترى أن هذا الأمر جيد تماما بالنسبة للأعمال .. هناك أسواق أكثر تطورا حاليا. سوف يعطى لك الناس وزنا إذا كنت تضع فى حساباتك المبادرات البيئية وتدمجها بنجاح فى أعمالك. ويقولون (لن نعتبرك أخضر لكننا سنقول إن إطلاقك للغازات الضارة فى الجو أقل ، أو أن لديك برنامج إعادة تدوير جيد. سنقول إنك محافظ على البيئة)". يالها من لغة منمقة، لكن على الأقل هناك ما هو جديد. لكننى أنتظر تلك السيارة التى ستوفرها جنرال موتورز وتقطع ٨٠ ميلا لكل جالون.

ولكن ما هى السيارة الكهربائية؟ إنك توصلها بالكهرباء لشحن بطاريتها ثم تنطلق بها. وأفضل هذه السيارات - المصنوعة من مواد مركبة - تقطع عدة مئات من الأميال لكل عملية شحن، واجتازت اختبارات التصادم النموذجية. وإذا كان عليها أن تكون سليمة بينيا فيجب أن تستخدم أى شىء آخر غير البطاريات الحامضية من الرصاص، لأن الرصاص سم قاتل . وبالطبع فإن الشحنة التى تجعل السيارة الكهربائية تسير تأتى من مكان ما ، فإذا كانت، مثلا، محطة قوى كهربائية تستهلك الفحم، فإننا لا نكون قد فعلنا شيئا فيما يتعلق بالتخفيف من ظاهرة التصوب العالمية، مهما كان إسهام تلك السيارات فى الإقلال من تلوث المدن والطرق السريعة.

يمكن الحصول على تحسينات مماثلة فيما يخص بقية اقتصاديات الوقود الأحفوري: يمكن جعل الفحم النباتى أكثر فعالية بكثير، ويمكن تصميم الآلات الصناعية الدوارة الضخمة بحيث تعمل بسرعات مختلفة، ويمكن جعل اللمبات

الفلورسنت أكثر انتشاراً من اللمبات المتوهجة. وستؤدي الابتكارات في كثير من الحالات إلى توفير المال على المدى البعيد وتساعدنا على تحرير أنفسنا من الاعتماد المحفوف بالمخاطر على النفط المستورد من الخارج ، وهناك أسباب تدعو إلى رفع كفاءة استخدامنا لوقودنا لا ترتبط ألبتة بقلقنا حول التصوب العالمي.

لكن رفع كفاءة حصولنا على الطاقة من الوقود الأحفوري ليس كافياً على المدى البعيد ، فمع مرور الزمن سيكون هناك المزيد من البشر على الأرض، وسنكون في حاجة إلى مزيد من الطاقة، ألا يمكننا العثور على طرق بديلة للوقود الأحفوري، تتيح لنا توليد طاقة لا تنتج غازات التصوب التي ترفع درجة حرارة الأرض؟ أحد تلك البدائل معروف على نطاق واسع - وهو الانشطار النووي - وهو لا يولد طاقة مختزنة في الوقود الأحفوري، لكنه يطلق طاقة نووية مختزنة في قلب المادة ، ليس هناك سيارات نووية أو طائرات نووية، لكن توجد سفن نووية وهناك بالتأكيد محطات توليد طاقة نووية. وتكاليف الحصول على كهرباء من محطات الطاقة النووية - في أفضل الظروف، تقترب من نفس تكاليف الطاقة التي يتم الحصول عليها من النباتات التي أصبحت فحمًا أو نفطًا، وهذه "النباتات" لا تولد غازات مسببة للتصوب، لا تفعل ذلك بتاتا. وبرغم ذلك

كما تحذرنا حادثتا ثري ميل أيلاند وشيرنوبيل، قد تطلق محطات الطاقة النووية إشعاعات خطيرة، أو حتى قد تذوب. فهي تنتج مخلفات مشعة مخيفة طويلة العمر يجب التخلص منها. و"طويلة العمر" تعني "حقاً" طول العمر: حيث يصل نصف عمر كثير من النظائر المشعة من قرون حتى ألف سنة. وإذا أردنا دفن تلك المواد، يجب أن نتأكد من أنها لن تتسرب وتصل إلى المياه الجوفية أو تفاجئنا بطريقة أخرى، وليس خلال فترة تمتد سنوات ولكن فترة من الزمن أكثر طولاً مما كان متاحاً لنا توقعها في الماضي، حتى يمكننا عمل التدابير اللازمة بثقة. ومن ناحية أخرى - كما لو كنا نقول لسلاطنا أن تلك النفايات التي أورثناها لهم هي "نصيبهم" و"مستقبلهم المظلم" و"الخطر" المعرضين له - لأننا لم نجد طريقة أكثر أماناً للحصول على الطاقة. (وحقاً هذا ما نفعله حالياً بالضبط بالوقود الأحفوري). وهناك مشكلة أخرى: تستخدم أغلب محطات الطاقة النووية أو تنتج

يورانيوم وبلوتونيوم يمكن استخدامهما فى صناعة أسلحة نووية. وتمثل إغراء دائماً للدول الشريرة والجماعات الإرهابية.



القوة النووية

لا ينتج عنها غازات تصوب لكنها تمثل أخطاراً مشهورة

إذا تم حل تلك المشاكل المتعلقة بآمان التشغيل والتخلص من النفايات المشعة والتحويل إلى أسلحة، يمكن لمحطات الطاقة النووية أن تمثل حلاً لمشكلة الوقود الأحفوري - أو تكون على الأقل بديلاً مؤقتاً مهماً، تقنية انتقالية حتى نعثر على حل أفضل. لكن تلك الشروط لم يتم الوفاء بها بشكل يدعو إلى الثقة، ولا يبدو أن ذلك سيصبح هدفاً مهماً. ولا تدعو إلى الثقة الانتهاكات المستمرة لمواصفات الأمان فى مجال صناعة الطاقة النووية ولا التستر المنتظم على هذه الانتهاكات، ولا حالات فشل فرض إجراءات بالقوة بواسطة لجنة التنظيم النووية الأمريكية

(مدفوعة جزئياً بقيود الميزانية). ويقع عبء تحقيق ذلك على عاتق صناعة الطاقة النووية. وأنجزت بعض الدول مثل فرنسا واليابان تحولاً مهماً إلى الطاقة النووية رغم كل تلك المشاكل. فى الوقت نفسه قررت دول أخرى حديثاً - مثل السويد - التى كانت قد أجازت سابقاً الطاقة النووية، التخفيض المتتالى لهذه الطاقة.

وبسبب الخوف العام واسع النطاق من الطاقة النووية ، تم إلغاء طلبات محطات القوى النووية التى أجازت بعد ١٩٧٣، ولم يتم التصريح بأى محطات مماثلة جديدة منذ ١٩٧٨. ويتم عادة رفض الاقتراحات بمواقع تخزين أو دفن جديدة للنفايات المشعة بواسطة اللجان المسئولة عن هذا الأمر. وتتراكم التدابير الهائلة.

هناك نوع آخر من القوى النووية - ليس قوة الانشطار - حيث يتم شطر النوى الذرية ، ولكن قوة الاندماج ، حيث يتم جمعها معاً . ومن حيث المبدأ تستعمل محطات الطاقة الاندماجية ماء البحر - وهو مصدر يفترض ألا ينضب - ولا تنتج أى غازات مسببة للتصوب، لا تمثل أية أخطار للنفايات المشعة، ولا علاقة لها باليورانيوم والبلوتونيوم، لكن "من حيث المبدأ" لا تعتبر تلك التقنية أمراً لا يعتد به، نحن فى حالة استعجال، ومع الجهود الضخمة والتقنية بالغة الرقى، ربما نكون الآن فى موقف يولد فيه المفاعل الاندماجى بالكاد زيادة ضئيلة فى القوة المستخدمة فى تشغيله. وترتبط إمكانية الحصول على الطاقة الاندماجية بإمكانية منظومات تقنية راقية وهائلة ومرتفعة التكاليف، التى لا يتخيل حتى المؤيدين لها أن تكون متاحة على النطاق التجارى قبل كثير من العقود. وليس أمامنا عقود كثيرة . والأنواع المبكرة من هذه المفاعلات من المرجح أن تولد كميات هائلة من النفايات المشعة. وعلى أية حال من الصعب تصور أن هذه المنظومات ستكون ملائمة للدول النامية.

والذى تناولته فى الفقرة السابقة هو الاندماج الساخن، وهو يحمل هذه التسمية لسبب معقول: عليك أن تصل بالمواد إلى درجات حرارة ملايين الدرجات أو أكثر، كما هو الحال داخل الشمس، لتجعل الاندماج يحدث. وكانت هناك أيضاً مزاعم حول ما يسمى بالاندماج البارد، الذى أعلن عنه للمرة الأولى عام ١٩٨٩. يوضع الجهاز على منضدة، ثم توضع بعض أنواع الهيدروجين، وبعض من معدن

البلاديوم، وتطلق تيارا كهربائيا، فيحدث - كما قيل - أن تحصل على طاقة أكثر من تلك التى استخدمتها، إضافة إلى النيوترونات ودلائل أخرى على حدوث تفاعلات نووية. إذا كان ذلك صحيحاً، قد يكون الحل المثالى لحل مشكلة التصوب العالمى. ومازالت جماعات علمية عدة على المستوى العالمى تفحص الاندماج البارد. إذا كان هذا الزعم حقيقياً فإن النتائج ستكون بالطبع هائلة. والرأى السائد بين جماعة علماء الفيزياء على المستوى العالمى أن الاندماج البارد مجرد وهم، مزيج من أخطاء القياس، وغياب للتجارب المحكمة كما يجب، وخطأ بين ما هو كيميائى والتفاعلات النووية. لكن مازالت مجموعات من العلماء فى بلدان مختلفة تبحث أمر الاندماج البارد - مثل الحكومة اليابانية التى دعمت هذا البحث إلى حد ما - ويجب تقويم كل من هذه المزاعم على أساس أخذها كل حالة على حدة.

ربما تكون هناك تقنية جديدة دقيقة وبارعة - ليست معروفة بتاتا فى اللحظة الراهنة - ستتيح لنا على الأفق القريب طاقة الغد. وكانت هناك مفاجآت قبل ذلك. لكن المراهنة عليها ستكون مجازفة تتسم بالحمق.

ولأسباب كثيرة تعتبر البلدان النامية معرضة بشكل خاص لأضرار التصوب العالمى. فهى أقل قدرة على التوافق مع حالات الطقس الجديدة، وعلى تبنى محاصيل جديدة وإعادة تنمية الغابات وبناء حواجز ضد الأمواج، وعلى التكيف مع الجفاف والفيضانات. وفى نفس الوقت فهى تعتمد بشكل خاص على الوقود الأحفورى. ما هو الأكثر ملاءمة بالنسبة للصين مثلاً - التى تملك ثانياً أكبر مخزون فحم على المستوى العالمى - أكثر من الاعتماد على الوقود الأحفورى خلال خططها المتنامية للتصنيع؟ وإذا كان على مبعوثين من اليابان وأوروبا الغربية والولايات المتحدة الذهاب إلى بكين وطلب وضع قيود على حرق الفحم والنفط، أليس من المتوقع أن تشير الصين إلى أن تلك البلدان لم تضع تلك القيود خلال مراحل تحولها إلى بلدان صناعية؟ (وعلى أى حال، لقد طالب نظام اتفاقية ريو فى ١٩٩٢ حول التغير المناخى الدول المتقدمة بدفع تكاليف الحد من إطلاق الغازات المسببة للتصوب فى الدول النامية). وتحتاج البلدان النامية إلى تقنية بسيطة نسبياً غير مرتفعة التكاليف كبديل عن الوقود الأحفورى.

فإد! كان انوتود الأحفوري غير مقبول وكذلك الانشطار والاندماج النوويان وبعض التقنيات السامة الجديدة، فما العمل؟ خلال إدارة الرئيس الأمريكى جيمى كارتر تم وضع محوّل شمس حرارى على سقف البيت الأبيض. حيث يتم تسخين المياه الجارية فى ابام سطوع الشمس فى واشنطن العاصمة بواسطة حرارة الشمس لتساهم بذلك بنحو ٢٠ فى المائة من الطاقة التى يحتاجها البيت الأبيض، بما فى ذلك كما أتوقع، احتياجات أدشاش الحمامات الرئاسية. كلما ارتفعت كمية الطاقة التى يتم الحصول عليها من الشمس مباشرة انخفضت الطاقة التى يجب سحبها من شبكة الطاقة الكهربائية المحلية، وبالتالي انخفضت كمية الفحم والنفط المطلوب استهلاكها لتوليد كهرباء لشبكة الطاقة الكهربائية المحلية حول نهر بوتوماك. والطاقة الناتجة لا تتيح أغلب الطاقة المطلوبة ولا يمكن الحصول على مزيد منها فى الأيام التى تنتشر فيها السحب، لكنها كانت (وما زالت) إشارة مشجعة على ما نحتاج إليه.

وكان من أول الإجراءات التى اتخذها الرئيس رونالد ريجان تحطيم المحول الشمسى الحرارى وخلعه من فوق سقف البيت الأبيض، وكان موقفًا عدوانيًا إلى حد ما من الناحية العقائدية، واحتاج الأمر بالطبع إلى مصاريف لتجديد سقف البيت الأبيض، ومبالغ أخرى لشراء الكهرباء الإضافية المطلوبة يوميًا. لكن من الواضح أن المسئولين اعتبروا أن الفوائد التى تم الحصول عليها تستحق تلك المصاريف. أية فوائد؟ ولصالح من؟

وفى نفس الوقت تم تقليص الدعم الفيدرالى لبدايل الوقود الأحفوري والطاقة النووية بدرجة كبيرة تصل إلى نحو ٩٠ فى المائة. وظلت الإعانات المالية الحكومية (متضمنة التخفيضات الضريبية الضخمة) لصناعات الوقود الأحفوري والصناعات النووية مرتفعة خلال سنوات حكم ريجان وبوش. ويمكن أن تدخل حرب الخليج فى ١٩٩١ - كما أعتقد - ضمن تلك الإعانات. وفى الوقت الذى تم خلاله إنجاز بعض البرامج التقنية فى مجال مصادر الطاقة البديلة بنجاح خلال هذه الفترة، والفضل قليل للحكومة الأمريكية، فإننا جوهريًا قد خسرنا ١٢ عامًا. ونظرًا لسرعة تنامى غازات التصوب فى الجو وطول مدة بقائها لم يكن يجب أن نفقد ١٢ عامًا. وأخيرًا عاد الدعم الحكومى لمصادر الطاقة البديلة للارتفاع من جديد،



الطاقة الشمسية

يعتبر تحويلها إلى كهرباء حلاً آمناً واعدًا لكثير من معضلات الطاقة عالمياً
ولكن بمقدار ضئيل جداً. وأنا فى انتظار رئيس يعيد تركيب محول للطاقة الشمسية
على سقف البيت الأبيض.

فى أواخر السبعينيات كان هناك ائتمان ضريبى فيدرالى لإدخال سخانات
شمسية حرارية فى البيوت. وحتى فى المناطق التى تتصف عامة بكثافة السحب
يتمتع أصحاب البيوت الأفراد - الذين استفادوا من هذا التخفيض الضريبى -
بوفرة من المياه الساخنة، التى لا تستحق دفع تكاليف عنها لشركة المنفعة
العامة. وتم تعويض الاستثمار الأولى خلال نحو خمس سنوات، وألغت إدارة
ريجان هذا الائتمان الضريبى.

هناك المزيد من التقنيات البديلة، حيث يتم توليد كهرباء من حرارة الأرض في إيطاليا وولاية أيداهو الأمريكية ونيوزيلاندا، وتعمل ٧٥٠ مروحة بالرياح لتوليد الكهرباء في ألتامونت باس في كاليفورنيا، حيث يتم بيع الإنتاج الكهربائي لشركة الباسيفيك للغاز والكهرباء. وفي ترافيرس سيتي في متشيجان يدفع المستهلكون أسعارًا أعلى نسبيًا للحصول على الطاقة الكهربائية من مراوح الرياح لتجنب التلوث البيئي الناجم عن محطات الطاقة الكهربائية التي تستخدم الوقود الأحفوري. وكثير من المتوطنين الآخرين على قائمة الانتظار للتعاقد. وبوضع التكاليف البيئية في الاعتبار، تعتبر الكهرباء التي يتم توليدها من الرياح أقل تكلفة من الكهرباء التي يستخدم الفحم في إنتاجها، ويمكن الحصول على الكهرباء التي تستخدمها الولايات المتحدة - حسب ما تم تقديره - بواسطة النشر المتباعد للمراوح في الأماكن الأكثر تعرضًا للرياح التي تمثل ١٠ في المائة من مساحة البلاد - وهي غالبًا أراضٍ لتربية الماشية وأخرى زراعية. فضلًا عن ذلك، يمكن للوقود المستخرج من النباتات الخضراء (التحويل إلى مادة عضوية biomass) أن يحل محل النفط بدون زيادة في ظاهرة التصوب، لأن النباتات تأخذ ثاني أكسيد الكربون من الهواء قبل تحويلها إلى وقود.

لكن من عدة جوانب - كما يبدو لي - يجب علينا تطوير ودعم التحويل المباشر وغير المباشر لضوء الشمس إلى كهرباء. فضوء الشمس متاح على نطاق واسع وبكميات لا تنضب (ماعدًا في المناطق الملبدة بالغيوم الكثيفة مثل شمالي نيويورك حيث أقيم)؛ لأن تلك التقنية لا تحتاج إلا لقليل من الأجزاء الآلية المتحركة، وتحتاج إلى أقل قدر من الصيانة. ولا يصدر عن الطاقة الشمسية لا غازات تصوب ولا نفايات نووية.

وأحد التقنيات الشمسية واسعة الانتشار هي محطات الطاقة الكهربائية المائية hydroelectric. يتبخر الماء بحرارة الشمس، فيتساقط أمطارًا على الهضاب، يسيل عبر الأنهار التي تجري في المنحدرات ويتدفق من خلال السد وآلاته الدوارة التي تولد الكهرباء. لكن لا يتوافر سوى القليل من الأنهار السريعة على كوكبنا، وفي بلدان كثيرة يكون المتاح من تلك الأنهار غير كاف لإمدادها بحاجتها من الطاقة.

شاركت السيارات التى تعمل بالطاقة الشمسية فعلاً فى سباقات المسافات الطويلة. ويمكن استخدام الطاقة الشمسية لتوليد وقود الهيدروجين من الماء ، وعند حرق الهيدروجين يتحول ببساطة إلى ماء. وهناك مساحة شاسعة من الصحراء فى العالم التى يمكن استغلالها بكفاءة بطريقة بيئية تتسم بالمسؤولية، لحصد ضوء الشمس ، ويتم استخدام الطاقة الشمسية الكهربائية أو "الضوئية الكهربائية photovoltaic بشكل عادى منذ عقود لإمداد المركبات الفضائية بالطاقة فى المناطق الفضائية القريبة من الأرض وخلال رحلاتها داخل المجموعة الشمسية. تصطدم فوتونات الضوء سطح الخلية وتقتذف إلكترونات، يصبح تدفقها المتراكم تياراً كهربائياً. وهذه تقنيات عملية موجودة فعلاً.

لكن متى - إذا كان ذلك سيحدث أصلاً - ستنافس التقنيات الشمسية الكهربائية أو الشمسية الحرارية الوقود الأحفورى فى إمداد البيوت والمكاتب بالطاقة ؟ تشير التقديرات الحديثة - بما فيها تقديرات إدارة الطاقة الأمريكية - إلى أن التقنية الشمسية سوف تدرك العقد التالى لعام ٢٠٠١، وهذا موعد قريب بما يكفى لإحداث تغير حقيقى.

وفى الواقع يتسم الموقف بأنه أكثر إيجابية من ذلك ، عندما يتم إجراء تلك المقارنات حول التكاليف، يحتفظ المحاسبون بنوعين من الدفاتر، أحدهما للاستهلاك العام والآخر يكشف التكاليف الفعلية. وصل سعر النفط الخام فى السنوات الراهنة إلى نحو ٢٠ دولاراً للبرميل. لكن القوات المسلحة الأمريكية كان عليها حماية مصادر النفط الأجنبية، مع منح مساعدات ضخمة إلى عدد من البلدان بسبب النفط فى المقام الأول. لماذا نتظاهر بأن ذلك ليس جزءاً من تكاليف النفط؟ ونقبل دون اعتراض بقاء البترول المسفوح التى تمثل كوارث بيئية (مثل بقع فالديز لشركة إكسون) نظراً لشهيتنا للنفط. لماذا نتظاهر بأن ذلك ليس جزءاً من تكاليف النفط؟ إذا أضفنا كل هذه التكاليف الإضافية، تصبح التكلفة التقديرية قريبة من ٨٠ دولاراً للبرميل. فإذا أضفنا هنا التكاليف البيئية التى يفرضها النفط على البيئات المحلية والعالمية، قد يصل الثمن إلى نحو مئات الدولارات للبرميل. وعندما تدفع حماية النفط إلى حرب - مثل تلك التى وقعت فى الخليج الفارسى - تصبح التكلفة أكثر بكثير، وليست بالدولارات فقط.

عندما تقترب محاولة ما من إجراء حسابات سليمة، يصبح واضحاً لأسباب كثيرة أن الطاقة الشمسية (وطاقة الرياح ومصادر الطاقة المتجددة الأخرى) أقل تكلفة بكثير من الفحم أو النفط أو الغاز الطبيعي. ويجب على الولايات المتحدة، والبلدان الصناعية الأخرى، أن تخصص استثمارات ضخمة لمزيد من تحسين تلك التقنية ولنشر مجموعات كبيرة من محولات الطاقة الشمسية. لكن الميزانية السنوية الكاملة لإدارة الطاقة الأمريكية المخصصة لهذه التقنية تساوى بالتقريب تكلفة طائرة متطورة الأداء أو طائرتين فى الخارج لحماية مصادر النفط الأجنبية.

استثمر الآن فى رفع كفاءة الوقود الأحفورى أو مصادر الطاقة البديلة تحصل على الأرباح بعد سنوات فى المستقبل، لكن الصناعة والمستهلكين والسياسيين - كما أوضحت من قبل - يركزون غالباً فى ما يبدو هنا والآن فقط. فى نفس الوقت تم بيع شركات الطاقة الشمسية الأمريكية الرائدة لشركات أجنبية. وتظهر حالياً منظومات الكهرباء الشمسية فى إسبانيا وإيطاليا وألمانيا واليابان ، وحتى أكبر محطة توليد طاقة شمسية تجارية أمريكية، فى صحراء موجاف، تنتج عدة مئات ميغاوات فقط من الكهرباء، التى تبيعها إلى ساوثيرن كاليفورنيا إديسون. وعلى المستوى العالمى يتجنب المخططون لمشاريع المنفعة العامة الاستثمارات فى مجال مراوح الرياح ومولدات الكهرباء الشمسية.

ومع ذلك هناك بعض الأحداث المشجعة. صنع الأمريكيون تجهيزات كهرباء شمسية على المقياس الصغير بدأت تنتشر فى السوق العالمية. (من أكبر ثلاث شركات، هناك شركتان تديرهما ألمانيا واليابان، والثالثة بواسطة شركات الوقود الأحفورى الأمريكية). ويستخدم الرعاة فى التبت الألواح الشمسية فوق الجمال للإبقاء على الأمصال النفيسة باردة خلال رحلاتهم عبر الصحراء، وتحول ٥٠ ألف منزل فى الهند إلى استخدام الطاقة الكهربائية الشمسية ، ولأن تلك المنظومات فى متناول الشريحة الدنيا فى الطبقة المتوسطة فى البلدان النامية، ولأن صيانتها لا تكلف شيئاً تقريباً، فإن السوق المتوقعة لتزويد المناطق الريفية بالكهرباء الشمسية هائلة.

يمكننا ويجب علينا أن نفعل ما هو أفضل من ذلك. يجب أن يكون هناك مشروعات فيدرالية ضخمة لتطوير هذه التقنية، وحوافز متاحة للعلماء والمبتكرين للدخول في هذا الميدان الذي لا تدخله سوى القلة ، لماذا يُنظر غالبًا إلى "الاستقلال في مجال الطاقة" كمبرر للخطر البيئي لمحطات الطاقة النووية أو التنقيب عن البترول بعيدًا عن الشواطئ - ومن النادر جدًا أن يعتبر ذلك مبررًا للانفراد^(*) والسيارات ذات الكفاءة العالية في استخدام الوقود أو الرياح والطاقة الشمسية؟ ويمكن أيضًا استخدام كثير من تلك التقنيات الجديدة في الدول النامية لتحسين الصناعة ومستويات المعيشة بدون ارتكاب الأخطاء البيئية التي وقع فيها العالم المتقدم. وإذا كانت أمريكا تبحث عن صناعات أساسية جديدة، ها هي إحدى تلك الصناعات على وشك الظهور.

وربما يمكن لهذه البدائل أن تتطور بسرعة في اقتصاد سوق حرة حقيقي. وبشكل اختياري يمكن أن تفرض الدول ضريبة صغيرة على الوقود الأحفوري، تخصصها لتطوير التقنيات البديلة. أقرت بريطانيا في ١٩٩١ ضريبة "عدم إلزام بالوقود الأحفوري" تصل إلى ١١ في المائة من سعر الشراء. ويمكن لهذه القيمة أن تصل - في أمريكا فقط - إلى عدة بلايين من الدولارات سنويًا. لكن الرئيس كلينتون في ١٩٩٣ - ٩٦ لم يستطع تمرير تشريع ضريبي حتى بخمسة في المائة لكل جالون بنزين. وربما تستطيع حكومات في المستقبل أن تتخذ موقفًا أفضل.

وما أتمنى حدوثه أن تتقدم تقنيات الكهرباء الشمسية ومراوح الرياح وتحويلات المواد العضوية ووقود الهيدروجين ليتم استخدامها على نطاق واسع، في الوقت الذي يتم خلاله تطوير كفاءة طرق حرقنا للوقود الأحفوري. ولا أحد يتصور إمكانية الإقلاع التام عن استخدام الوقود الأحفوري. فالاحتياجات للطاقة الصناعية الضخمة ، مثل تلك المطلوبة في مسابك الصلب ومصهرات الألومنيوم ، لا يرجع الحصول عليها بواسطة ضوء الشمس أو الطواحين الهوائية. لكن إذا أمكننا تخفيض اعتمادنا على الوقود الأحفوري إلى النصف أو أكثر، سنكون قد أنجزنا عملاً عظيمًا.

(*) بتقنيات صديقة للبيئة (المترجم).

وليس من المرجح ظهور تقنيات مختلفة تمامًا في وقت قريب يناسب تسارع ظاهرة التصوب، وقد يحدث أيضا بالرغم من ذلك أن تظهر في القرن المقبل تقنية جديدة تتصف بأنها رخيصة ونظيفة ولا ينتج عنها غازات تصوب، تقنية يمكن إنشاؤها وصيانتها في البلدان الصغيرة الفقيرة حول العالم.

لكن أليس هناك طريقة ما للتخلص من ثاني أكسيد الكربون الموجود في الجو، لعلاج بعض الدمار الذي أحدثناه فعلاً؟ الطريقة الوحيدة التي تبدو آمنة ويعول عليها للإقلال من أخطار ظاهرة التصوب هي التشجير. حيث أن نمو الأشجار يزيل ثاني أكسيد الكربون من الهواء. وبعد تمام نموها بالطبع لن يكون مناسباً حرقها وإلا نكون قد ألغينا تماماً الفائدة التي نبحت عنها. وبدلاً عن ذلك يجب زراعة الغابات والأشجار، وعند تمام نموها يمكن حصدها واستخدامها مثلاً في بناء البيوت أو صناعة الأثاث. أو حتى الاكتفاء بدفنها. لكن مساحة الأرض التي يجب إعادة زراعتها بالغابات على المستوى العالمي حتى يمكن تنمية أشجار ذات تأثير فعال في هذا المجال مساحة هائلة، تصل تقريباً إلى مساحة الولايات المتحدة. ويمكن إنجاز ذلك فقط إذا تم خلال مشروع تعاوني بين البشر جميعاً، وبدلاً عن ذلك يدمر الجنس البشري قدامنا مزروعاً بالغابات كل "ثانية". يمكن لكل شخص أن يشارك في التشجير: الأفراد والدول والصناعات، وبشكل خاص الصناعات. أنشأت "خدمات استخدام الطاقة" في أرلينجتون في فرجينيا محطة طاقة فحم نباتي في كونيكيتكت، وتزرع أيضاً أشجاراً في جواتيمالا ستساهم في تخليص جو الأرض من كمية من ثاني أكسيد الكربون أكبر من تلك التي سيطلقها مرفق الشركة الجديد في الهواء خلال عمره التشغيلي. ألا يجب على شركات قطع الأشجار للحصول على أخشابها أن تزرع مزيداً من الغابات - من تلك الأنواع سريعة النمو كثيفة الأوراق المفيدة في التلطيف من شدة ظاهرة التصوب - أكثر من تلك الأشجار التي تقطعها؟ وماذا عن صناعات الفحم والنفط والغاز الطبيعي والبتروول والسيارات؟ ألا يجب على كل شركة تطلق ثاني أكسيد الكربون في الجو أن تشارك في التخلص منه أيضاً؟ ألا يجب على كل مواطن أن يفعل ذلك؟ وماذا عن "زراعة" الأشجار في عيد رأس السنة الميلادية؟ أو في أعياد الميلاد والزواج والأعياد السنوية. جاء أسلافنا من الأشجار ولدينا انجذاب طبيعي تجاهها. لذلك من المناسب تماماً لنا أن نزرع المزيد منها.

مع نشاطنا الدءوب فى استخراج جثث الكائنات القديمة من باطن الأرض وحرقتها، أوقعنا أنفسنا فى خطر، يمكننا التخفيف من الخطر بتحسين كفاءة وسيلة هذا الحرق، بالاستثمار فى مجال التقنيات البديلة (مثل طاقة الوقود العضوى والرياح والطاقة الشمسية)، وبمنح الحياة لبعض من نفس نوع الكائنات التى نحرق بقاياها القديمة والحديثة، أى الأشجار ، ويمكن لهذه الأنشطة أن تتيح عددًا كبيرًا من الفوائد الفرعية : تنقية الهواء ، الإبطاء فى انقراض الأنواع فى الغابات الاستوائية، الإقلال من بقع التلوث بالنفط أو إلغاؤها، الحصول على تقنيات جديدة وفرص عمل جديدة وأرياح جديدة وتدعيم الاستقلال الطاقى، ومساعدة الولايات المتحدة والدول الأخرى الصناعية المعتمدة على النفط فى إبعاد أبنائها وبناتها المرتدين البرزة النظامية عن طرق المخاطر، وإعادة توجيه مزيد من ميزانياتها العسكرية إلى اقتصاديات إنتاج مدنية.

رغم المقاومة المستمرة من صناعات الوقود الأحفورى، اتجه أحد مجالات الأعمال بشكل ملحوظ إلى أخذ أمر التصوب مأخذًا جادًا وهى شركات التأمين، حيث أن العواصف العنيفة والتقلبات الحادة الأخرى فى الطقس الناجمة عن التصوب، مثل الفيضانات والجفاف وهلم جرا، قد "تفلس الصناعة" حسب قول مدير جمعية أمريكا لإعادة التأمين. وفى مايو ١٩٩٦، مع معرفة حقيقة أن ٦ من أسوأ ١٠ كوارث طبيعية أصابت البلاد خلال كل تاريخها حدثت فى العقد الماضى، تبنى اتحاد لشركات التأمين الأمريكية تحقيقا حول أن التصوب العالمى سبب محتمل لهذه الكوارث. وتكاثفت لتكوين جماعة ضغط شركات التأمين الألمانية والسويسرية للإقلال من إطلاق غازات التصوب فى الجو. وطالب تحالف دول الجزر الصغيرة الدول الصناعية بتخفيض إطلاقها لغازات التصوب بنسبة ٢٠ فى المائة "تحت" مستويات ١٩٩٠ مع عام ٢٠٠٥. (بين ١٩٩٠ و ١٩٩٥ ارتفع إطلاق ثانى أكسيد الكربون فى الجو على المستوى العالمى بنسبة ١٢ فى المائة) ، وهناك اهتمام جديد - حتى لو كان متكلفا - فى الصناعات الأخرى بالمسئولية البيئية ، مما يعكس إدراكا جماهيريا واسعا لحق تفضيل منتجات ما على منتجات أخرى فى العالم المتقدم ، حتى لو كان هذا الاتجاه أقل نسبيًا فى البلدان الأخرى.

ف ٨ وفى ١٨٩٩، قبل عامين من وصول تيودور روزفلت.... (يبدو ذلك كريها بشكل خاص، لأن المادة المحذوفة تجعل الأمر يبدو كما لو أن ٩٩ فى المائة من القراء السوفييت يظنون أنه فرانكلين روزفلت وليس تيودور روزفلت الذى تم الاقتباس عنه).

ف ٨ وليس كل ذلك مجرد دعاية سوفيتية نذلة.

ف ٩ ٢ يوليو ...

ف ٩ البروتوكول السرى لمعاهدته بعدم الاعتداء مع هتلر....

ف ٩ ... وعدد الملايين الذين قتلوا بسبب ذلك.

ف ١١ ... ومع ذلك كان يمكن فهم عجز التبريرات بشكل أفضل لو لم يكن لدى الاتحاد السوفييتى عادة التهام البلدان الأخرى.

ف ١٨ . لذلك فإن هؤلاء الذين أسكتهم وأذلهم إرهاب الدولة وأصبحوا الآن قادرين على رفع صوته - كأفراخ وليدة مؤيدة للحرية ترفرف بأجنحتها - من الطبيعى أن يجدوا الأمر مبهجاً، وهذا هو حال كل محب للحرية يراقب ما يحدث.

ف ١٩ ... الذى يمكن تشويه صورته بسهولة.

ف ٢٠ . وفى كلا البلدين فإن ما يتم وضعه فى الاعتبار مازال، إذا تم فحصه عن قرب، تكراراً للشعارات الوطنية بالدرجة الأولى، الاحتكام إلى التحيز الشعبى، التعريض، التبرير الذاتى، التوجيه الخاطىء، تعويضات العظمت الدينية عندما تتم المطالبة بالوضوح، وازدراء تام لذكاء المواطنين جميعاً.

ف ٢٠ . وسوف يكون التوصل إلى أى حل أمراً على درجة من الصعوبة، والأصعب منه بكثير التوصل إلى عدد من الحلول تنتمى على نحو كامل إلى المبادئ السياسية للقرن الثامن عشر، أو التاسع عشر. (الماركسية، بالطبع، مذهب سياسى واقتصادى ينتمى إلى القرن التاسع عشر).

ف ٢٣ ... فى انتحالات غير معترف بها غالباً لمدة قرن. وليس لدى الولايات المتحدة أو الاتحاد السوفييتى احتكار للحقيقة والفضيلة.

ف ٢٦ . لا توجد حلول مرتقبة. (من المعتقدات الماركسية التقليدية التي تمثل رضاء ذاتيًا رغم أنها غير علمية أن النصر النهائي للشيوعية مقدّر بواسطة قوى تاريخية مفعول عنها).

كان أعلى اهتمام سوفيتي من نصيب الاقتباس من لينين (والمعنى الضمني في كلمات توكاشيفسكي) في الفقرة ٩. وبعد طلبات متكررة رفضتها، لكي أحذف هذه المادة، ظهرت مقالة "أجنيوك" متضمنة الهامش التالي: "تساور مجلس تحرير أجنيوك حول الأرشف المتصل بالموضوع. لكنهم لم يجدوا لا ذلك الاقتباس ولا أي تعبير مماثل آخر للينين. ونأسف لأن الملايين من قراء مجلة باراد سيضلّهم هذا الاقتباس، الذي بنى عليه كارل ساجان استنتاجاته". وكانت هذه ملحوظة فظة، كما بدا لي الأمر.

لكن الوقت مر وتم فتح أرشيفات جديدة وأصبحت التصحيحات التاريخية متاحة ومقبولة، وتم تجريد لينين من الصفات الأسطورية، وحل الموقف نفسه. وفي مذكرات أرياتوف تظهر الملاحظة المهدبة التالية:

أنا مدين هنا باعتذار في تعليقاتي في "أجنيوك" في ١٩٨٨، تعليقًا على مقالة لعالم الفلك كارل ساجان، تجاهلت استنتاجه حول أن حملة توكاشيفسكي البولندية كانت محاولة لتصدير الثورة. كان ذلك بسبب الموقف الدفاعي المعتاد، الذي أصبح انعكاسًا شرطيًا، ويعود أيضًا إلى حقيقة أننا اكتسبنا عادة استمرت سنوات عدة (أصبحت في آخر الأمر طبيعة ثانية) تتمثل في كنس الحقائق "غير المريحة" أسفل السجادة^(٥). وأنا مثلاً لم أدرس إلا قريبًا تلك الصفحات عن تاريخنا بدرجة ما من الاهتمام.

(٥) تعبيرًا عن إخفاء المشاكل لتجنب مواجهتها (المترجم).

الفصل الخامس عشر

الإجهاض

هل يمكن الدفاع

عن " حق الحياة " " وحق الاختيار " معًا؟ ^(*)

يميل البشر إلى التفكير بمصطلحات التناقضات القصوى. فهم مولعون بصياغة عقائدهم بمصطلحات إما - أو ، ولا يجدون بين الطرفين أية احتمالات وسطية. وعندما يضطرون إلى إدراك عدم إمكانية الاعتماد على التطرفات، يستمرون في الميل إلى التمسك بأن موقفهم صحيح نظريًا، ويرون أنهم مجبرون على الحلول الوسطية إذا تعلق الأمر بالشئون العملية.

جون ديوى

الخبرة والتربية، الجزء ١ (١٩٣٨)

تم حسم الموضوع منذ سنوات، اختارت المحكمة حلاً وسطاً. ظننت أن المعركة انتهت، وبدلاً من ذلك هناك حشود ضخمة، عمليات إلقاء قنابل وتهديدات، ضحايا من العاملين في عيادات الإجهاض، اعتقالات، تشكيل جماعات ضغط

(*) كتابة مشتركة مع آن درويان ، نشرت أول مرة في مجلة باراد تحت عنوان "مشكلة الإجهاض: بحث عن حلول" في ٢٢ إبريل ١٩٩٠.

قوية، الدراما التشريعية، جلسات الاستماع فى الكونجرس، قرارات المحكمة العليا، والأحزاب السياسية الرئيسية إذ تميز نفسها عن غيرها عادة تبعاً لهذا الموضوع، ورجال الدين فى تهديدهم للسياسيين بالهلاك الروحى.

الأنصار يندفعون إلى الاتهامات بالنفاق وإلى القتل، مع الاستناد إلى الدستور وإرادة الله على حد سواء، مع سرد مبررات مبهمة كأنها يقينية. والفرق المتصارعة تناشد العلم أن يدعم مواقفها. والأسر منقسمة، الأزواج والزوجات متفقون على عدم مناقشة الموضوع، والصمت تجاه الموضوع يلف الأصدقاء القدامى. ويفحص السياسيون آخر استطلاعات الرأى لاكتشاف ما تمليه عليهم ضمائرهم، وبين كل الصيحات من الصعب على الخصوم الاستماع إلى بعضهم البعض. فالآراء تم استقطابها والعقول أصبحت مغلقة.

هل من الخطأ إجهاض الحمل؟ فى كل الحالات؟ أحياناً؟ لا يصح أبداً؟ كيف نقرر هذا الأمر؟ كتبنا هذه المقالة من أجل فهم أفضل لوضع الآراء المتنافسة ولكى نرى إذا كنا نحن أنفسنا قادرين على التوصل إلى موقف قد يرضى كلاً منا، أليس هناك حل وسطى؟ كان يجب علينا التفكير ملياً فى مبررات كلا الجانبين من زاوية تماسكها وأن نضع أيضاً حالات اختبارية، بعضها افتراضية تماماً. وإذا كان يبدو أننا نذهب بعيداً فى ما يخص بعض تلك الاختبارات، نرجو القارئ أن يصبر علينا، نحن نحاول أن نضبط على المواقف المختلفة إلى حد الإنهاك لنرى مدى ضعفها ومواقع فشلها.

فى لحظات تأملية يدرك الجميع تقريباً أن الموضوع ليس وحيد الجانب بشكل كامل. ونجد أن بعض أنصار وجهات النظر المختلفة يشعرون ببعض الانزعاج والبعض بالاضطراب عند مواجهة ما تتضمنه المبررات المعارضة لهم. (وهذا سبب جزئى يفسر تجنب تلك المواجهات). ويتماس هذا الموضوع مع أسئلة عميقة: ما هى مسئولية كل منا تجاه الآخر؟ هل نسمح للدولة بالتدخل فى أهم الجوانب الخصوصية والشخصية فى حياتنا؟ أين تقع حدود الحرية؟ ماذا يعنى أن تكون إنسانياً؟

من بين جوانب وجهات النظر الفعلية يتم التثبيت على نطاق واسع - خاصة في وسائل الإعلام التي يندر أن يكون لديها الوقت أو الرغبة في إجراء تمييز دقيق - بأن هناك وجهتي نظر فقط تمثلان المدافعين عن "حق الاختيار" و"حق الحياة"، وهذا ما يحب المعسكران المتصارعان أن يطلقاه على نفسيهما، وهذا ما سنطلقه عليهما هنا. وبأبسط توضيح فإن المؤيد لحق الاختيار يرى أن قرار إجهاض حمل يجب أن يتم تقريره بواسطة المرأة فقط، وليس من حق الدولة أن تتدخل فيه. ويتمسك المؤيد لحق الحياة بأنه من اللحظة الأولى للحمل يكون الجنين حتى الأسبوع الثامن embryo أو الجنين من الشهر الثالث حتى الوضع fetus حياً، وتفرض علينا هذه الحياة التزامات للمحافظة عليها، وأن الإجهاض في هذه الحالة مساو للقتل. تم اختيار كلا الاسمين - حق الاختيار وحق الحياة - بهدف التأثير على هؤلاء الذين لم تنضج أفكارهم بعد، فقليل من الناس من يرغبون في أن يكونوا ضمن المناهضين لحرية الاختيار أو معارضين للحياة. وبالفعل تعتبر الحرية والحياة قيمتين من القيم التي نعتز بها، ويبدو أنهما في هذه القضية يتعارضان جوهرياً.

دعنا ننظر لكلا الموقفين المطلقين على التوالي ، المولود الجديد هو بالتأكيد نفس الكائن قبل الولادة مباشرة، وهناك أدلة قوية على أن الجنين في الفترة الأخيرة من الحمل يستجيب للصوت ، بما في ذلك الموسيقى، ولكن بشكل خاص لصوت أمه، يمكن أن يمص إبهامه أو يؤدي حركة شقلبية. ويكون لديه أحيانا مخططات موجات مخ البالغين، ويزعم البعض بأنهم يتذكرون مولدهم أو حتى بيئة الرحم، وربما يكون هناك تفكير في الرحم، ومن الصعب التأكد من أن التحول إلى الشخصية الكاملة يتم فجأة عند لحظة الولادة، لماذا إذن يعتبر قتلا التخلص من مولود جديد بعد يوم من ولادته وليس قبل ذلك بيوم واحد؟

من الناحية العملية ليس ذلك بالغ الأهمية: أقل من ١ في المائة من كل عمليات الإجهاض المسجلة في الولايات المتحدة تحدث في الأشهر الثلاثة الأخيرة من الحمل (ومع فحص أكثر دقة يتبين أن أغلب هذه الأحداث تعود إلى الإجهاض أو إلى خطأ التقدير). لكن الإجهاض خلال الفترة الثالثة من الحمل^(*)

(*) كل فترة ثلاثة أشهر (المترجم) .

يتيح اختباراً لحدود وجهة النظر المتبينة لحق الاختيار. هل يشمل "حق المرأة الطبيعي في التحكم في جسدها" حق قتل جنين في فترة الحمل القريبة من الولادة والذي يعتبر - من حيث كل الأغراض والغايات - مطابقاً لمولود جديد؟ نعتقد أن كثيراً ممن يدافعون عن حرية التناسل ينزعجون ولو أحياناً من هذا السؤال ، لكنهم معارضون لطرحه لأنه بداية منحدر زلق، إذا كان من المحذور إجهاض حمل في الشهر التاسع، فماذا عن الثامن، السابع، السادس؟ إذا سلمنا بأن الجهات المسؤولة يمكنها التدخل في "أى" وقت في الحمل ألا يعنى ذلك أنه يمكنها التدخل خلال كل الأوقات؟

يستحضر ذلك شبخ الهيمنة الذكورية وهيمنة كثير من المشرعين عندما يطلبون من النساء الفقيرات أن يتحملن ويربين بمفردهن أطفالاً لا يتحملن تربيتهن، ويرغمون المراهقات على تحمل أطفال لسن مستعدات عاطفياً للتعامل معهم، قائلين للنساء اللائى يرغبن في ممارسة مهنة أنه يجب عليهن التخلي عن أحلامهن والبقاء في المنزل وتربية الأطفال الصغار والأسوأ من ذلك، يحكمون على ضحايا الاغتصاب وسفاح القربى برعاية وتربية نسل من اغتصبوهن^(٩) ، وتثير تشريعات حظر الإجهاض الشك في أن هدفها الحقيقي هو التحكم في استقلال النساء وشتونهن الجنسية. لماذا يكون للمشرعين أى حق بالمرّة لأن يوجهن النساء إلى كيفية التعامل مع أجسادهن؟ الحرمان من حرية التناسل هو حط من قدر المرأة. والنساء طفق بهن الكيل من تلقى الأوامر.

إضافة إلى ذلك فإننا جميعاً نعتقد بضرورة وجود قوانين ضد القتل وعقوبات صارمة ضد من يرتكبه. وسيكون دفاعاً مهلهلاً أن يتراجع القاتل عن نفسه قائلاً إن الأمر بينه وبين صحبته فقط وليس من شأن الحكومة التدخل فيه. فإذا كان قتل جنين هو حقاً عملية قتل لكائن بشري، أليس من "واجب" الدولة منعه؟ هذا صحيح لأن أحد المهام الرئيسية للحكومة حماية الضعيف من القوى.

(٩) اثنان من أكثر المدافعين عن حق الحياة نشاطاً عبر كل الأزمنة هما هتلر وستالين - حيث بمجرد وصولهما إلى السلطة جرّما عمليات الإجهاض التي سبق تقنينها، وفعل نفس الشيء موسوليني وتشاوسسكي وعدد كبير آخر من الحكام الاستبداديين القوميين والطلاة، ولم يكن ذلك في حد ذاته ضمن نزاع حول حق الاختيار، لكنه ينبهنا إلى احتمال أن الوقوف ضد الإجهاض قد لا يكون دائماً جزءاً من التزام عميق تجاه الحياة البشرية.

إذا لم نعارض الإجهاض عند "بعض" مراحل الحمل، ألا يوجد خطر من نبذ فئة كاملة من الكائنات البشرية باعتبارها لا تستحق أن نضفى عليها حمايتنا واحترامنا؟ وأليس هذا النبذ هو السمة المميزة للتمييز على أساس الجنس، والتمييز العنصري، والنزعة القومية، والتعصب الديني؟ أليس من الواجب على من يحاربون هذه الأعمال الظالمة أن يحذروا بشدة لكي لا يقبلوا عملاً ظالماً آخر؟

ليس هناك حق للحياة في أي مجتمع على الكرة الأرضية في عصرنا هذا، ولم يكن موجوداً في أي زمن سابق (مع استثناءات قليلة نادرة مثل ما هو موجود لدى اليانين^(*) في الهند): نرى حيوانات المزرعة للذبح، تدمر الغابات، نلوث الأنهار والبحيرات حتى يستحيل على الأسماك العيش فيها، نقتل الأيل والإلكة (أيل أو ظبي من أكبر الأيائل موجود في أوروبا وآسيا) من أجل الرياضة، والنمور من أجل جلودها، والحيتان من أجل المخصبات، نوقع الأفيال في الشباك وهي تلهث وتتلقى الماء في شباك أسماك التونة الضخمة، نضرب جراء عجول البحر حتى الموت، ونجعل جنساً من الكائنات الحية منقرضاً كل يوم، كل هذه الحيوانات والنباتات تتصف بالحياة مثلنا تماماً، وليس المحمي "حسب زعمنا" هو الحياة لكنه الحياة "البشرية".

وحتى مع هذه الحماية يعتبر القتل العرضي حادثاً مألوفاً يرتبط بالمدن، ونشن حروباً "تقليدية" تنتج عنها خسائر رهيبة حتى أننا جميعاً، أو أغلبنا، نخشى من التفكير فيها بالعمق الواجب. (ويتم غالباً تقديم تبريرات قوية للقتل الجماعي الذي تمارسه الدولة بإعادة تعريف خصومها - تبعاً للجنس، للقومية، للدين أو الأيديولوجية - ككائنات أقل من البشر). وهذه الحماية، هذا الحق في الحياة، لا يتضمن ٤٠ ألف طفل تحت سن خمس سنوات يموتون يومياً على كوكبنا لأسباب يمكن معالجتها هي المجاعة، الجفاف، المرض، والإهمال.

وهؤلاء الذين يدافعون عن "الحق في الحياة" لا يقصدون غالباً أي نوع من الحياة، لكنهم يقصدون بشكل خاص واستثنائي الحياة البشرية فقط. لذلك فإنهم أيضاً، مثلهم مثل المدافعين عن حق الاختيار - يجب عليهم أن يقرروا ما يميز بين البشر والحيوانات الأخرى، ومتى تبرز الصفات البشرية الاستثنائية، أيا كانت، خلال الحمل.

(*) اليانية : دين هندي نشأ في القرن السادس ق.م. قوامه تحرير الروح بالمعرفة والإيمان وحسن السلوك (المترجم).

رغم كثير من المزايم بعكس ذلك ، لا تبدأ الحياة بالحمل : فهي سلسلة متصلة تعود إلى ما يقرب من نشوء الأرض ، ٦,٤ بليون عام في الماضي ، ولا تبدأ حياة "الإنسان" عند الحمل : فهي سلسلة ممتدة تعود إلى نشوء جنسنا، مئات الآلاف من السنوات في الماضي ، وكل حيوان منوي أو بويضة كائن حي بما لا يدع مجالاً للشك ، ليسا كائنات بشرية بالطبع، ومن ناحية أخرى يمكن القول أن البويضة المخصبة ليست كذلك أيضاً.

لدى بعض الحيوانات تنمو البويضة إلى حيوان بالغ في صحة جيدة بدون عون من خلية المنى. لكن هذا لا يحدث - في حدود علمنا - لدى البشر. فالحيوان المنوي والبويضة غير المخصبة يولفان معاً المخطط الوراثي الكامل للكائن البشري، وتحت ظروف معينة، يمكن لهما - بعد الإخصاب - أن يتطورا إلى طفل صغير. لكن أغلب البويضات المخصبة تجهض تلقائياً. والنمو إلى مرحلة الطفل الصغير مكفولة بلا شك. ولا يعدو الحيوان المنوي والبويضة منفصلين ولا البويضة المخصبة كونهما طفلاً "محتملاً" أو بالغاً "محتملاً". لذلك إذا كان الحيوان المنوي والبويضة على نفس الدرجة من البشرية مثل البويضة المخصبة الناتجة عن اجتماعهما، وإذا كان تدمير البويضة المخصبة يعتبر قتلاً - رغم حقيقة أنها مجرد طفل "محتمل" - لماذا لا يكون قتلاً تدمير حيوان منوي أو بويضة؟

يتم إنتاج مئات الملايين من الخلايا المنوية (المندفعة بسرعة قصوى بذيولها: خمس بوصات في الساعة) عند القذف المتوسط للمنى لدى الإنسان. ويمكن للشباب المتمتع بالصحة أن ينتج في أسبوع أو أسبوعين من الحيوانات المنوية ما يكفي لمضاعفة تعداد البشر على الكرة الأرضية ، فهل يمكن اعتبار الاستمناء قتلاً بالجملة؟ فماذا عن القذف الليلي أو مجرد الجنس الصرف؟ وعندما يتم التخلص من البويضة غير المخصبة كل شهر، هل مات أحد؟ هل يجب علينا أن نعلن الحداد على كل عمليات الإجهاض التلقائية تلك؟ يمكن لكثير من الحيوانات الأدنى أن تنمو في المختبر من خلية جسم منفردة ، ويمكن استنساخ الخلايا البشرية (ربما يكون الأكثر شهرة في هذا المجال مستنسخ هيللا حسب اسم المانحة هيلين لان). وحسب تقنية الاستنساخ هذه، هل يمكن اتهامنا بالقتل الجماعي عند تدمير أي خلايا قابلة للاستنساخ؟ أو عند إراقة نقطة دم؟

كل الحيوانات المنوية والبويضات الإنسانية أنصاف وراثية لكائنات بشرية "محتملة" ، هل يجب بذل مجهودات خارقة لإنقاذها جميعاً أو المحافظة عليها، حيثما كانت، بسبب هذا "الاحتمال"؟ وهل الفشل فى إنجاز ذلك شىء غير أخلاقى أو إجرام؟ بالطبع هناك فرق بين القضاء على حياة والفشل فى إنقاذها، وهناك فرق كبير بين احتمال بقاء خلية منوية واحتمال بقاء بويضة مخصبة ، لكن سخف تصور فرقة بالغة الذكاء من المحافظين على المنى تدفعنا إلى الشك فى ما إذا كان مجرد " احتمال " أن تصبح البويضة المخصبة طفلاً يجعل تدميرها قتلاً حقيقياً.

ويخشى خصوم الإجهاض من أنه بمجرد السماح بالإجهاض بعد الحمل مباشرة، لن يكون هناك مبرر لحظره فى أى وقت لاحق خلال الحمل. لذلك فإنهم يخافون من أن يأتى وقت يُسمح فيه بقتل الجنين الذى لا يُشك فى كونه كائناً بشرياً ، وكل من المدافعين عن حق الاختيار والمدافعين عن حق الحياة (على الأقل بعض منهم) مدفوعون إلى أقصى تطرف فى المواقف بسبب مخاوف متماثلة من المنحدر الزلق.

ويصل إلى منحدر زلق آخر المدافعون عن حق الحياة الراغبون فى استثناء حالة العذاب الشديد من الحمل الناجم عن الاغتصاب أو سفاح المحارم ، فلماذا يجب أن يكون حق الحياة معتمداً على "ظروف" الحمل؟ وإذا كان مثل هذا الطفل سيخرج إلى الحياة، هل يمكن للدولة أن تقضى بحياة نسل زواج قانونى بينما تقضى بالموت بالنسبة لنسل جاء من حمل بالعنف أو من حمل قسرى ؟ كيف يمكن أن يكون ذلك عدلاً ؟ وإذا تم التوسع فى الاستثناءات بحيث تتضمن هذا الجنين، فلماذا يتم منعها عن أى جنين آخر؟ هذا جزء من الأسباب التى تجعل بعض المدافعين عن حق الحياة يتبنون ما يعتبره كثيرون غيرهم موقفاً متطرفاً فى معارضة الإجهاض فى أية ظروف وفى كل الظروف – وقد يكون الاستثناء الوحيد عندما تتعرض حياة الأم للخطر^(*).

(*) يعارض مارتين لوثر، (مؤسس البروتستانتية) ، حتى هذا الاستثناء: "إذا أصيب بالتعب أو حتى فقدن حياتهن خلال حمل الطفل ، لا يهم ذلك. دعهن يمتن فيما هو مثمر – هذا هو هدف وجودهن" (لوثر، Vom Ebelichen Leben 1522) .

وكثيراً ما يكون السبب الأكثر شيوعاً للإجهاض على المستوى العالمى تنظيم النسل ، لذلك ألا يجب على المعارضين للإجهاض إتاحة موانع الحمل وتعليم أطفال المدارس كيفية استخدامها؟ ستكون تلك طريقة فعالة للإقلال من عدد عمليات الإجهاض ، وبدلاً عن ذلك تعتبر الولايات المتحدة متأخرة عن البلدان الأخرى فى تطوير وسائل آمنة وفعالة لتنظيم النسل ، وفى حالات كثيرة تأتى المعارضة لهذه الدراسات (ولتعليم الجنس) من نفس الناس الذين يعارضون الإجهاض^(١) .

لمحاولة التوصل إلى حكم أخلاقى قوى لا التباس فيه حول الوقت الذى يكون فيه الإجهاض مسموحاً به، إذا كان هناك أساساً مثل هذا الوقت، جذور تاريخية قديمة. وتلك المحاولات كانت فى أحوال كثيرة - خاصة فى التعاليم المسيحية - متصلة بالسؤال حول موعد دخول الروح إلى الجسم - وهو أمر ليس سهل التحقيق بالنسبة للبحث العلمى وموضوع خلافى حتى بين اللاهوتيين المتعلمين، يمكن الجزم بأن نفخ الروح يحدث فى المنى قبل الحمل، وفى الحمل عند وقت "دبيب الحياة" (عندما تستطيع الأم للمرة الأولى الشعور بالجنين يتحرك حركة ضئيلة فى بطنها)، وعند الميلاد. أو حتى بعد ذلك.

للأديان المختلفة تعاليم مختلفة، لم يكن هناك بين الصيادين الجامعين عادة حظر ضد الإجهاض، الذى كان شائعاً فى اليونان القديمة وروما ، وعلى العكس كان الآشوريون الأكثر تطرفاً يقتلون على الخازوق النساء اللاتى يحاولن الإجهاض. وترى تعاليم التلمود اليهودى أن الجنين ليس شخصاً وليست له حقوق، ولا يتضمن العهد القديم ولا الجديد - الغنيان بتفاصيل التحريمات المدهشة حول الملابس والطعام والكلمات المباحة - كلمة تحظر الإجهاض بشكل خاص. والفقرة الوحيدة المتصلة بالموضوع من بعيد (سفر الخروج ٢١ : ٢٢) تقضى بأنه فى حالة القتال إذا أصيبت امرأة غير مشاركة فى القتال صدفة وأدى ذلك إلى سقوط جنينها، يجب على المعتدى عليها أن يدفع غرامة.

(*) بالمثل، ألا يجب على المدافعين عن حق الحياة حساب الميلاد من لحظة الحمل وليس من لحظة الولادة؟ ألا يجب أن يستجوبوا بدقة آباءهم وأمهاتهم عن تاريخهم الجيسى؟ قد يكون هناك بالطبع بعض الشك الذى لا يمكن تجنبه: قد يحتاج الأمر إلى ساعات أو أيام بعد الاتصال الجيسى حتى يحدث الحمل (وهى صعوبة بشكل خاص بالنسبة للمدافعين عن حق الحياة الذين يرغبون أيضاً فى التلاعب بدوائر بروج التنجيم).

ولا يعتبر أى من القديس أوغسطين أو القديس توما الأكويني الإجهاض فى الفترة المبكرة من الحمل قتلا (وبالنسبة للجنين الأكبر عمرا على أساس أنه لا "يشبه" الإنسان). وتم تبنى وجهة النظر تلك بواسطة الكنيسة فى مجمع كنسى فيينا فى ١٣١٢، وهو ما لم يتم التنازل عنه أبدا، وتقضى أول مجموعة تستمر طويلا من القوانين الكنسية للكنيسة الكاثوليكية (تبعاً للتعاليم التاريخية الرئيسية حول الإجهاض، جون كوني وجيمية يسوع) بأن الإجهاض كان يعتبر قتلا فى حالة وحيدة فقط بعد أن يكون الجنين قد "تشكل" فعلا، بالتقريب عند نهاية الفترة الأولى من الحمل^(*).

لكن عندما تم اكتشاف خلايا المنى فى القرن السابع عشر بالميكروسكوبات الأولى، بدأ الاعتقاد بأنها كائنات بشرية كاملة متشكلة، وانتعشت فكرة قديمة عن القزم (حيث يوجد فى كل خلية منى إنسان كامل بالغ الصغر، ويوجد داخل خصيته أقزام أخرى لا يمكن إحصاء عددها، وهلم جرا، إلى ما لا نهاية) ويشكل جزئى تسبب هذا التفسير الخاطيء للمعلومات العلمية فى أن أصبح الإجهاض فى ١٨٦٩ فى أى وقت ولأى مبرر سببا فى الحرمان الكنسى، ومن المدهش لأغلب الكاثوليك والآخرين اكتشاف أن هذا التاريخ ليس بالغ القدم.

من عصر المستعمرات^(**) حتى القرن التاسع عشر، كان الخيار فى الولايات المتحدة للمرأة حتى "دبيب الحياة"، وكان الإجهاض فى الفترة الأولى للحمل أو حتى الثانية جنحة فى أسوأ الأحوال. وكان من النادر السعى إلى الإدانات وكان من المستحيل عادة الحكم فيها، لأنها تعتمد بشكل كامل على شهادة المرأة نفسها بما إذا كانت قد شعرت بدبيب الحياة أو لا، وبسبب نفور المحلفين من محاكمة امرأة على ممارسة حقها فى الاختيار، وفى ١٨٠٠ لم يكن هناك - كما هو معروف - أى قانون أيا كان فى الولايات المتحدة يختص بالإجهاض. وكان من الممكن أن تجد إعلانات عن العقاقير التى تغرى بالإجهاض فى كل الصحف

(*) الفترة ثلاثة أشهر (المترجم).

(**) المستعمرات الثلاث عشرة الأصلية المكونة للولايات المتحدة الأمريكية (المترجم).

تقريباً وحتى فى كثير من مطبوعات الكنيسة ، رغم أن اللغة المستخدمة كانت ذات تعبيرات لطيفة مناسبة، إذا كان متفقاً عليها على نطاق واسع.

ولكن مع ١٩٠٠ تم حظر الإجهاض فى "أى" وقت خلال الحمل بواسطة كل الولايات فى الاتحاد، إلا إذا كان ضرورياً لإنقاذ حياة المرأة، ما الذى حدث لكى يتم هذا الانقلاب المدهش ؟ كانت علاقة الدين بذلك شبه منعدمة. كانت التحولات الإقتصادية والاجتماعية العنيفة تحوّل هذا البلد من مجتمع زراعى إلى مجتمع صناعى مدينى. كانت أمريكا فى خضم عملية تغيير من بلد لديه أحد أعلى معدلات المواليد فى العالم إلى أحد البلدان ذات المعدلات الأقل انخفاضاً. ولعب الإجهاض بالتأكيد دوراً وحث عديداً من القوى إلى حظره.

كانت أحد أهم تلك القوى من المهنة الطبية ، حتى منتصف القرن التاسع عشر كان الطب عملاً بدون إجازة رسمية وبدون رقابة. كان يمكن لأى شخص أن يمارس المهنة ويطلق على نفسه (أو على نفسها) لقب الطبيب ، ومع ظهور نخبة طبية جديدة تلقت تعليماً جامعياً، توافقة إلى تعزيز وضع ونفوذ الأطباء، تم تأسيس الاتحاد الطبى الأمريكى ، وفى السنوات العشر الأولى من تأسيسه بدأ الاتحاد تشكيل جماعات ضغط ضد الإجهاض الذى يتم إجراؤه عن طريق أى شخص باستثناء الأطباء المرخص لهم، وكما يقول الأطباء فإن المعارف الجديدة فى مجال علم الأجنة أظهرت أن الجنين إنسان حتى قبل دبيب الحياة.

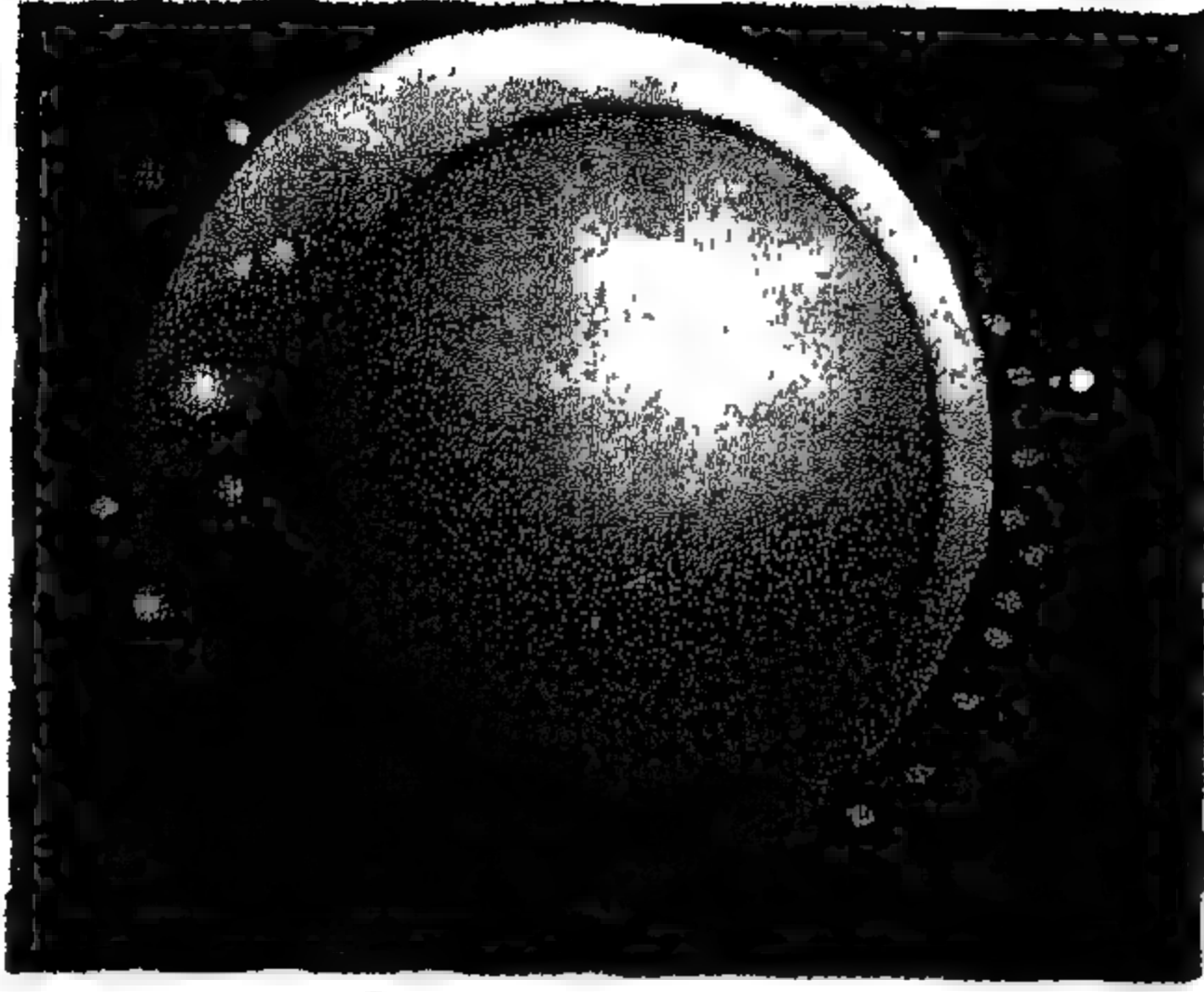
ولم يكن هجومهم على الإجهاض مدفوعاً بالاهتمام بصحة المرأة، ولكن - حسب قولهم - كان لصالح الجنين. عليك أن تكون طبيباً لكى تعرف متى يكون الإجهاض مبرراً أخلاقياً، لأن القضية تعتمد على حقائق علمية وطبية لا يفهمها سوى الأطباء ، وفى نفس الوقت، كانت النساء ممنوعات فعليا من دخول المعاهد الطبية، حيث يمكن اكتساب هذه المعرفة الملغزة. لذلك - تبعاً لمجرى الأمور - لم يكن للنساء ما يقررنه عادة حول إنهاء حملهن، كان على الطبيب أيضاً تقرير ما إذا كان الحمل يحمل تهديداً للمرأة أو لا، وكان تقرير ما هو تهديد وما لا يمثل تهديداً ضمن حرية التصرف التام للطبيب ، وبالنسبة للمرأة الثرية قد يكون التهديد موجهاً إلى هدوئها العاطفى أو حتى إلى أسلوب حياتها. وكانت المرأة الفقيرة مضطرة غالباً إلى أن تستعين بأرض زلقة أو منحدر لتجهض نفسها.

كانت تلك هي القاعدة حتى الستينيات، عندما فكر ائتلاف بين الأفراد والمنظمات - كان الاتحاد الطبي الأمريكى من بينها - فى إسقاط هذه القاعدة والعودة إلى القيم الأكثر تقليدية وهو ما تم تحقيقه فى قضية روى فى. فاد.

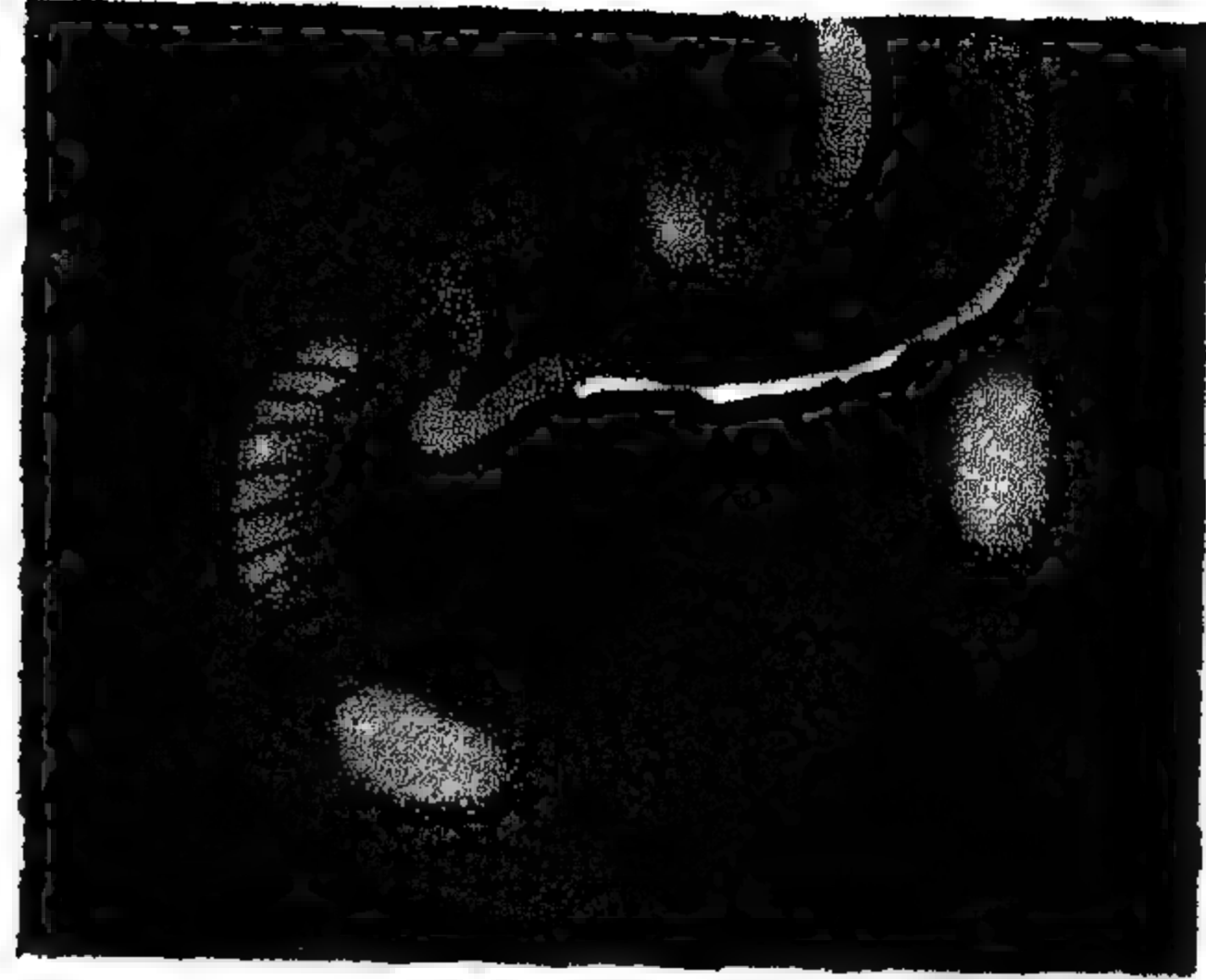
إذا قتلت إنسانا بشكل متعمد يطلق على ما فعلته قتلا ، إذا قتلت شيمبانزيا متعمداً - وهو من الناحية البيولوجية أقرب أقاربنا حيث يشاركنا فى ٩٩,٦ فى المائة من جيناتنا الفعالة - فأيا كان ما فعلته فلا يعتبر قتلا ، وحتى الآن، يصح القتل فقط فى حالة قتل الكائن البشرى ؛ لذلك فإن السؤال حول وقت ظهور الشخصية (أو إذا شئنا، نفخ الروح) يعتبر أمراً مهماً فى الجدل الدائر حول الإجهاض. متى يصبح الجنين إنساناً؟ متى تظهر الصفات الواضحة المميزة للإنسان؟

نعرف أن تحديد لحظة دقيقة يغفل الفروق الفردية ؛ لذلك إذا كان علينا أن نضع حداً، يجب أن يتم وضعه بحذر ؛ أى يكون هذا الحد فى الجانب المبكر من الحمل ، هناك من الناس من يعارضون أهمية وضع نوع من الحد الرقمى، ونحن نشاركهم قلقهم، لكن إذا كان لابد من قاعدة فى هذا الشأن، وأنها ستتيح بعض المقارنة المفيدة بين الموقفين المتطرفين، فإنها ستحدد - بشكل تقريبي على الأقل - وقت التحول من انعدام الشخصية إلى وجودها.

يبدأ كل منا من نقطة، ويصل حجم البويضة المخصبة تقريباً إلى نقطة الوقف فى نهاية هذه الجملة، ويحدث اللقاء بالغ الأهمية بين المنى والبويضة بشكل عام فى إحدى قناتى فالوب ، تصبح الخلية الواحدة خليتين، والإثنيتان أربعاً ، وهكذا... نمو أسى حسابى قاعدته ٢. وفى اليوم العاشر تكون البويضة المخصبة قد أصبحت نوعاً من الكرة المجوفة ترحل إلى مملكة أخرى هى الرحم، وتحطم النسيج خلال مسارها ، وتمتص الدم من الشعيرات، وتغسل نفسها بدم الأم، حيث



خلية بويضة بشرية بعد الإخصاب مباشرة
محاطة جزئياً بخلايا المنى المتسابقة .
ولم يصل بعد ٣٠٠ مليون متسابق لن
يحالفه الحظ



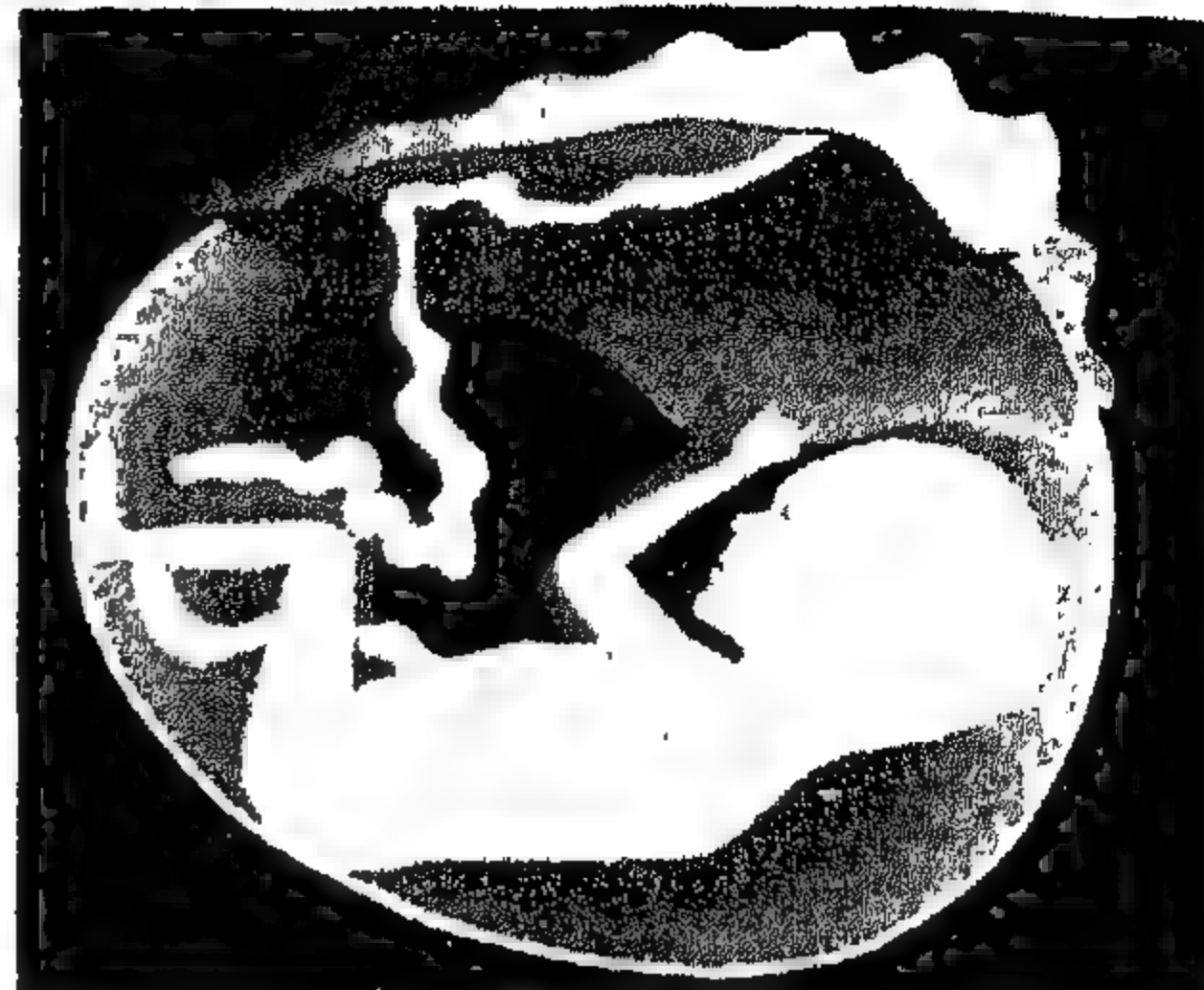
جنين بشرى بعد ثلاثة أسابيع من الحمل ،
فى حجم سن قلم الرصاص ، برأس على
اليمين . ويمتد التجزؤ إلى ما يشبه ذيل
البرودة

تستخرج منه الأكسجين والمواد الغذائية ، وتؤسس نفسها كنوع من الطفيل على
جدران الرحم^(*).

* فى الأسبوع الثالث - بالتقريب زمن أول دورة طمث - يكون طول الجنين
المتشكل نحو ملليمترين وتتطور عنه أجزاء الجسم المختلفة، وفى هذه المرحلة
فقط يبدأ فى الاعتماد على المشيمة الأولية ، ويشبه إلى حد ما الدودة المجزأة.

* مع نهاية الأسبوع الرابع، يكون طول الجنين قد أصبح نحو ٥ ملليمترات
(نحو ١/٥ بوصة)، يمكن التعرف عليه الآن كفقارى، حيث يبدأ قلبه الشبيه

(*) ينتقد عدد من مطبوعات الجناح اليميني والتعصب المسيحي هذا التصور - على أساس أنه يعتمد على عقيدة
بحتة، يطلق عليها الإعادة المختصرة *recapitulation*، التى تعود إلى عالم بيولوجيا ألماني فى القرن
التاسع عشر. كان إرنست هاكيل يرى أن خطوات التطور الجنيني الفردي للحيوان يستعيد (أو يعيد باختصار)
المراحل التطورية لتطور أسلافه. وتمت معالجة الإعادة المختصرة بشكل كامل وشكوكى بواسطة عالم
البيولوجيا التطورية ستيفن جاى جولد (فى كتابه تطور الفرد *Ontogeny* وتطور السلالات *Phylogeny*
"كيمبردج، مساتشوستس: مطبوعات جامعة هارفارد، ١٩٧٧"). لكن مقالتنا لا تقدم كلمة حول الإعادة
المختصرة، كما سيرى قارئ هذا الفصل، وتعتمد المقارنات بين الجنين البشرى وأجنة الحيوانات (البالغة)
الأخرى على مظهر الجنين (كما هو موضح فى الشكل). ويعتبر شكله غير الإنسانى - بغض النظر عن تاريخه
التطوري - أساس المناقشة فى هذه الصفحات.



جنين بشرى فى نهاية الأسبوع الخامس
بعد الحمل . الذيل مكتف وراء برعمى
الساق. للوجه الجانبى المرئى هنا مظهر
وجه الزواحف المتميز .

جنين عمره ١٦ أسبوعا يبدو من الخارج
بشرىا تماما . لكنه لا يتحرك تلقائيا بما
يكفى لأن يتم التعرف عليه "كدبيب حياة"
ولا يمكنه البقاء حيا خارج الرحم .

بالأنبوب الفارغ فى الخفقان ، مع شىء يشبه أقواس الخيشوم مثل الأسماك
أو برمائيًا يصبح واضحًا، مع ذيل واضح ، ويكون أقرب ما يكون إلى سمندل الماء
أو فرخ الضفدع ، هذه هى نهاية الشهر الأول من الحمل.

* فى الأسبوع الخامس، يمكن تمييز التقسيمات العامة للمخ ، ويصبح واضحًا
ما سوف يتطور لاحقًا إلى عينيّن، وتظهر البراعم الصغيرة فى طريقها لأن تصبح
الذراعين والساقين.

* فى الأسبوع السادس يصبح طول الجنين ١٣ ملليمترًا (نحو ١ / ٢ بوصة)،
تظل العينان على جانبي الرأس، كما هو الحال لدى معظم الحيوانات، والوجه
الشبيه بوجه الزواحف يظهر فيه شقان متصلان حيث سيوجد فى آخر الأمر الفم
والأنف.

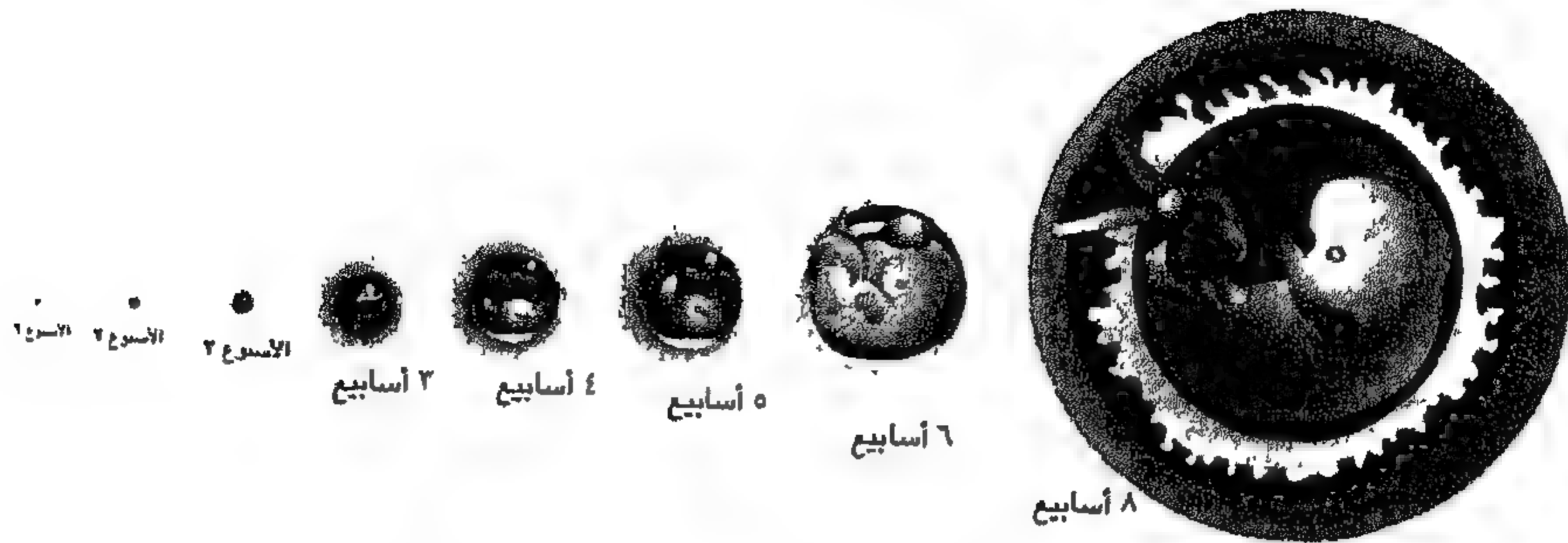
* فى نهاية الأسبوع السابع يكون الذيل قد اختفى تقريبًا، ويمكن تمييز
الصفات الجنسية (رغم أن كلا الجنسين يبدوان إناثًا). يكون الوجه شبيهًا بوجه
الثدييات لكنه يشبه وجه الخنزير إلى حد ما.

* فى نهاية الأسبوع الثامن، يشبه الوجه وجه الحيوانات الرئيسية من الثدييات لكنه لم يصبح بشرياً تماماً، تكون معظم أجزاء الجسم البشرى موجودة من حيث عناصرها الأساسية، ويكون بعض التركيب الداخلى للمخ الأدنى قد تطور تماماً . يظهر لدى الجنين بعض ردود الفعل الانعكاسية بالنسبة للمثيرات الرقيقة.

* فى الأسبوع العاشر، يكون للوجه هيئة بشرية واضحة، عندئذ يمكن تمييز الذكور عن الإناث، ولا تكون الأظافر والهيكل العظمية قد اتضحت حتى يصل عمر الجنين إلى الشهر الثالث.

* فى الشهر الرابع يمكنك التمييز بين وجه جنين وآخر، ويمكن بشكل عام الشعور غالباً بدبيب الحياة فى الشهر الخامس، لا تكون شعبيات الرئتين قد بدأت فى التطور حتى يصل الجنين تقريباً إلى الشهر السادس، وتظهر الحويصلات الرئوية لاحقاً.

من هنا، إذا كان هناك شخص ما سيتم قتله، متى يكون للجنين شخصية؟ ومتى يصبح وجهه بشرياً دون ريب، بالقرب من نهاية فترة الحمل الأولى؟ ومتى يصبح الجنين قابلاً للاستجابة للمنبهات – أيضاً فى نهاية الفترة الأولى؟ متى يصبح نشيطاً إلى درجة يمكن الإحساس معها بدبيب الحياة فيه، على نحو نموذجى فى منتصف فترة الحمل الثانية ؟ متى تصل الرئتان إلى مرحلة من التطور كافية لأن يستطيع الجنين – ولو لمجرد التصور – التنفس بنفسه فى الهواء الخارجى ؟



مراحل فى تطور البويضة المخصبة والجنين خلال الأسابيع الثمانية بعد الحمل. يظهر فى أقصى اليسار البويضة التى تم تخصيبها توا، تحتوى على ٤٦ كروموسوما - المخطط الجينى كاملاً، نصفه يعود إلى المنى والنصف إلى البويضة. وكل رسم من الرسوم المتتالية يلى السابق له بأسبوع بعد الحمل، ماعدا الشكل الأخير، الذى يعبر عن الأسبوع الثامن. وبعد أن تمر المراحل بما يشبه الدودة، البرمائيات، الزواحف، ثم الثدييات الدنيا، وفى الأسبوع الثامن تظهر ملمح الرئيسيات (النسناس، القرود، الإنسان). ويمر مزيد من الأشهر قبل ظهور الرئتين وبدايات أنشطة المخ الإنسانى المميزة.

وليست المشكلة مع هذه التطورات الخاصة المحورية فى نمو الجنين مجرد أنها كيفية، حيث يأتى مزيد من المشاكل من حقيقة عدم تضمن أى منها على صفات "بشرية فريدة" - باستثناء الأمر الظاهرى الخاص بشكل الوجه، كل الحيوانات يكون لديها رد فعل للمنبهات وتسير تبعاً لإرادتها الخاصة، وعدد كبير منها يمكنه التنفس، لكن ذلك لا يوقفنا عن ذبحها بالبلايين، ليست ردود الفعل الانعكاسية والحركة والتنفس ما يجعلنا بشراً.

لبعض الحيوانات الأخرى ميزات لا نملكها - فى السرعة، القوة، طاقة الاحتمال، ومهارات التسلق أو حفر الجحور، التنكر، الرؤية أو الشم أو السمع، التفوق فى الجو أو الماء. ميزتنا العظيمة الوحيدة، وهى سر نجاحنا - هى التفكير، التفكير البشرى بشكل خاص. نستطيع التفكير فى الأمور وما تتضمنه، تخيل الأحداث التى لم تقع بعد، الحكم على الأمور. وهذا هو سبب ابتكارنا للزراعة والحضارة، التفكير هو نعمتنا ويلاؤنا، وهو الذى جعلنا على ما نحن عليه.

يتم التفكير بالطبع فى المخ ، بشكل رئيسى فى الطبقات العليا من "المادة الرمادية" الملفوفة التى يطلق عليها القشرة الدماغية. ويشكل نحو ١٠٠ بليون وحدة عصبية فى المخ المادة الأساسية للتفكير ، والوحدات العصبية متصلة كل منها بالأخرى، والوصلات بينها تلعب دوراً أساسياً فيما نمارسه كتفكير ، لكن الاتصال بين الوحدات العصبية على المقياس الكبير لا يبدأ إلا بين الأسبوعين ٢٤ و ٢٧ من الحمل (الشهر السادس).

بوضع أقطاب كهربائية غير ضارة على رأس الشخص، يمكن للعلماء قياس النشاط الكهربائى الناتج من شبكة الوحدات العصبية داخل الجمجمة. وتُنتج الأنواع المختلفة من النشاط العقلى أنواعاً مختلفة من موجات المخ. لكن موجات المخ ذات الأنماط النموذجية لمخ الإنسان البالغ لا تظهر لدى الجنين حتى يصل عمره إلى نحو ٣٠ أسبوعاً من الحمل (قرب بداية فترة الحمل الثالثة) والأجنة الأقل عمراً من ذلك - أيا كانت درجة حيويتها ونشاطها - تنقصها بنية المخ الضرورية. لا يمكنها التفكير بعد.

والإذعان لقتل أى كائن حي - خاصة ذلك الذى قد يصبح لاحقاً طفلاً - هو أمر مزعج ومؤلم. لكننا رفضنا التطرفين "دائماً" و"أبداً"، وهذا يضعنا - أردنا أو لم نرد - على منحدر زلق. وإذا أردنا اختيار معيارٍ تطورى ، يكون هذا هو الموضع الذى رسمنا عنده حداً : عندما يبدأ التفكير المميز للبشر فى أن يصبح ممكناً بشكل واضح.

إنه فى الحقيقة تعريف معتدل تماماً: يندر وجود موجات المخ المنتظمة لدى الأجنة، وقد يساعد فى هذا المجال مزيد من الأبحاث. (لا تبدأ أيضاً موجات المخ الواضحة تماماً لدى قرد البابون الجنينى و جنين الغنم إلا متأخرة بالنسبة للحمل). إذا أردنا أن نجعل المعيار محوطاً بمزيد من الصرامة، لنتيح تطوراً مناسباً مبكراً للمخ الجنينى، يجب أن نضع الحد عند ستة أشهر. وهذا ما حدث، وهو ما وضعته المحكمة العليا فى ١٩٧٣ - رغم أن ذلك تم لأسباب مختلفة تماماً.

أدى قرارها فى قضية روى فى. واد إلى تغيير قانون الإجهاض الأمريكى. فقد سمحت بالإجهاض عند طلب المرأة ذلك بدون قيود فى فترة الحمل الأولى، وببعض القيود الرامية إلى المحافظة على صحتها فى فترة الحمل الثانية. وتنص دائما على منع الإجهاض فى فترة الحمل الثالثة، إلا إذا كان هناك تهديد خطير لحياة أو صحة المرأة، وفى قرار ويسترفى ١٩٨٩، رفضت المحكمة العليا بصراحة إسقاط روى فى. واد لكنها فى واقع الأمر دعت المشرعين فى ٥٠ ولاية إلى اتخاذ القرارات المناسبة لهم.

ما الحجج الموجودة فى قضية روى فى. واد؟ لم تكن هناك قيمة قانونية مكفولة لما يحدث للأطفال بمجرد ولادتهم ولا للعائلة، وكان البديل أن حق المرأة فى حرية الإنجاب مكفول كما أقرت المحكمة، بالضمانات الدستورية المتعلقة بالخصوصية، لكن هذا الحق لم يكن قاطعا، يجب وضع ضمان خصوصية المرأة وحق الجنين فى الحياة فى الحساب - وعندما وضعت المحكمة تقديرها تم إعطاء أولوية للخصوصية فى الفترة الأولى من الحمل وللحياة فى الفترة الثالثة. وتم إقرار هذا التحول بدون ارتباط بأى من الاعتبارات التى أوردناها بقدر الإمكان فى هذا الفصل - ليس عندما يحدث "نفخ الروح"، أو عندما يصبح لدى الجنين البشرى ما يكفى من الصفات لكى تتم حمايته قانوناً من القتل. وبدلاً من ذلك تبنى المعيار ما إذا كان الجنين قادراً على الحياة خارج بطن الأم أو لا. ويطلق على ذلك "القابلية للحياة خارج الرحم" التى تعتمد جزئياً على القدرة على التنفس، وتكون الرئتان غير متطورتين تماماً، ولا يمكن للجنين أن يتنفس - بغض النظر عن مدى تطور رئة صناعية قد يتم إمداده بها - حتى الأسبوع ٢٤ تقريباً، قريباً من بداية الشهر السادس، وهذا هو سبب سماح روى فى. واد للولايات بمنع الإجهاض فى الفترة الأخيرة من الحمل. وهو معيار عملى تماماً.

إذا كان الجنين فى مرحلة معينة من الحمل قادراً على الحياة خارج الرحم - كما تقول المبررات - عندئذ يتغلب حق الجنين فى الحياة على حق المرأة فى

الخصوصية ، لكن ماذا تعنى "القدرة على الحياة" بالضبط؟ حتى المولود الجديد الذى أكمل فترات الحمل ليس قادرًا على الحياة بدون قدر كبير من الرعاية والحب. وفى وقت سابق على ظهور أجهزة الحضانة - منذ عدة عقود خلت فقط - لم يكن من المرجح حينئذ لمواليد الشهر السابع أن يكونوا قادرين على الحياة ، فهل كان الإجهاض فى الشهر السابع مباحا فى ذلك الوقت؟ وبعد اختراع أجهزة الحضانة هل أصبح إجهاض الحمل فى الشهر السابع غير أخلاقي فجأة؟ ماذا يحدث إذا تم - فى المستقبل، ابتكار تقنية جديدة تجعل فى قدرة رحم اصطناعى أن يمد جنينا بأسباب الحياة حتى قبل الشهر السادس بإمداده بالأكسجين والمواد الغذائية من خلال الدم - كما تفعل الأم من خلال المشيمة إلى الدورة الدموية للجنين؟ ونحن نسلم بأن تلك التقنية ليس من المرجح إنجازها قريبًا ولكن قد تتاح للكثيرين ، ولكن إذا كانت متاحة، هل يصبح من غير الأخلاقي إجراء إجهاض أكثر تبكيرًا من الشهر السادس، فى الوقت الذى كان فيه ذلك أخلاقيًا فيما سبق؟ إن المبادئ الأخلاقية التى تعتمد على التغيرات التابعة للتقنية هى مبادئ هشة، وبالنسبة للبعض تعتبر أيضًا غير مقبولة أخلاقيًا.

ولماذا على وجه التحديد يجب أن يكون التنفس (أو أداء الكلية لوظائفها أو القدرة على مقاومة المرض) مبررًا للحماية القانونية؟ وإذا اتضحت قدرة الجنين على التفكير والشعور مع عجزه عن التنفس، هل من المسموح به قتله فى هذه الحالة؟ هل نعطى للتنفس قيمة أكثر من التفكير والشعور؟ ولا يمكن لحجج القابلية للحياة - كما يبدو لنا - أن تحدد بشكل منطقي متى تكون عمليات الإجهاض مسموحًا بها؟ فهناك حاجة لبعض المعايير الأخرى. ومرة أخرى، عرضنا للبحث البداية الأولى للتفكير الإنسانى لتكوين هذا المعيار.

وحيث إنه فى المتوسط يبدأ التفكير لدى الجنين فى وقت أكثر تأخرًا عن ظهور الرئتين لدى الجنين، نرى أن "روى فى. واد" قرار جيد وحصيف فيما يتعلق بموضوع معقد وصعب ، ومع قرارات حظر الإجهاض فى فترة الحمل الأخيرة - إلا فى حالات الضرورة الطبية المهمة - فإن هذا القرار يحقق توازنًا مناسبًا بين المطالب المتعارضة للحرية والحياة.

عندما ظهرت هذه المقالة فى " باراد " كان معها إطار يتضمن ٩٠٠ رقم تليفونى للقراء للتعبير عن رأيهم فى موضوع الإجهاض. واتصل عدد مدهش من القراء وصل عددهم إلى ٣٨٠ ألف شخص. كان متاحا لهم الإدلاء بأرائهم حول أربعة خيارات: "الإجهاض فور الحمل جريمة"، "من حق المرأة اختيار الإجهاض فى أى وقت خلال الحمل"، "يجب السماح بالإجهاض خلال الأشهر الثلاثة الأولى من الحمل"، و"يجب السماح بالإجهاض خلال الأشهر الستة الأولى من الحمل". وتظهر باراد يوم الأحد، وفى يوم الاثنين كانت الآراء موزعة بشكل جيد بين تلك الخيارات الأربعة. وحينئذ ظهر يوم الاثنين مستر بات روييرتسون (المبشر المسيحى المتعصب والمرشح الجمهورى الرئاسى فى ١٩٩٢) فى برنامج التلفزيونى اليومى المنتظم، مطالباً أتباعه بإنقاذ باراد "من الهراء" والرد برسالة واضحة مؤداها أن التخلص من خلية بشرية ملقحة يعتبر قتلاً ، وهذا ما فعلوه. وتهمين المنظمة السياسية على موقف حق الاختيار عمومًا لدى معظم الأمريكين - كما توضح استطلاعات الرأى المتتالية المنظمة ديموجرافيا - وكما تعكسه نتائج الـ ٩٠٠ رقم تليفونى السابق ذكرها.

الفصل السادس عشر

قواعد اللعبة

كل ما هو صحيح أخلاقياً ينبع من أحد المصادر الأربعة التالية :
إما يتعلق بتطور إدراكى وعقلانى حول ما هو حقيقى ،
أو بالمحافظة على مجتمع منظم، حيث كل إنسان يقدم واجبه
وحيث كل الالتزامات تؤدى بإخلاص، أو بعظمة وقوة روح نبيلة
لا تُقهر، أو بنظام فى كل ما يقال ويُفعل مع عدم التطرف، وينتج
عن ذلك الاعتدال وضبط النفس.

شيشرون

رسميون De Officiis ١ وه (٤٥ - ٤٤ ق. م)

أتذكر نهاية يوم طويل مثالى فى ١٩٢٩ - يوم كان له تأثير شديد
على تفكيرى - ذلك اليوم الذى اصطحبنى فيه والدى إلى سوق
نيويورك العالمى ، كان الوقت متأخراً، بعد موعد نومى بكثير.
وجالساً فى عليائى بأمان فوق كتفى أبى ، ممسكاً بأذنيه، وأمى
بجانبنى لزيادة طمأنينتى، عكفت على النظر إلى المبنى الضخم على
هيئة كرة ويرج^(*) Trylon and Perisphere, المجسمات المعمارية للسوق ،

(*) كان البرج يرتفع إلى نحو ٧٠٠ قدماً والكرة قطرها ٢٠٠ قدم فى معرض نيويورك ١٩٢٩ ، رمزاً للتصميم الحديث ،
حيث يستطيع الزوار التجول داخل أدوار الكرة الداخلية لمشاهدة عروض لتقنيات عالم المستقبل (المترجم) .

وهى مضاءة بالألوان الزرقاء الفاتحة ذات الوميض . كنا نفوص
فى المستقبل، "عالم الغد"، من خلال قطار "بى.إم.تى" للأنفاق.
عندما توقفنا مؤقتاً لإعادة تنظيم ما نحمله، انكب أبى على الحديث
مع رجل قصير مرهق يحمل صينية حول عنقه، كان يبيع أقلام
رصاص، بحث أبى داخل كيس ورقى بنى مجعد يحتوى على بقايا
وجباتنا، وأخرج تفاحة أعطاها لرجل الأقلام الرصاصية. انطلقت
فى نحيب مرتفع، وكرّمت التفاح فوراً، ورفضت تناوله فى الغداء
والعشاء، ومع ذلك كان لى ولع بالملكية تجاهه ، لقد كانت تفاحتى
التي منحها أبى توا لغريب عجيب الشكل الذى - لكى يضاعف
مصيبتى - كان يحمل الآن بدون ود تجاهى.

رغم أن أبى كان شخصاً ذا حلم وحنان غير محدودين تقريبا، كنت
أراه غير راض عني. رفعنى إلى أعلى وتشبث بى مشدوداً إليه.

"إنه عامل فقير عاطل" هكذا قال لى - بصوت على درجة من الخفوت
حتى لا يسمعه الرجل - "إنه لم يأكل طوال اليوم. لدينا ما يكفى.
يمكننا إعطاؤه تفاحة".

أعدت النظر، كظمت نشيجى، وألقيت نظرة كثيبة أخرى على "عالم
الغد"، ثم انهزت نائماً فى اطمئنان بين ذراعى أبى.

صاحبنا المبادئ الأخلاقية الهادفة إلى تنظيم السلوك البشرى ليس فقط منذ
فجر الحضارة ولكن أيضاً كانت موجودة بين أسلافنا الصيادين الجامعين فى
مجتمعات راقية ما قبل التحضر، وربما فى وقت أقدم. للمجتمعات المختلفة
مبادئ مختلفة، وكثير من الحضارات تقول شيئاً وتفعل غيره. وفى قليل من
المجتمعات السعيدة يضع المشرع الملهم مجموعة من القوانين لتنظيم الحياة (فى
الغالب الأعم لا يكون مطلوباً أن تكون حسب تعليمات من إله) والتي بدونها يقل
من قد يتبعون القواعد). مثال لذلك قوانين أشوكا (الهند)، هامورابى (بابل)،
ليكورجاس Lycurgus (أسبارطة)، وصولون (أثينا)، التي أخرت حينئذ تدهور
حضارات قوية، حضارات تعتبر الآن منقرضة إلى حد بعيد. ربما تكون تلك

القوانين قد أساءت تقدير الطبيعة البشرية وطالبتنا بالكثير جدًا. وربما تكون تجربة فترة زمنية ما أو ثقافة ما لا يمكن تطبيقها كاملة على فترة مختلفة أو ثقافة أخرى.

من المدهش أن توجد في أيامنا الراهنة جهود - مؤقتة لكنها ظاهرة للعيان - لمعالجة هذا الموضوع بشكل علمي، أي تجريبيًا.

في حياتنا اليومية - كما هو الحال في العلاقات المهمة جدًا بين الدول - يجب أن نقرر: ماذا يعنى أن نفعل الشيء الصحيح؟ هل يجب أن نساعد غريبًا فقيرًا؟ كيف نتعامل مع عدو؟ هل حدث أن خدعنا مرة شخصًا تعامل معنا بعطف؟ إذا أصابنا صديق بضرر، أو ساعدنا عدو، هل يجب أن نرد عليه بود، أم أن مجمل ما تعودناه من سلوك في الماضي يتغلب على أي انحرافات راهنة عن القاعدة؟

أمثلة: إذا تجاهلت زوجة أخيك^(*) صدك لها ودعتك إلى عشاء عيد الميلاد، هل تقبل؟ ولكسر توقف طوعي امتد أربع سنوات في العالم كله، استأنفت الصين تجارب الأسلحة النووية، فهل نفعل ذلك؟ بكم يجب علينا أن نتبرع للعمل الخيري؟ يفتصب الجنود الصرب نساء البوسنة بشكل منتظم، فهل على الجنود البوسنيين أن يفتصبوا نساء الصرب بشكل منتظم؟ بعد قرون من الاضطهاد، قدم رئيس الحزب القومي إف. دبليو. دي كليرك عروضًا لحزب المؤتمر القومي الإفريقي، هل يجب أن يستجيب لذلك نلسون مانديلا وحزب المؤتمر؟ يجعلك زميل عمل تبدو سيئًا أمام رئيس العمل، هل عليك أن تتأمر؟ هل علينا أن نحتال في عائدات ضرائب الدخل؟ إذا كان في استطاعتنا أن نفعل ذلك وننجو من المساءلة؟ إذا دعمت شركة نفط أوركسترا سيمفوني أو رعت عملاً دراميًا تلفزيونيًا راقياً، هل علينا أن نتجاهل تلويثها للبيئة؟ هل يجب علينا أن نكون رحماء بأقاربنا المسنين، حتى لو كانوا يجعلوننا مخبولين؟ هل يمكنك الغش في ألعاب الورق؟ أو على نطاق أوسع؟ هل يجب أن نقتل القتلة؟

خلال اتخاذ مثل هذه القرارات، لا ينصب اهتمامنا فقط على أن نفعل ما هو صحيح ولكن أيضًا حول ما هو الخيار الفعّال - الذي يجعلنا وبقية أفراد المجتمع

(*) أو أخت زوجتك (المترجم).

أكثر سعادة وأكثر أماناً. هناك علاقة صراع بين ما نطلق عليه أخلاقياً وما نصفه بأنه نفعى. فإذا كان السلوك الأخلاقى - ولو فى المدى البعيد، ضاراً فى حد ذاته - لن نصفه فى آخر الأمر بأنه أخلاقى بل بأنه سلوك أحقق. (قد يصل الأمر إلى أن ندعى احترامه من حيث المبدأ لكننا نتجنبه فى الممارسة). مع الأخذ فى الاعتبار تنوع وتعدد السلوك البشرى ، هل هناك أية قواعد بسيطة - سيان وصفناها بأنها أخلاقية أو نفعية - تكون فعالة؟

كيف نقرر ما علينا عمله؟ تتحدد استجاباتنا تبعاً لمصلحتنا الشخصية كما ندركها. يكون رد فعلنا ودياً أو بفعل مضاد لأننا نأمل أن يحقق لنا ذلك ما نريد ، تجمع الدول الأسلحة النووية أو تفجرها حتى لا تستخف بها البلدان الأخرى ، ونرد بالعمل الطيب فى مواجهة سوء لأننا نعرف أنه يمكننا بذلك أحياناً أن نثير شعور الناس بالعدل، أو نشعرهم بالحياء عندما نكون مهذبين تجاههم ، لكننا فى بعض الأحيان لا نكون مدفوعين بدوافع أنانية. ويبدو أن بعض الناس ودودون بشكل طبيعى ، قد نقبل ما يغضبنا من والدين مسنين أو من أطفال، لأننا نحبههم ونريد لهم السعادة، حتى لو كان ذلك على حساب راحتنا إلى حد ما. وقد نكون أحياناً صارمين مع أطفالنا ونسبب لهم قليلاً من التعاسة، لأننا نرغب فى تشكيل شخصياتهم ونعتقد أن النتائج بعيدة المدى سوف تجلب لهم المزيد من السعادة أكثر من ألم المدى القصير.

تختلف الحالات، ويختلف الناس والدول، ومعرفة كيفية التغلب على هذه المتاهة هو جزء من الحكمة. لكن إذا وضعنا فى اعتبارنا تنوع وتعدد السلوك البشرى، فهل توجد بعض القواعد البسيطة - سيان وصفناها بأنها أخلاقية أو منفعية - ذات فعالية عملية؟ أم أن علينا تجنب محاولة التفكير فى ذلك والاكتفاء بفعل ما نراه صحيحاً، ولكن حتى فى هذه الحالة كيف "نحدد" ما "نراه صحيحاً"؟.

معيار السلوك الذى يلاقى أفضل إعجاب - على الأقل فى الغرب - هو القاعدة الذهبية، التى تعود إلى يسوع الناصرة. يعرف الجميع صيغتها فى إنجيل القرن الأول للقديس متى : **عامل الآخرين كما تحب أن يعاملوك به** ، ولا يتبع أحد غالباً هذه القاعدة ، عندما تم سؤال الفيلسوف الصينى كونج - تزي (المعروف فى الغرب بكونفوشيوس) فى القرن الخامس قبل الميلاد، كان رأيه عن القاعدة الذهبية (التي

كانت معروفة تمامًا حينئذ)، حول الرد على الأذى بمعروف، أجاب "عندئذ بماذا ترد على المعروف؟". هل على المرأة الفقيرة التي تحسد جيرانها على ثروتهم أن تهب الأغنياء القليل الذي تملكه؟ لا تضع القاعدة الذهبية في حساباتها الاختلافات بين البشر. هل نحن حقًا قادرون، بعد تلقي صفة على خدنا - أن ندير الخد الآخر لكي يتلقى هو الآخر صفة أخرى؟ ومع عدو متحجر القلب، ألا يكون ذلك كافيًا بمزيد من المعاناة؟

القاعدة الفضية مختلفة: لا تعامل الآخرين بما تحب ألا يعاملوك به. يمكن العثور عليها أيضًا في العالم كله، بما في ذلك كتابات رابي هيليل, Rabbi Hillel في جيل ما قبل المسيح. والنموذجان الأكثر إثارة في القرن التاسع عشر بالنسبة للقاعدة الفضية هما موهانداس غاندى ومارتن لوثر كينج الأصغر. فقد نصحا الشعوب المضطهدة ألا يردا على العنف بالعنف، على ألا يكونا أيضًا مدعنين أو مطيعين، كانا يؤيدان التمرد المدنى بدون عنف، تعرض نفسك للخطر، لتقدم الدليل، بتلقى العقاب إرادياً لتحدى قانون ظالم، على أن قضيتك عادلة، كان لديهما أمل في تليين قلوب مضطهديهم (وهؤلاء الذين لم يستقر عزمهم بعد على موقف ما).

أشاد كينج بغاندى حيث إنه كان أول شخص في التاريخ يحول القاعدتين الذهبية والفضية إلى أداة مؤثرة في مجال التغيير الاجتماعى، وأوضح غاندى المصدر الذى أتت منه طريقته: "تعلمت درس اللاعنف من زوجتى، عندما حاولت إخضاعها لإرادتى، كانت مقاومتها الحاسمة لإرادتى من ناحية، وإذعانها الهادئ لما تجلبه حماقتى من معاناة لها من ناحية أخرى، سبباً فى خجلي البالغ من نفسى شفانى من حماقتى فى الظن بأننى قد ولدت لكى أسيطر عليها".

أنجز التمرد المدنى بدون عنف تغييراً سياسياً مهماً فى هذا القرن - بتحرر الهند من الحكم البريطانى وبتحفيز وصول الاستعمار التقليدى إلى نهايته على المستوى العالمى، وبإتاحة بعض الحقوق المدنية للأمريكيين الأفارقة - رغم أن التهديد بالعنف بواسطة آخرين، رغم تنصل غاندى وكينج منه، من المحتمل أن يكون قد ساهم أيضاً فى ذلك. نما حزب المؤتمر القومى الأفريقى على تراث غاندى، ولكن مع الخمسينيات كان من الواضح أن عدم العنف وعدم التعاون

لم يؤدي إلى تقدم على الإطلاق في موقف حزب البيض القومي الحاكم ؛ لذلك أسس نلسون مانديلا ورفاقه في ١٩٦١ الجناح المسلح لحزب المؤتمر، أمكونتو وي سيزوي Umkhonto we Sizwe، حرية الوطن، على أسس غير غاندية بأي وجه مؤداها أن الشيء الوحيد الذي يفهمه البيض هو القوة.

حتى غاندي كان يجد مشقة في التوفيق بين قاعدة عدم العنف وضروريات الدفاع في مواجهة من يتصفون بقواعد سلوك أقل نبلاً : "ليس لدى مؤهلات تعليم فلسفتي عن الحياة. لدى مجرد مؤهلات لممارسة الفلسفة التي أعتنقها، لست سوى روح فقيرة تناضل لكي تستحق أن توجد .. الصدق الكامل واللاعنف التام في التفكير والكلمة والفعل، ولكن مع عدم الكف أبداً عن محاولة تحقيق ما هو مثالي".

"الرد على المعروف بالمعروف" هكذا قال كونفوشيوس "ولكن الرد على الشر بالعدالة " قد يمكن تسمية ذلك بالقاعدة النحاسية : اسلك تجاه الآخرين كما يسلكون تجاهك . إنها العدالة العقابية lex talionis "العين بالعين والسن بالسن" إضافة إلى "كل سلوك حسن يستحق مثله". وهو معيار شائع في السلوك البشري الفعلي (ولدى الشيمبانزي). "إذا مال العدو إلى السلام فمل أنت أيضاً إلى السلام" (*) هذا ما اقتبسه الرئيس بيل كلينتون من القرآن خلال اتفاقيات السلام الإسرائيلية الفلسطينية. وبدون اللجوء إلى مناشدة الطبيعة الأفضل لدى شخص ما، نضع نوعاً من الاشتراط الفعال، بمكافأته إذا كان مهذباً معنواً ومعاقبته إذا لم يكن كذلك، لسنا خصوصاً يسهل التغلب عليهم لكننا أيضاً لسنا ممن لا يصفحون. وذلك يعطي انطباعاً يبشر بالنجاح في التعامل. أو أنه من الصحيح أن "الخطأين لا يصنعان صواباً"؟

من الصياغات الأقل قيمة القاعدة الحديدية: **افعل ما تريده بالآخرين من قبل أن يفعلوا بك ما يريدون.** وتصاغ أحياناً على هيئة "من يملك الذهب يضع القواعد"، في إطار التأكيد ليس فقط اختلافها عن القاعدة الذهبية ولكن أيضاً ازدياداً لها. هذه هي قاعدة السلوك السرية لدى الكثيرين، إذا ضمنوا اتباعها دون عقاب، والمبدأ السلوكي المسكوت عنه غالباً لدى الأقوياء.

(*) ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْنَحْ لَهَا﴾ (المترجم).

وفى النهاية على أن أشير إلى القواعد الأخرى، الموجودة فى عالم الحياة برمته. وهى تشير إلى جوانب سلوكية كثيرة: إحداها هى تملق من هم أعلى منك، وتعسف مع من هم دونك مكانة. هذا هو شعار المتنمرين والمعيار السلوكى لدى كثير من مجتمعات الحيوانات الرئيسية غير البشرية ، إنها حقاً القاعدة الذهبية لدى الأرفع منزلة والقاعدة الحديدية لدى الأقل مرتبة ، وحيث إنه لا يوجد خليط معروف بين الذهب والحديد، سنطلق عليها القاعدة القصديرية نظراً لمرونتها. والقاعدة الأخرى الشائعة هى أعط أولوية فى كل شيء لأقرب الأقارب، واصنع ما شئت مع الآخرين. وقاعدة محاباة الأقارب هذه معروفة لدى علماء البيولوجيا باسم "انتقاء الأنساب".

رغم سميتها العملية الواضحة ، هناك عيب قاتل فى القاعدة النحاسية : ثأر لا ينتهى . حيث لا يهم كثيراً من الذى يبدأ بالعنف. العنف يولد العنف ، ولدى كل طرف سبب فى كراهيته للآخر. "ليس هناك طريق إلى السلام" كما قال إيه. جى. موست. "السلام هو الطريق". لكن السلام صعب والعنف سهل ، حتى لو كان كل شخص تقريباً يرغب فى إنهاء الثأر، حيث يمكن لفعل واحد يمثل عقوبة أن يحرك الثأر من جديد: مثل بكاء أرملة قريب ميت وأطفال يلفهم الحزن أمام أعيننا ، يتذكر الرجال والنساء العجائز الفظائع التى تعود إلى طفولتهم ، وعدد معقول منا يحاول المحافظة على السلام، لكن الغاضبين منا يصرخون طلباً للانتقام ، ويمكن للمتطرفين بين زمرتين متحاربتين الاعتماد على بعضهم البعض ، فهم متحالفون ضد البقية منا، يزدرون نداءات التفاهم وحب الشفقة، ويمكن لقليل من المتهورين دفع حشد من الناس أكثر حكمة وعقلاً إلى الأعمال الوحشية والحرب.

كان كثيرون فى الغرب مسحورين بالاتفاقيات المروعة مع أدولف هتلر فى ميونيخ عام ١٩٣٨ لدرجة أنهم كانوا عاجزين عن التمييز بين التعاون والاسترضاء. وبدلاً من تقويم كل إيماءة واقتراح بما يستحقه فى حد ذاته، قررنا فحسب أن الخصم شرير تماماً، وأن كل تنازلاته معروضة بسوء نية، وأن القوة هى الشيء الوحيد الذى يفهمه، ربما كان ذلك هو الحكم الصحيح بالنسبة إلى هتلر. لكنه ليس الحكم الصحيح بشكل عام، حيث تمنيت لو أن غزو راينلاند^(*) قد تمت

(*) مقاطعة سابقة فى ألمانيا ، أغلبها غرب الراين (المترجم).

معارضته بقوة ؛ لأن هذا الغزو عزز العداء على كلا الجانبين وجعل النزاع مرجحاً أكثر من أى موقف آخر. وفى عالم تنتشر فيه الأسلحة النووية يحمل العداء المتصلب مخاطر خاصة وأخرى منذرة بكوارث رهيبة جداً.

الخروج من سلاسل طويلة من عمليات الانتقام، كما أرى، أمر بالغ الصعوبة. وهناك مجموعات عرقية أضعفت نفسها إلى حد الانقراض لأنه ليس لديها آلية للهروب من هذه الدائرة المغلقة، مثال لذلك الكينجانبج فى الهضاب البرازيلية. وتعطى القوميات المتحاربة فى يوغسلافيا السابقة ورواندا وفى أماكن أخرى مزيداً من الأمثلة لذلك. ولا تتسم القاعدة النحاسية بالصفوح. وتتيح القاعدة الحديدية ميزة للأقلية القاسية القوية ضد مصالح أى شخص آخر. وتبدو القاعدتان الذهبية والفضية مبالغتين فى الرضا عن النفس، وتفشلان بشكل منهجى فى معاقبة الوحشية والاستغلال. حيث تزرعان أملاً فى انتزاع الناس بلطف من الشر إلى الخير بأن توضحاً لهم أن المعروف ممكن ، لكن هناك مرضى اجتماعياً لا يهتمون كثيراً بشعور الآخرين، ومن الصعب تصور هتلر أو ستالين يخجل ويتخلص من الخطيئة بسبب مثال طيب ، هل هناك قاعدة بين القاعدتين الذهبية والفضية من ناحية والنحاسية والحديدية والقصديرية من ناحية أخرى، يمكن أن تكون أفضل من أى قاعدة منفردة؟

ومع كل هذه القواعد الكثيرة المختلفة، كيف يمكنك اختيار ما تستخدمه منها، تلك القاعدة التى تكون أيضاً فعالة؟ وقد يتم استخدام أكثر من قاعدة حتى لدى الشخص الواحد أو البلد الواحد ، هل قدر علينا فقط تخمين هذا الأمر، أو التعويل على البديهية، أو مجرد التردد كالهبغاء لما تعلمناه؟ دعنا نحاول أن نضع جانباً، ولو فى موقفنا هذا فقط، القواعد التى تعلمناها أياً كانت صحتها، وتلك القواعد التى نشعر تجاهها بحماس ما – ربما لإحساس متأصل عميق لدينا بالعدالة.

افتراض أننا نبحث ليس فقط عن تأكيد أو نفي ما تعلمناه ، ولكن أن نجد ما يكون ذا فعالية حقيقية. هل هناك طريقة لاختبار المبادئ الأخلاقية المتنافسة ؟ ومع العلم بأن العالم الحقيقى قد يكون أكثر تعقداً بكثير من أى تصور، هل يمكننا التعامل مع هذا الموضوع بشكل علمى؟

تعودنا أن نلعب مباريات يكسب فيها البعض ويخسر البعض ، وكل نقطة يحرزها خصمنا تدفعنا نحو المزيد من التراجع. تبدو مباريات "فوز - هزيمة" طبيعية، ويجد كثير من الناس صعوبة كبيرة فى التفكير فى مباريات ليست من نوع فوز - هزيمة ، وفى مباريات الفوز - الهزيمة، قد يتعادل فقط الفائزون والمهزومون، لذلك تسمى مباريات "إجمالى صفر". ليس هناك غموض فى أهداف خصمك: ضمن قواعد المباراة، سيفعل ما يستطيعه لهزيمتك.

يصاب كثير من الأطفال بالذعر عندما يواجهون فى الواقع كونهم فى الجانب "المهزوم" فى مباريات الفوز - الهزيمة ، وعلى حافة إفلاس فى لعبة بنك الحظ Monopoly يتضرعون من أجل إعفاءات خاصة (التوقف عن دفع الإيجارات مثلاً)، وإذا لم يكن ذلك متاحاً فقد يتهمون المباراة - متباكين - بأنها عديمة الرحمة ووحشية - وهى بالطبع كذلك. (رأيت رقعة اللعب مقلوبة وقد تم إلقاء بطاقات الفنادق وبطاقات "اليانصيب" والعملات المعدنية على الأرض بغضب بالغ وخزى - ولم يكن الأطفال فقط هم الذين يفعلون ذلك). وضمن قواعد لعبة الحظ ليست هناك طريقة أمام اللاعبين للتعاون لكى يستفيد الجميع ، ليس لهذا الغرض تم تصميم المباراة ، ونفس الشئ صحيح فى الملاكمة، كرة القدم، الهوكى، كرة السلة، البايسبول، اللكروس^(*)، التنس، الراكيت، الشطرنج، كل الألعاب الأولمبية، سباقات اليخوت والسيارات، البيناكل^(**) . لعبة البلية potsie وتحزب السياسيين، ولا توجد فى أى من هذه المباريات فرصة لممارسة القاعدتين الذهبية والفضية، ولا حتى النحاسية، هناك مجال فقط للقاعدتين الحديدية والقصديرية. إذا كنا نبجل القاعدة الذهبية، لماذا هى بهذه الندرة فى المباريات التى نعلمها لأطفالنا؟

بعد مليون عام من الحروب المتقطعة بين القبائل، بدأنا التفكير عن طيب خاطر إلى حد ما فى صيغة (الإجمالى صفر)، ومعالجة كل تفاعل على أنه خلاف

(*) لعبة يحاول المشتركون فيها تسديد الكرة بمضارب طويلة المقابض إلى مرمى الخصم (المترجم) .
(**) لعبة بورق الشدة للاعبين أو أربعة لاعبين تلعب ب ٤٨ ورقة لعب وتسجل النقاط بتكوين مجموعة أوراق معينة (المترجم) .

أو صراع. ومع ذلك فإن الحرب النووية (وكثيراً من الحروب التقليدية)، الكساد الاقتصادي، والاعتداءات على البيئة العالمية، كلها قضايا "هزيمة - هزيمة". والاهتمامات الإنسانية الحيوية مثل الحب، الصداقة، الأبوة والأمومة، الموسيقى، الفن، والسعى إلى المعرفة هي قضايا "فوز - فوز"، وتصبح تصوراتنا هزيلة بشكل خطير إذا كان كل ما نعرفه هو الفوز - الهزيمة.

ويطلق على المجال العلمي الذي يتعامل مع هذه الأمور نظرية المباراة (*) game theory وتستخدم في التكتيكات والاستراتيجيات الحربية، السياسة التجارية، المنافسة بين الشركات، الحد من التلوث البيئي، والتخطيط للحرب النووية، والمباراة النموذجية هي معضلة السجين Prisoner,s Dilemma . وهي لا تشبه البتة (إجمالي صفر). حيث فوز - فوز، فوز - هزيمة، وهزيمة - هزيمة كلها نتائج الاحتمالات. وتحمل الكتب "المقدسة" تبصرات قليلة مفيدة بالنسبة للاستراتيجية هنا، حيث إننا أمام مباراة نفعية تمامًا.

تخيل أنك وصديقاً لك تم القبض عليكما لارتكابكما جريمة خطيرة، ولأهداف خاصة بالمباراة ليس من المهم أن تكون أنت أو هو أو كلاكما قد ارتكبها. والمهم هو أن الشرطة تقول إنها تظن أنك الذي ارتكبتها. قبل أن يكون لدى أي منكما الفرصة للموازنة بين الحكايات أو تخطيط استراتيجية، تم وضعكما في زنزانتي استجواب منفصلتين. وهناك، وأنت غافل عن حقوق ميراندا ("لك الحق في البقاء صامتاً....") (**)، يحاولون دفعك إلى الاعتراف. أخبروك - كما تفعل الشرطة أحياناً - أن صديقك اعترف وورطك. (يا لبعض الأصدقاء!). قد تكون الشرطة تقول الحقيقة، أو قد تكون كاذبة، ومسموح لك فقط بالإجابة بـ بـريء أو مذنب، إذا كانت لديك الرغبة في قول أي شيء، ما أفضل مسلك بالنسبة لك لكي تخفض العقوبة إلى حدها الأدنى؟

(*) تحليل رياضي يقرر أصلح السياسات (المترجم).

(**) حسب قرار المحكمة العليا الأمريكية التي يتطلب إبلاغ الشخص الموقوف بحقه في التزام الصمت وحقه في الحصول على الاستشارة القانونية (المترجم).

هاهى نتائج الاحتمالات :

إذا أنكرت ارتكاب الجريمة و(بدون معرفة لديك) أنكرك صديقك أيضًا ارتكابها، فقد يكون من الصعب إثبات الدعوى، وفى مفاوضات الدفع ستكون عقوبة كل منكما ضئيلة جدًا.

إذا اعترفت وكذلك فعل صديقك، سيكون الجهد المطالبة به الدولة لحل لغز الجريمة صغيرًا ، وفى المقابل قد يحكم على كل منكما بحكم خفيف تمامًا، رغم أنه لن يكون بخفة الحكم فى حالة إصرار كل منكما على أنه برىء.

لكن إذا أجبت بأنك برىء واعترف صديقك، سوف تطلب الدولة أقصى عقوبة لك وأقل عقوبة (أو لا عقوبة ألبتة) لصديقك. هذا هو الأمر إذن! أنت معرض تمامًا إلى نوع من الخيانة، وهو ما يطلق عليه علماء نظرية المباراة "التخلى deflection" وصديقك معرض لنفس الشيء.

لذلك إذا "تعاونت" أنت وصديقك معًا، فأجاب كل منكما بأنه برىء (أو أجبتما بأنكما مذنبان) – فإن كليكما سينجو مما هو أسوأ. هل تلعب المباراة من جانبها الآمن لتضمن نطاقًا متوسطًا من العقوبة بالاعتراف؟ عندئذ، إذا أجاب صديقك بأنه برىء بينما اعترفت أنت بأنك مذنب، حسنًا، الأمر بالغ السوء بالنسبة إليه وقد تنجو أنت سالمًا.

عندما تتدبر الأمر فى مجمله، ستأكد من أنه أيًا كان ما يفعله صديقك فإنه من الأفضل لك أن تتخلى عن أن تتعاون ، ويثير الجنون أن نفس الأمر صحيح بالنسبة لصديقك، لكن إذا تخلى كل منكما فإن وضعكما سيكون أسوأ مما إذا تعاونتما، هذه هى معضلة السجين.

تصور الآن معضلة السجين وهى تتكرر، حيث يواصل كلا اللاعبين سلسلة من هذه المباريات ، فى نهاية كل مباراة سيكتشفان من خلال العقوبات الموقعة عليهما ما أجاب به الآخر، ويكتسبان خبرة حول استراتيجية كل منهما (وشخصيته)، هل سيتعلمان أن يتعاونوا فى مباراة تلو مباراة، حيث ينكر كل منهما أنه ارتكب أية جريمة؟ حتى لو كانت جائزة الوشاية بالآخر ضخمة؟

قد تحاول التعاون أو التخلي، هذا يعتمد على طبيعة مسار المباراة السابقة أو المباريات الماضية، إذا بالغت في التعاون، قد يستغل اللاعب الآخر طبيعتك الطيبة، وإذا بالغت في التخلي، سيكون من المرجح أن يتخلي عنك صديقك في أحوال كثيرة، وهذا سىء لكل منكما، تعرف أن نمط تخليك يصبح بيانات يتم إدخالها إلى اللاعب الآخر. ما هو المزيج الصحيح بين التعاون والتخلي؟ كيف تصبح طبيعة السلوك حينئذ، مثل أية مشكلة في الطبيعة، موضوعاً للبحث التجريبي.

تم استكشاف هذا الأمر خلال سلسلة مباريات كمبيوتر أوردتها عالم الاجتماع روبرت أكسيلرود من جامعة ميتشجان في كتابه المشهور "تطور التعاون"، تم وضع مجموعات سلوك في مواجهة بعضها البعض لمعرفة من الفائز في النهاية (التي تحصل على أعلى مدة سجن تراكمية)، قد تكون أبسط استراتيجية التعاون طول الوقت، بغض النظر عن الميزة التي تعقدها، أو بعدم التعاون ألبتة، بغض النظر عن الفوائد الناجمة عن التعاون، هاتان هما القاعدة الذهبية والقاعدة الحديدية. كلتاهاما تخسر دائماً، إحداهاما بسبب الزيادة في الكرم، والأخرى من فرط القسوة. الاستراتيجيات التي تتأخر عن معاقبة التخلي تخسر - جزئياً بسبب أنها ترسل إشارة بأن عدم التعاون يمكنه الفوز، والقاعدة الذهبية ليست فقط استراتيجية فاشلة، لكنها أيضاً خطيرة بالنسبة للاعبين الآخرين، الذين قد ينجحون في المدى القصير فقط لكي يتم اكتساحهم بواسطة المستغلين على المدى البعيد.

هل يجب عليك أن تتخلي في البداية، فإذا تعاون خصمك ولو مرة واحدة، تتعاون في المباريات اللاحقة؟ هل عليك أن تتعاون أولاً، فإذا تخلى خصمك ولو مرة، تتخلي في كل المباريات اللاحقة؟ هذه الاستراتيجيات تتلقى الهزيمة أيضاً. وفي هذا الوضع الذي لا يشبه الألعاب الرياضية، لا يمكنك أن تعول على أن خصمك يسعى دائماً لضررك.

يُطلق على الاستراتيجيات الأكثر فعالية في كثير من هذه السلاسل من المباريات "المعاملة بالمثل TIT-for-TAT". وهي بسيطة جداً: تبدأ بالتعاون، وفي

كل دورة لاحقة تفعل ببساطة ما فعله خصمك آخر مرة ، تعاقب التخليات، لكن بمجرد تعاون شريكك، تكون مستعدًا للصفح ونسيان الماضي. فى البداية يبدو الأمر على أنه كسب نجاح متوسط. لكن مع مرور الوقت تهزم الاستراتيجيات الأخرى نفسها، بسبب الكرم البالغ أو القسوة البالغة، وتحرز هذه الطريقة المتوسطة سبق. وباستثناء أن تكون الحركة الأولى طيبة باستمرار، فإن المعاملة بالمثل تتطابق مع القاعدة النحاسية فهي تكافئ التعاون فورًا وتعاقب التخلي بحزم (فى نفس المباراة التالية)، ولها ميزة عظيمة فى أنها تجعل استراتيجيتك واضحة تمامًا بالنسبة لخصمك. (الغموض الاستراتيجي قد يكون مهلكًا).

جدول القواعد المقترحة لاستخدامها فى الحياة	
القاعدة الذهبية	عامل الآخرين كما تحب أن يعاملوك به
القاعدة الفضية	لا تعامل الآخرين بما تحب ألا يعاملوك به.
القاعدة النحاسية	اسلك تجاه الآخرين كما يسلكون تجاهك.
القاعدة الحديدية	افعل ما تريده بالآخرين من قبل أن يفعلوا بك ما يريدون
المعاملة بالمثل	تعاون أولاً مع الآخرين، ثم اسلك تجاههم كما يسلكون تجاهك.

بمجرد أن يكون هناك عدة لاعبين يستخدمون المعاملة بالمثل، فإن المتنافسين يرتقيان المراتب معًا، ولكي تنجح يجب أن تجد استراتيجيات المعاملة بالمثل آخرين راغبين فى تبادل نفس المعاملة، حتى يمكن لهذه الاستراتيجيات أن تتعاون معها. بعد الجولة الأولى التى فازت بها القاعدة النحاسية بشكل غير متوقع، ظن بعض الخبراء أن هذه الاستراتيجية تبالغ فى الصفح ، حاولوا فى الجولة الثانية استغلالها بمزيد من التخلي ، كانوا يخسرون دائمًا.

وحتى الاستراتيجيات ذات الحنكة تميل إلى الإقلال من شأن قوة العفو والاسترضاء. تحتوى المعاملة بالمثل على مزيج مهم من النزعات : الود الأولى، الرغبة فى الصفح، وعلاقة جسورة. وأورد أكسيلرود تفوق قاعدة المعاملة بالمثل فى هذه الجولات.

ويمكن التعرف على ما يماثلها فى عالم الحيوان كله وتمت دراستها جيداً لدى أقرب أقربائنا، الشيمبانزى . وتم توضيحها وتسميتها "الإيثار التبادلى recip rocal altruism بواسطة عالم البيولوجيا روبرت تريفرس، حيث تقدم الحيوانات أنواع العطف إلى الحيوانات الأخرى متوقعة أن ترد لها هذا العطف - ليس فى كل الأوقات - ولكن فى أحوال كثيرة كافية لتجعله مفيداً. من الصعب القول بأنها استراتيجية أخلاقية ثابتة، لكنها من ناحية أخرى ليست نادرة. لذلك ليست هناك حاجة للمناظرة بين قدم القواعد الذهبية، الفضية، والنحاسية، أو المعاملة بالمثل، وأسبقية الإرشادات الأخلاقية فى "كتاب أسفار العهد القديم"، لم يتم اختراع هذا النوع من القواعد الأخلاقية فى الأصل بواسطة مشرعين بشريين مستنيرين ؛ فهى تمتد عميقة فى ماضينا التطورى. لقد صاحبت مسيرة أسلافنا منذ وقت لم نكن قد أصبحنا فيه بعد بشراً.

معضلة السجين مباراة بسيطة، والحياة الحقيقية أكثر تعقداً بكثير، فهل عندما أعطى أبى تفاحتنا إلى رجل الأقلام الرصاصية كان الأكثر ترجيحاً أن يحصل على تفاحة فى المقابل؟ وإذا حدث فليس من رجل الأقلام لأننا لن نراه أبداً مرة أخرى، لكن هل تثبت أعمال الخير واسعة الانتشار أنها اقتصادية فيحصل أبى على ترقية؟ أم أننا نهب التفاحة لأسباب عاطفية، وليس لمكافآت اقتصادية؟ وأيضاً فى ما لا يشبه حال اللاعبين فى مباراة معضلة السجين المثالية، يمارس البشر والدول فى تفاعلاتهم نزعات وراثية وثقافية فى نفس الوقت.

لكن الدروس الأساسية فى مباراة مستديرة^(*) round - robin غير بالغة الطول من نوع معضلة السجين تدور حول الوضوح الاستراتيجى، حول طبيعة الدفاع عن

(*) مباراة ينازل فيها كل من المتبارين كل متبار آخر (المترجم).

النفس فى حالة الحقء؁ وءول أهمية أهءاف المءى القرب مقارئة بأهءاف المءى البعء؁ ومخاطر كل من الاسءبءاء وقابلية الإنسان لأن يؤءع؁ وخاصة ءول علاء مجمل موضوع القواعد الءى يمكن ممارسة الءياة من ءلالها كقضية ءجرببة؁ وءرى نظرية المباراة أيضا أن المعرفة الواسعة بالتاربخ ءعءبر أءاة بقاء مهمة.

الفصل السابع عشر

جتسبرج والآن^(٥)

تم إلقاء هذه المحاضرة في ٣ يوليو ١٩٨٨ أمام نحو ٣٠ ألف شخص بمناسبة مرور ١٢٥ عامًا على معركة جتسبرج وإعادة الاحتفال "بذكرى نور السلام الأبدى" في ميدان جتسبرج الحربي القومي في جتسبرج في بنسلفانيا ، ويتم كل ربع قرن إعادة الاحتفال بذكرى السلام في جتسبرج، وكان الرؤساء ولسون وفرانكلين روزفلت وإيزنهاور من بين المتحدثين السابقين. من "استمع لما أقول": كبار الخطباء في التاريخ ، اختارها وقدم لها.

وليام سافير

(نيويورك: ديليو ديليو نورتون ١٩٩٢)

قُتل أو جُرح واحد وخمسون ألف شخص هنا - أسلاف بعضنا، إخواننا جميعًا - كان ذلك أول مثال كامل للحرب الصناعية، بأسلحة التجهيزات الآلية ونقل الرجال والعتاد بالسكة الحديدية ، كان أول تلميح لعصر لم يأت بعد ، عصرنا، إعلانًا عن إمكانية تحويل التقنية إلى الأغراض الحربية. وتم استخدام بندقية

(٥) كتابة مشتركة مع آن درويان. تم تعديل هذه المحاضرة وتحديثها من أجل هذا الكتاب.

سبنسر المرتدة هنا . وفى مايو ١٨٦٣ ، عبر منطاد استكشاف لجيش البوتوماك نهر راباهانوك وكشف تحركات جنود التحالف، وكانت تلك هى بداية الحملة العسكرية التى أدت إلى معركة جتسبرج. كان ذلك المنطاد سلف القوات الجوية وقذف القنابل الاستراتيجية والاستكشاف عن طريق الأقمار الصناعية.

تم نشر بضع مئات من قطع المدفعية خلال الأيام الثلاثة لمعركة جتسبرج ، ماذا كان عليها ان تفعل ؟ ماذا كانت عليه الحرب فى ذلك الوقت ؟ فيما يلى رواية شاهد عيان فرانك هاسكيل من ويسكونسن، الذى حارب فى ساحة القتال تلك فى صفوف جيوش الاتحاد، عن قنابل المدافع الكابوسية، التى كانت تنطلق واضحة، والرواية من خطاب إلى أبيه:

لم نكن نرى القذيفة غالباً قبل انفجارها، لكن كان يحدث أحياناً، عندما نكون فى مواجهة العدو ناظرين إلى ما فوق رؤوسنا، أن نلاحظ نذير اقترابها عن طريق هسيس طويل، الذى كان يبدو لى دائماً مثل امتداد شئ ملموس ينتهى إلى كرة سوداء واضحة للعين كما يكون الصوت واضحاً بالنسبة للإنسان ، قد تبدو القذيفة وقد توقفت وتعلقت مؤقتاً فى الهواء للحظة ثم تتلاشى فى النار والدخان والضجيج ... على مسافة لا تتجاوز عشر ياردات بعيداً عنا تنفجر قذيفة بين بعض الشجيرات حيث كان يجلس ثلاثة أو أربعة جنود ارتباط يمسون بالحياء. قتل رجلان وحصان واحد.

كانت تلك حادثة نموذجية من معركة جتسبرج، وتكرر ما يشبه ذلك آلاف المرات، كان مدى تلك الطلقات المقذوفة – التى كانت تطلقها المدافع ويمكنك مشاهدتها خلال "ذكرى جتسبرج" هذه – عدة أميال فى أفضل الأحوال. وكانت كمية المادة المتفجرة فى أغلب تلك القذائف المربعة نحو ٢٠ رطلاً – تقريباً جزء من مائة من الطن من مادة تى إن تى^(*). كانت كافية لقتل عدة أشخاص.

لكن المتفجرات الكيميائية الأكثر قوة التى استخدمت بعد ٨٠ عاماً فى الحرب العالمية الثانية، كانت القنابل الضخمة شديدة الانفجار التى تلقى من

(*) ثالث نترات التوليدون (المترجم).

الطائرة، وتم تسميتها بهذا الاسم blockbuster لأنه يمكنها تدمير صف من بيوت ومحلات تجارية block فى مدينة ، ويتم إسقاطها من طائرة بعد رحلة تمتد مئات الأميال، وتحمل كل منها نحو عشرة أطنان من مادة تى إن تى (وهو ما يصل إلى ألف ضعف أكثر الأسلحة قوة فى معركة جتسبرج) ويمكن للقنبلة الضخمة قتل بضع عشرات من الأشخاص.

بالقرب من نهاية الحرب العالمية الثانية تمامًا استخدمت الولايات المتحدة أول قنابل نووية لإبادة مدينتين يابانيتين، وكان لكل من هاتين القنبلتين اللتين تم إسقاطهما بعد رحلة امتدت إلى نحو ألف ميل، ما يساوى قوة نحو ١٠ آلاف طن من مادة تى إن تى، وهو ما يكفي لقتل عدة مئات الآلاف من البشر، هذا عن القنبلة الواحدة.

وبعد عدة سنوات طوّرت الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى أول أسلحة نووية حرارية، أول قنابل هيدروجينية، ولبعض منها حصيلة تدميرية تساوى عشرة ملايين طن من مادة تى إن تى، وهى كافية لقتل عدة ملايين من الأشخاص – القنبلة الواحدة منها – ويمكن للأسلحة النووية الاستراتيجية الآن أن تنطلق إلى أى مكان على كوكب الأرض. وأى مكان على الأرض أصبح ساحة قتال الآن.

طوّر كل من هذه الانتصارات التقنية فن القتل الجماعى بمعدل ألف ضعف. فمن جتسبرج إلى القنابل شديدة الانفجار، ارتفاع قدره ألف ضعف فى طاقة الانفجار، ومن هذه القنابل إلى القنبلة النووية، زيادة ألف ضعف، ومن القنبلة النووية إلى القنبلة الهيدروجينية، هناك أيضًا زيادة ألف ضعف. وألف ألف ألف ضعف يساوى بليونًا، فى أقل من قرن، أصبحت أكثر أسلحتنا إثارة للرعب قاتلة بمقدار بليون مرة. لكننا لم نصبح أكثر حكمة بمعدل بليون مرة خلال الأجيال التى تمتد من جتسبرج حتى جيلنا.

قد تجد الأرواح التى هلكت هنا أن المذبحة التى أصبحنا قادرين عليها لا يصح ذكرها، الآن نصبت الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتى شركا قابلا للانفجار فى كوكبنا يتمثل فى نحو ٦٠٠٠٠ رأس نووى. ستون ألف

رأس نووى! حتى جزء صغير من الترسانات الاستراتيجية يمكنه دون ريب إبادة القوتين العظميين المتنافستين، ومن المحتمل أن تدمر حضارة الكرة الأرضية، ومن الممكن أن تؤدي إلى اندثار الجنس البشرى. يجب ألا يكون لأية دولة ولا لأي شخص مثل هذه القوة، لقد نشرنا أجهزة التدمير الشامل تلك فى كل عالمنا الهش، وبررناها على أساس أنها جعلتنا آمنين ، لقد عقدنا صفقة مجنونة.

يمثل ٥١٠٠٠ ضحية هنا فى جتسبرج ثلث جيش التحالف^(١) ، وربع جيش الاتحاد. وكل هؤلاء الذين ماتوا - باستثناء واحد أو اثنين - كانوا جنوداً. والاستثناء الشهير كان مدنية فى بيتها يُعتقد أنها كانت تخبز رغيفاً، ومن خلال بابين مغلقين، تم إطلاق النار عليها وقتلها، واسمها جينى واد. لكن فى حرب نووية حرارية عالمية قد يصبح كل الضحايا تقريباً مدنيين - رجال، نساء، وأطفال، بما فى ذلك عدد ضخم من المدنيين فى دول لم تشارك فى النزاع الذى أدى إلى الحرب - بلاد بعيدة تماماً عن خط العرض الشمالى "المنطقة المستهدفة" ، قد يكون هناك بلايين مثل جينى واد ، كل من على الأرض فى خطر الآن.

فى واشنطن هناك نصب تذكارى للأمريكيين الذين قتلوا فى الحرب الرئيسية الأكثر حداثة للولايات المتحدة، تلك التى وقعت فى جنوب شرق آسيا ، هلك نحو ٥٨٠٠٠ أمريكى، ولا يبعد هذا الرقم كثيراً عن عدد الضحايا هنا فى جتسبرج. (تجاهلت - كما نفعل فى أغلب الأحيان، مليوناً أو مليونى فيتنامى، لاوى، وكمبودى الذين قتلوا أيضاً فى تلك الحرب). فكّر فى هذا النصب التذكارى القاتم، الكئيب، الجميل، المثير للمشاعر، والمؤثر، فكّر فى طوله، فى الواقع لن يكون أطول بكثير من شارع فى ضاحية. ٥٨٠٠٠ اسم، تخيل الآن أننا على درجة من الحماسة أو الغفلة جعلنا نسمح بوقوع حرب نووية، وأن يتم، بشكل ما، بناء حائط تذكارى مماثل ، كم يكون طوله حتى يستوعب أسماء كل هؤلاء الذين قد يقتلون فى حرب نووية ضخمة؟ طوله نحو ألف ميل. قد يمتد من هنا فى بنسلفانيا حتى ميسورى، ولكن بالطبع لن يكون هناك أحد ليبنيه، ولن يتاح لقلة من الناس أن تقرأ نص إحياء ذكرى الضحايا.

(١) الكونغرسالى (المترجم) .

فى ١٩٤٥ - مع قرب نهاية الحرب العالمية الثانية - كان من المفترض أن الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتى حصينان. كان لدى الولايات المتحدة - المحاطة شرقاً وغرباً بمحيطين هائلين يتعذر اجتيازهما، وشمالاً وجنوباً بجيران ضعفاء وأصدقاء - القوات المسلحة الأشد فعالية، والاقتصاد الأكثر قوة على كوكب الأرض، لم يكن هناك ما نخاف منه ؛ لذلك فقد صنعنا الرءوس النووية ونظم إطلاقها. شرعنا فى سباق مسلح مع الاتحاد السوفييتى ودفعنا هذا السباق بقوة حتى يشتد ، وعندما فعلنا ذلك أصبحت حياة كل المواطنين فى الولايات المتحدة تحت رحمة قادة الاتحاد السوفييتى ، وحتى الآن - فيما بعد الحرب الباردة ، وما بعد الاتحاد السوفييتى - إذا قررت موسكو موتنا، سنكون موتى بعد ذلك بعشرين دقيقة - وفى تماثل كامل على وجه التقريب، كان لدى الاتحاد السوفييتى أضخم جيش عامل فى العالم فى ١٩٤٥، ولم يكن هناك أى تهديدات عسكرية تشغله. انضم إلى الولايات المتحدة فى سباق التسليح النووى حتى أن حياة كل شخص الآن فى روسيا تحت رحمة قادة الولايات المتحدة . إذا قررت واشنطن أنه يجب قتلهم ، سيكونون فى عداد الموتى بعد عشرين دقيقة ؛ فحياة كل مواطن أمريكى وكل مواطن روسى الآن فى أيدي قوة أجنبية ، أقول إننا عقدنا صفقة مجنونة.

نحن _ نحن الأمريكيين ونحن الروس - أنفقنا ٤٣ عاماً وثروة قومية هائلة لكي نجعل أنفسنا معرضين بشكل متقن لإبادة فورية ، صنعنا ذلك باسم الوطنية و"الأمن القومى" حتى لا يستطيع أحد أن يلقي الاتهامات.

فى ٣ مايو ١٨٦٣ - قبل شهرين من جتسبرج - كان هناك نصر للتحالف فى معركة شانسيلورسفيل ، فى الليلة القمرية التالية للانتصار، حدث خطأ فى التعرف على الجنرال ستونول جاكسون وأركان حرب، خلال العودة إلى خطوط التحالف. وتم إطلاق النار على جاكسون مرتين، على اعتبار أنه وأركان حرب من فرسان الاتحاد - بواسطة رجاله - ومات متأثراً بجراحه.

نرتكب الأخطاء، ونقتل أنفسنا.

هناك من يزعمون أنه طالما لم تحدث حتى الآن حرب نووية غير مقصودة، فلا بد أن التدابير الوقائية المتخذة لمنع وقوع هذه الحرب كافية ، لكن منذ ثلاث

سنوات فقط شاهدنا كارثتى مركبة الفضاء شالينجر ومحطة توليد الطاقة النووية فى تشيرنوبل - نظامى تقنية راقية، أحدهما أمريكى والآخر سوفييتى، حيث تم فيهما إنفاق كميات هائلة من الهيبة القومية ، كانت هناك أسباب قوية لمنع تلكما الكارثتين. فى العام السابق، تم تقديم تأكيدات مليئة بالثقة من المسئولين فى كلا البلدين بأنه ليس من الممكن وقوع حوادث من هذا النوع ، ليس لنا أن نقلق . لن يسمح الخبراء بوقوع أية حادثة. وتعلمنا حينئذ أن هذه التأكيدات ليست ذات قيمة تذكر.

نرتكب الأخطاء، ونقتل أنفسنا.

هذا هو قرن هتلر وستالين، دليل - إذا كانت هناك حاجة إلى دليل - على أن مجنوناً يمكنه تولى زمام القوة فى الدول الصناعية الحديثة ، إذا كنا راضين بعالم فيه نحو ٦٠٠٠٠ رأس نووى ، فإننا نراهن بحياتنا على افتراض أنه لن يكون هناك قادة فى الحاضر أو فى المستقبل - عسكريون أو مدنيون - من الولايات المتحدة، الاتحاد السوفييتى، بريطانيا، فرنسا، الصين، إسرائيل، الهند، باكستان، جنوب إفريقيا، أو أى دولة أخرى قد تحصل على القوى النووية - سيخرجون فى وقت ما عن معايير الحذر الأشد صرامة ، إننا نراهن على سلامة عقولهم وورزانتهم حتى فى أوقات الأزمات الشخصية والقومية الشديدة - كلهم جميعاً، خلال كل الأوقات المقبلة - أرى أن تلك مبالغة شديدة فيما نحن مطالبون به ؛ لأننا نرتكب الأخطاء ، ونقتل أنفسنا.

هناك تكلفة لسباق التسلح النووى والحرب الباردة المصاحبة له ، ليست هذه أموراً مجانية ، فبغض النظر عن التحويل الهائل للموارد المالية والعقلية بعيداً عن الاقتصاد المدنى، وبغض النظر عن التكلفة النفسية لبعدها عن حياتنا الطبيعية تحت تهديد سيف دامكليس^(١)، كم كانت تكلفة الحرب الباردة؟

بين بداية الحرب الباردة فى ١٩٤٦ ونهايتها فى ١٩٨٩، أنفقت الولايات المتحدة (بما يساوى الدولارات فى ١٩٨٩) ما يتجاوز إلى حد كبير ١٠ تريليونات

(*) أحد رجال البلاط فى سراكوزا متملق أطرى بإفراط لباقى ديونيسيوس ، طاغية سراكوزا ، فتم وضعه أما مأدبة وفوق رأسه سيف معق بشعرة وحيدة لتعريفه بمدى الطبيعة الخطيرة لهذا اللباقة (المترجم).

دولار فى مواجهتها العالمية للاتحاد السوفييتى، ومن ضمن هذا المبلغ، تم إنفاق أكثر من ثلثه بواسطة إدارة ريجان، التى أضافت إلى الدين القومى أعباء أكثر من كل الإدارات السابقة معاً، منذ جورج واشنطن. وفى بداية الحرب الباردة، كانت البلد بكل المقاييس المهمة، بعيدة المنال عن أى قوة عسكرية أجنبية. واليوم – بعد إنفاق هذه الثروة القومية الهائلة (وبرغم انتهاء الحرب الباردة) – تتعرض الولايات المتحدة إلى إبادة فورية واقعياً.

المشروع الذى ينفق رأسماله بهذه الدرجة من التهور، وبهذا الأثر بالغ الضآلة، سيكون قد أصيب بالإفلاس منذ زمن بعيد. والمديرون الذين لا يكتشفون مثل هذا الفشل بالغ الوضوح فى سياسة الشركة لا بد أنه قد تمت إقالتهم منذ وقت بعيد بواسطة حاملى الأسهم.

ماذا يمكن للولايات المتحدة أن تفعله أيضاً بهذا المال (ليس كله، لأن الدفاع الحذر ضرورى بالطبع – لكن نصفه، مثلاً؟)، بمبلغ أكثر بقليل من ٥ تريليونات دولار، إذا تم استخدامه بشكل حاذق، كان يمكننا إنجاز تقدم ضخم تجاه التخلص من الجوع، التشرد، الأمراض المعدية، الأمية، الجهل، الفقر، وحماية البيئة، ليس فقط فى الولايات المتحدة ولكن فى العالم كله، كان يمكننا المساهمة فى جعل الزراعة العالمية مكتفية ذاتياً والتخلص من كثير من أسباب العنف والحرب. وكان يمكن إنجاز ذلك مع فوائد هائلة للاقتصاد الأمريكى، كان يمكننا شن غارة شديدة على الدين القومى، وبأقل من جزء من مائة من هذا المال كان يمكننا حشد برنامج دولى بعيد المدى لاستكشاف المريخ برحلات تتضمن بشرًا، ويمكن دعم معجزات فى الإبداعات البشرية فى مجالات الفن، العمارة، الطب، والعلم لمدة عقود بجزء صغير من هذا المال، كان يمكن للفرص فى مجالات التقنية والمقاولات أن تصبح هائلة.

هل كنا حكماء فى إنفاق كل هذه الثروة الهائلة التى نملكها فى تجهيزات ومعدات من أجل الحرب؟ وفى الوقت الراهن ما زلنا ننفق بمستويات الحرب الباردة. لقد عقدنا صفقة مجنونة، لقد حبسنا أنفسنا فى قيد قاتل مع الاتحاد السوفييتى، كل طرف مدفوع دائماً بأثام الآخر الكثيرة، مع النظر بشكل دائم تقريباً

إلى المدى القصير - حتى انتخابات الكونجرس أو الانتخابات الرئاسية التالية ،
أو حتى مؤتمر الحزب القادم - وأبدا لا تتم رؤية الصورة الشاملة.

قال دوايت إيزنهاور الذى صاحب عن قرب جماعة جتسبرج تلك "المشكلة فى
تكلفة الدفاع هى أن تقدر إلى أى مدى يمكنك الذهاب بدون أن تدمر فى الداخل ما
تحاول حمايته من الخارج". وأرى أننا نهربنا بعيدا فى هذا الاتجاه.

كيف نخرج من هذا المأزق ؟ يمكن لمعاهدة حظر تجارب شاملة أن توقف كل
تجارب الأسلحة النووية فى المستقبل، فهى المحرك التقنى الرئيسى الذى يدفع
على كلا الجانبين - سباق التسلح النووى. نحتاج إلى التخلّى عن نزوة حرب
النجوم الهدامة مرتفعة التكاليف، التى لا يمكنها حماية السكان المدنيين من
الحرب النووية وتنقص من - ولا تضيف إلى - الأمن القومى للولايات المتحدة،
إذا كنا نرغب فى تعزيز الردع، هناك طرق أفضل بكثير للتوصل إلى ذلك، نحتاج
إلى تخفيضات آمنة، ضخمة، ثنائية، مع التفتيش الاقترامى فى الترسانات
النووية الاستراتيجية والتكتيكية للولايات المتحدة، روسيا، وكل البلدان الأخرى.

(تمثل الاتفاقيتان "أى. إن. إف. INF" و"ستارت START" خطوات بالغة الصغر،
لكنها فى الاتجاه الصحيح). هذا ما يجب أن نفعله.

ولأن الأسلحة النووية رخيصة نسبيا، كان أهم مجال للخلاف دائما، وسيظل،
القوات العسكرية التقليدية، توجد فرصة غير عادية لدينا الآن، شارك الروس
والأمريكيون فى تقليص ضخم فى القوات التقليدية فى أوروبا، يجب أن يمتد ذلك
إلى اليابان، كوريا، والبلدان الأخرى القادرة تماما على الدفاع عن نفسها، وهذا
التخفيض فى القوة التقليدية يتم من أجل السلام، ومن أجل اقتصاد أمريكى سليم
معافى، يجب أن نتقابل مع الروس فى منتصف الطريق.

ينفق العالم اليوم تريليون دولار سنوياً على الاستعدادات العسكرية، أغلبها
على الأسلحة التقليدية ، والولايات المتحدة وروسيا هما تاجرا السلاح الرئيسيان.
وكثير من هذا المال يتم إنفاقه لا لشيء إلا أن بلدان العالم عاجزة عن اتخاذ خطوة
صعبة نحو تسوية خلافاتها مع خصومها (وبعضها لأن الحكومات تحتاج إلى
القوات لقمع وإرهاب شعبها) ، هذا الترليون دولار يخطف الطعام من أفواه الشعوب

الفقيرة، ويصيب بالشلل الاقتصادي المرشحة للنهوض، إنه تبديد مخز، ويجب ألا نؤيده.

حان الوقت لأن نتعلم من هؤلاء الذين سقطوا هنا، حان وقت العمل.

جزئياً كانت الحرب الأهلية الأمريكية فى سبيل الحرية، فى سبيل نشر فوائد الثورة الأمريكية بين كل الأمريكيين، لكى يتحقق بالنسبة للجميع وعد "الحرية والعدالة للجميع" الذى لم ينجز وكان ذلك فاجعاً، وما أهتم به هو فقدان نمط الإدراك التاريخى، ولا يرتدى المحاربون الآن فى سبيل الحرية القبعات ثلاثية الزوايا ولا يعزفون بآلات النفخ الموسيقية والطبل. إنهم يأتون بأردية الآخر، وقد يتحدثون بلغات الآخرين، وقد يشايعون أديانا أخرى، قد يكون لون جلودهم مختلفاً، لكن لا معنى لعقيدة الحرية إذا كانت حريتنا الخاصة هى التى تهمنا، الناس فى أماكن أخرى يصيحون: "لا ضرائب بدون تمثيل نيابى"، وفى غربى وشرقى أفريقيا أو فى الضفة الغربية من نهر الأردن أو فى أوروبا الشرقية، أو أمريكا الوسطى، يصيحون بأعداد متزايدة "أعطونا الحرية أو الموت"، لماذا نعجز عن سماع أغلبهم؟ لدينا نحن الأمريكيين وسائل إقناع قوية غير عنيفة متاحة لنا، لماذا لا نستخدم هذه الوسائل؟

دارت الحرب الأهلية بشكل رئيسى حول الوحدة - الوحدة فى مواجهة الاختلاف - منذ مليون سنة مضت لم تكن هناك دول على كوكب الأرض، لم تكن هناك قبائل، كان البشر الموجودون حينئذ منقسمين إلى جماعات عائلية صغيرة كل منها عدة عشرات. وتجولنا، كان هذا هو أفق هويتنا، مجموعة عائلية جواله. ومنذ ذلك الحين امتدت آفاقنا، من حفنة من الصيادين الجامعين، إلى قبيلة، إلى حشد، إلى دولة، مدينة صغيرة، إلى قوم، إلى الدول القومية الضخمة فى الوقت الراهن، ويدين أى شخص عادى على الأرض حالياً بولائه أو ولائها الأساسى إلى مجموعة من نحو ١٠٠ مليون شخص، ومن الواضح تماماً أنه إذا لم ندمر أنفسنا أولاً، ستكون وحدة الهوية الأساسية لأغلب البشر قبل وقت طويل هى كوكب الأرض والجنس البشرى. وفى رأى يطرح ذلك القضية المهمة: ما إذا كانت وحدة الهوية ستمتد لتحتضن كوكب الأرض والجنس البشرى، أم سندمر أنفسنا أولاً، وأخشى أن ذلك يوشك أن يصبح قريباً تماماً.

اتسعت آفاق الهوية فى هذا المكان منذ ٥٢١ سنة مضت، بتكلفة مرتفعة بالنسبة للشمال والجنوب وبالنسبة للسود والبيض، لكننا نعلم أن هذا الاتساع فى آفاق الهوية أمر صائب، والآن هناك ضرورة عاجلة وعملية للعمل معاً فى مجال الحد من التسلح، ومجال الاقتصاد العالمى والبيئة العالمية، ومن الواضح أن دول العالم يمكنها الآن فقط أن تنهض أو تسقط معاً، لم يعد الأمر فوز بلد على حساب بلد آخر. يجب أن نساعد بعضنا البعض أو نهلك معاً.

وفى مناسبات مثل هذه من المؤلف الاقتباس من العظات الأخلاقية عبارات للرجال والنساء العظام التى استمعنا إليها جميعاً من قبل، نحن نصغى لكننا لا نميل إلى التركيز، دعونى أشير إلى إحداها، فقرة أطلقت فى مكان ليس بالبعيد عن هذه البقعة بواسطة أبراهام لنكولن: "بلا حقد تجاه أى أحد، وبالمحبة من أجل الجميع...". "فكر" فى ما يعنيه ذلك. هذا هو المتوقع منا، ليس لمجرد أن أخلاقنا تأمرنا به، أو لأن أدياننا تعظ به، لكن لأنه ضرورى لبقاء البشر.

وها هى عبارة أخرى: "لا يمكن لبیت انقسم ضد نفسه أن يصمد"، ودعنى أغير فيها قليلاً: جنس انقسم على نفسه لا يمكنه البقاء، كوكب انقسم على نفسه لا يمكنه البقاء، وحتى يمكن تسجيلها فى "ذكرى سلام النور الأبدى" هذه - التى ستضىء من جديد وبعاد الاحتفال بها - ها هى عبارة مثيرة: "عالم متحد يبحث عن السلام".

لم يكن نصر جتسبرج الحقيقى - كما أرى - فى ١٨٦٣ لكن فى ١٩٣١، عندما تقابل المحاربون القدامى الباقون على قيد الحياة، والباقون من القوات المتعادية، الزرق والرماديون، فى ذكرى احتفالية ومهيبة. كانت الحرب هى التى وضعت الأخ ضد أخيه، وعندما جاء الوقت لنتذكر - فى الذكرى السنوية الخمسين للمعركة - وقع الباقون على قيد الحياة بكون بين أذرع بعضهم البعض، لم يكن فى قدرتهم مقاومة ذلك.

حان الوقت بالنسبة إلينا لنحاكيهم: المنتمين للناتو (*) ولمعاهدة وارسو، التاميل والسريلانكيين، الإسرائيليين والفلسطينيين، البيض والسود، التوتسى

(*) حلف شمال الأطلسى (المترجم).

والهيتو، الأمريكيين والصنيين، البوسنيين والصرب، الوجدويين والأيرلنديين،
العالمين المتطور والنامي.

نحتاج إلى ما هو أكثر من التعاطف السنوي، ما هو أكثر من ولاء ووطنية
الأعياد. وعندما يكون ذلك ضروريًا، يجب أن نواجه ونتحدى الحكمة التقليدية.
حان الوقت لتتعلم من الذين سقطوا هنا ، والتحدى الذي يواجهنا هو أن نسوى
الخلافا، ليس "بعد" المذبحة والقتل الجماعي، ولكن "بدلاً من" المذبحة والقتل
الجماعي. حان الوقت لكي ننطلق لتتعاقد معاً.

حان وقت العمل .

تحديث : إلى حد ما فعلنا ذلك، ففي الوقت الذي مر منذ إلقاء هذا الخطاب،
أنجزنا نحن الأمريكيين، نحن الروس، نحن البشر تقليصًا ضخمًا في ترساناتنا
النووية وأنظمة إطلاقها - لكن ليس إلى الحد الذي يضمن الأمن. ويبدو أننا نقرب
من "معاهدة حظر تجارب شامل" - لكن وسائل تجميع ونقل الرؤوس الحربية
النووية قد انتشرت أو هي في طريقها إلى الانتشار في مزيد من الدول المختلفة.

يتم وصف هذا الوضع في أحوال كثيرة بأنه استبدال كارثة محتملة بأخرى،
بدون أي تحسن حقيقي. لكن حفنة من الرؤوس النووية، أيا كان الكارثة الناجمة
عنها ، وأيا كانت المأساة البشرية التي يمكن أن تحدثها -تعتبر ألعاباً بالنسبة
للرؤوس النووية التي يتراوح عددها بين ٦٠ و ٧٠ ألفاً التي كدستها الولايات
المتحدة والاتحاد السوفييتي خلال الحرب الباردة ، يمكن لستين أو سبعين ألف
رأس نووي تدمير الحضارة العالمية بل يمكنها حتى أن تدمر الجنس البشري .
ولا يمكن للترسانات التي تكدها كوريا الشمالية أو العراق أو ليبيا أو الهند
أو باكستان - في المستقبل المتوقع - أن تؤدي إلى ذلك.

في الطرف الآخر يتفاخر القادة السياسيون الأمريكيون بعدم وجود سلاح
نووي روسي موجه إلى طفل أمريكي أو مدينة أمريكية ، قد يكون ذلك صحيحًا ،
لكن التوجيه لا يستغرق أكثر من ١٥ أو ٢٠ دقيقة ، ويحتفظ كل من الولايات
المتحدة وروسيا بألاف من الرؤوس النووية وأنظمة الإطلاق. وهذا هو سبب

إصرارى ، عبر هذا الكتاب كله، على أن الرءوس النووية تظل أكبر المخاطر التى تهددنا - مهما ظهرت تحسينات حقيقية أو حتى مذهلة فى أمن البشر، لكن الأمر قد يتغير بين يوم وليلة.

فى باريس فى يناير ١٩٩٣، وقعت ١٣٠ دولة على معاهدة الأسلحة الكيميائية، بعد أكثر من ٢٠ عامًا من المفاوضات، أعلن العالم استعداداه لتحريم أسلحة الدمار الشامل تلك ، لكن خلال كتابتى لهذه الكلمات، لم تصدق الولايات المتحدة وروسيا بعد على هذه المعاهدة ، ماذا ننتظر؟ فى الوقت نفسه لم تصدق روسيا بعد على اتفاقيات ستارت ٢ ، التى يمكنها تقليص الترسانتين النوويتين الاستراتيجيتين الأمريكية والروسية بنسبة ٥٠ فى المائة، لتخفض إلى ٣٥٠٠ رأسًا منتشرة لكل منهما.

منذ نهاية الحرب الباردة انخفضت الميزانية العسكرية الأمريكية - ولكن فقط بنسبة تتراوح بين ١٠ و ١٥ فى المائة، ولم يتم استخدام أى من معظم هذه التوفيرات بشكل فعال فى الاقتصاد المدنى. انهار الاتحاد السوفييتى . ، لكن البؤس واسع الانتشار وعدم الاستقرار فى تلك المنطقة سبب للخوف من المستقبل الذى ينتظره العالم ، أعادت الديمقراطية تأكيد نفسها إلى حد ما فى أوروبا الشرقية، وفى أمريكا الوسطى والجنوبية ، لكنها وقعت فى بضع انتهاكات ، باستثناء تايوان وكوريا الجنوبية فى شرق آسيا ، وتشوهت فى أوروبا الشرقية بأسوأ أنواع التجاوزات الرأس مالية. اتسعت آفاق الهوية فى أوروبا الغربية - لكنها ضاقت بشكل عام فى الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتى السابق. تم إحراز تقدم فى الصلح فى أيرلندا الشمالية وفى إسرائيل / فلسطين - لكن الإرهابيين (*) مازالوا قادرين على الإبقاء على عملية السلام رهينة.

يجب إجراء تخفيضات شديدة القسوة فى الميزانية الفيدرالية الأمريكية - كما قيل لنا - نظرا للحاجة الملحة لتسوية الميزانية. لكن من الغريب أن تتخطى مؤسسة نصيبها من إجمالى الناتج الداخلى أكبر من إجمالى الميزانية الفيدرالية

(*) سياق الجملة يدل على إرهابيين فى أيرلندا الشمالية وإسرائيل وفلسطين ، وفى هذه الحالة قد يكون ساجان تأثر بالدعاية الصهيونية بإطلاق اسم الإرهاب على المقاومة الفلسطينية . (المترجم)

التقديرية، كافة الحدود. إنها المؤسسة العسكرية المخصص لها ٢٦٤ بليون دولار (مقارنة بمبلغ ١٧ بليون دولار لكل برامج العلم والفضاء المدنية). وفى الواقع - إذا تمت إضافة التكاليف العسكرية المستقرة وميزانية الاستخبارات - سيكون النصيب العسكرى أكبر بكثير.

ومع هزيمة الاتحاد السوفييتى، ما هدف كل هذا المبلغ الهائل من المال؟ ميزانية روسيا العسكرية السنوية نحو ٣٠ بليون دولار، وهو نفس الأمر بالنسبة للصين، وإجمال الميزانيات العسكرية لإيران، العراق، كوريا الشمالية، سوريا، ليبيا، وكوبا يصل إلى ٢٧ بليون دولار، ويفوق إنفاق الولايات المتحدة كل هؤلاء معا بمعدل ثلاثة أضعاف، ويصل إلى نحو ٤٠ فى المائة من النفقات العسكرية العالمية.

كانت ميزانية الدفاع فى عهد كلينتون للعام المالى ١٩٩٥ أعلى بنحو ٣٠ بليون دولار من ميزانية الدفاع فى عهد ريتشارد نيكسون فى قمة الحرب الباردة، قبل ذلك بعشرين عامًا، ومع الزيادات الجمهورية المقترحة، ستنمو ميزانية الدفاع الأمريكية نقداً بالدولار بنسبة ٥٠ فى المائة مع عام ٢٠٠٠، وليس هناك صوت فعال فى كلا الحزبين السياسيين يعارض هذا النمو - فى الوقت الذى يتم التخطيط فيه لمعالجة تمزقات شبكة الأمان الاجتماعى.

ويصبح الكونجرس الأمريكى البخيل مسرفاً بشكل مروع إذا وصل إلى الشئون العسكرية، ضاغطاً على وزارة الدفاع لقبول بلايين لا يقتضيها الأمر فى محاولة لممارسة اليسير من ضبط النفس، بينما الشاحنات فى الموانئ التى تضج بالحركة وحقائب السفارات المستثناة من التفتيش على الحدود هى أنظمة النقل الأكثر ملاءمة حالياً للأسلحة النووية إلى الأرض الأمريكية، هناك ضغط من الكونجرس من أجل طائرات اعتراض ذات قواعد فضائية لحماية الولايات المتحدة من الصواريخ المقذوفة العابرة للقارات غير الموجودة لدى الدول الشريرة، تم اقتراح مشروعات تخفيضات حمقاء بمبلغ ٢,٣ بليون دولار للدول الأجنبية حتى يمكنها شراء أسلحة أمريكية، وأموال دافعى الضرائب الأمريكين يتم إعطاؤها لشركات الطيران الفضائى لتتمكن من شراء شركات طيران فضائى أمريكية أخرى، ويتم إنفاق نحو ١٠٠ بليون دولار سنوياً لحماية أوروبا الغربية، اليابان،

كوريا الجنوبية، ويلدان أخرى من المفترض أنها تتمتع بموازين تجارية أفضل مما لدى الولايات المتحدة. نخطط للاحتفاظ بنحو ١٠٠٠٠٠ جندي في مراكز في أوروبا الغربية إلى وقت غير محدود. في مواجهة من؟

في نفس الوقت، تعتبر مئات البلايين من الدولارات التي تمثل تكلفة التخلص من النفايات العسكرية النووية والكيميائية عبئاً ينتقل إلى أطفالنا وهو ما لا يمثل لنا مشكلة كبيرة إلى حد ما، لماذا نجد مثل هذه المشكلة في إدراك أن الأمن القومي أمر أكثر عمقاً وأكثر دقة من عدد من الملاجئ في مجمعات المباني لدينا؟ ورغم كل ما يقال حول أن الميزانية العسكرية "أصبحت جلدًا على عظم" (*)، يحدث في الواقع الذي نعيشه أن تنتفخ تلك الميزانية بالدهون المنتشرة بين قطع اللحم (**). لماذا يجب أن تكون الميزانية العسكرية مقدسة إلى أبعد حد بينما كثير من الأشياء الأخرى التي تعتمد عليها سعادتنا القومية معرضة لخطر التدمير بشكل طائش؟

ما زال هناك الكثير لنفعله – ما زال الوقت ملائمًا للفعل.

(*) أي يتم تقليصها إلى أقصى درجة ممكنة. (المترجم)

(**) دلالة على السمنة المفرطة في تناقض ساخر لما توصف بها تلك الميزانية من أنها في نحافة الجلد على العظم (المترجم).

الفصل الثامن عشر

القرن العشرون

لكى ندرك بلوغ جمال الكون حد الكمال وكمال أعمال الله، علينا أن نتعرف على حتمية التطور الأبدى الحرتاما للكون كله .. يظل هناك دائماً فى عمق الأحداث جوانب فى سبات تنتظر أن يتم إيقاظها ...

جوتفريد ويلهيلم ليبنتز

المجتمع لا يتقدم أبداً ، إنه يتراجع فى جانب منه بينما يحرز تقدماً فى الجانب الآخر ، إنه يخضع لتغيرات دائمة، فهو همجى، وهو متحضر، وهو معتنق للمسيحية، وهو غنى، وهو علمى، لكن ... مع كل شىء يتم الحصول عليه هناك شىء يتم أخذه.

رالف والدو إمرسون

"التعويل على النفس" مقالات: السلسلة الأولى (١٨٤١)

سيذكر للقرن العشرين ثلاثة ابتكارات رئيسية: وسائل غير مسبقة فى إنقاذ وإطالة وتحسين الحياة، وسائل غير مسبقة لتدمير الحياة، تتضمن لأول مرة تعريض حضارتنا العالمية للخطر، ونفاذ بصيرة غير مسبوق حول طبيعتنا وطبيعة الكون، ونتجت هذه التطورات الثلاثة عن العلم والتقنية، وكل منهما سلاح ذو حدين ماضيين كحد موسى، والتطورات الثلاثة لها جذور عميقة فى الماضى البعيد.

إنقاذ وإطالة وتحسين حياة البشر

حتى نحو عشرة آلاف سنة مضت - مع اكتشاف الزراعة واستئناس الحيوانات - كانت مصادر الغذاء البشرى محدودة وتتمثل فى الفواكه والخضراوات فى البيئة الطبيعية والحيوانات التى يتم اصطيادها، لكن ضآلة النمو الطبيعى للمواد الغذائية وصل إلى أن الأرض لم يكن فى وسعها أن تعول أكثر من نحو ١٠ ملايين أو ما يقرب من ذلك من جنسنا، فى المقابل، سوف يصل عدد سكان الأرض مع نهاية القرن العشرين إلى ستة بلايين نسمة، وهذا يعنى أن ٩٩.٩ فى المائة منا يدين بوجوده إلى تقنية الزراعة والعلم الذى يشكل أساسا لها، سلوك الحيوان والنبات وعلم الوراثة الخاص بهما، الأسمدة الكيميائية، مبيدات الحشرات والطحالب، المواد الحافظة، المحاريث الآلية، آلات الحصاد والأدوات الزراعية الأخرى، وسائل الري الحديثة - التبريد فى شاحنات، وفى عربات السكك الحديدية، والمخازن، وفى المنازل. والتطورات الأكثر أهمية فى تقنية الزراعة - متضمنة "الثورة الخضراء"، كلها تمت فى القرن العشرين.

حدث تطور هائل فى حياة البشر على المستوى العالمى - خاصة فى البلدان المتطورة - بفضل توفير الصرف الصحى فى المناطق المدنية والريفية، المياه النقية والوسائل الأخرى التى تحافظ على الصحة العامة، وقبول النظرية الجرثومية فى مجال الأمراض^(*)، وتوافر المضادات الحيوية والعقاقير الطبية

(*) نظرية طبية تقول بأن الأمراض المعدية ناشئة عن الجراثيم أو الأجسام المجهرية (المترجم).

الأخرى، وعلم الوراثة والهندسة الوراثية، وعلم الطب ، تم استئصال مرض الجدري على المستوى العالمى، وانكسرت مساحة المناطق التى تنتشر فيها الملاريا سنة بعد سنة، والأمراض التى أتذكر وجودها فى فترة طفولتى، مثل السعال الديكى، الحمى القرمزية، وشلل الأطفال، اختفت تقريبا الآن.

ومن بين ابتكارات القرن العشرين الأكثر أهمية وسائل تنظيم الحمل الرخيصة نسبيا - التى تسمح للنساء، للمرة الأولى فى التاريخ ، بأن ينظمن أقدارهن التناسلية، والتى تؤدي إلى تحرير نصف الجنس البشرى - وأتاحت تلك الوسائل تخفيضات ضخمة فى التعداد السكانى المتزايد المحفوف بالمخاطر فى كثير من البلدان دون الحاجة إلى قيود جائرة على ممارسة الجنس ، ومن الحقيقى أيضا أن المنتجات الكيميائية والإشعاعية التى أنتجتها تقنياتنا تسببت فى أمراض جديدة وهى متورطة أيضا فى الإصابة بالسرطان، ويؤدى انتشار تدخين السجائر إلى وفاة نحو ٣ ملايين مدخن سنوياً (يمكن تجنبها جميعا بالطبع) ، وحسب تقديرات منظمة الصحة العالمية سوف يرتفع هذا العدد إلى ١٠ ملايين حالة وفاة سنوياً فى ٢٠٢٠.

لكن التقنية أعطتنا أكثر مما أخذت ؛ أوضح دليل على ذلك أن معدل الحياة فى الولايات المتحدة وأوروبا الغربية فى ١٩٠١ كان نحو ٤٥ عاماً، بينما يقترب حالياً من ٨٠ عاماً، أكثر قليلاً للنساء وأقل قليلاً للرجال. وربما يكون متوسط العمر المتوقع المقياس الوحيد الأكثر فعالية لنوعية الحياة: فإن الميت (على أغلب الظن) لا يتمتع بنوعية جيدة من الحياة ، ومع ذلك ما يزال هناك بليون شخص لا يجدون ما يأكلون، ويموت ٤٠٠٠٠ طفل يومياً على كوكبنا بلا داع.

من خلال الراديو، التلفزيون، الفونوغراف، مشغلات الشرائط الصوتية audiotape players الإسطوانات المضغوطة، وشبكات المعلومات فى الكمبيوتر، أحدثت التقنية تغيرات عميقة فى طبيعة الثقافة الشائعة ، أتاحت إيجابيات وسلبيات الترفيه العالمى، شركات متعددة الجنسيات لا ينتمى ولاؤها إلى بلد معين، جماعات مصاهرة عابرة للقوميات، تأثير مباشر على الآراء السياسية والدينية للثقافات الأخرى. وكما رأينا خلال التمرد الذى تمت المبالغة فى التقليل

من قيمته فى ميدان تيانانمين وذلك الذى حدث فى "البيت الأبيض" فى موسكو، كيف يمكن للفاكسات، التليفونات، وشبكات الكمبيوتر أن تصبح أدوات قوية للجيشان السياسى.

أتاح ظهور الأسواق الجماهيرية للكتب ورقية الأغلفة فى الأربعينيات دخول الأدب العالمى وتصورات مفكره العظام، المعاصرين والقدامى، إلى حياة الناس العاديين، وحتى إذا كانت أسعار تلك الكتب تحلق مرتفعة فى الوقت الراهن، مازال هناك مجال للمساومات، مثل دولار للمجلد من الكلاسيكيات من "كتب دوفر"، ومع التقدم فى معرفة القراءة والكتابة تعتبر تلك الاتجاهات متحالفة مع الديمقراطية الجيفيرسونية، من ناحية أخرى يعتبر انتشار القراءة والكتابة فى أمريكا فى أواخر القرن العشرين معرفة متخلفة باللغة الإنجليزية، ويميل التلفزيون بشكل خاص إلى إغراء أغلبية الجمهور بعدم القراءة، وتحت إغراء دافع الربح، انخفض فى أدائه إلى أدنى البرامج ذات المستويات الشائعة، بدلا من الارتفاع إلى مستوى المسئولية بالنسبة للتعليم والإلهام.

من أدوات تثبيت الأوراق إلى الأحزمة المطاط، مجففات الشعر، أقلام الحبر، أجهزة الكمبيوتر، آلات النسخ وتسجيل الصوت، الخلطات الكهربائية، أفران الميكروويف، المكانس الكهربائية، غسالات الأطباق والملابس والمجففات، أضواء الشوارع وداخل البيوت واسعة الانتشار، إلى السيارات، الطائرات، ماكينات صنع الآلات، محطات توليد الكهرباء من القوة المائية، خطوط التجميع الصناعية، وأجهزة الإنشاءات الهائلة، استغنت تقنيات قرننا عن العمل الشاق، وأتاحت مزيداً من وقت الفراغ، وحسنت الحياة المعيشية للكثيرين، لقد أحدثت أيضاً انقلاباً فى كثير من العادات الرتيبة والتقاليد التى كانت سائدة فى ١٠٩١.

تختلف طرق استخدام التقنيات القادرة على إنقاذ الحياة^(١) من بلد إلى آخر، فالولايات المتحدة مثلاً تعاني من أعلى وفيات للأطفال مقارنة بأية دولة

(١) مثل الخدمات الصحية (المترجم) .

صناعية أخرى. ولديها كثير من الشباب السود فى السجون أكثر من الموجودين فى الجامعات، وتزيد النسبة المئوية للمواطنين فى السجون عن أية دولة صناعية أخرى، وأداء الطلبة الأمريكيين عادة أقل مستوى فى اختبارات العلوم المعيارية والرياضيات إذا قورنوا بالطلبة فى نفس العمر فى البلدان الأخرى، وزاد التفاوت فى الدخل الحقيقى بين الأغنياء والفقراء وانحدرت الطبقة المتوسطة، بشكل سريع خلال العقد ونصف العقد الماضيين، والولايات المتحدة هى الأخيرة من بين الدول الصناعية بالنسبة للجزء من الدخل القومى الذى يخصص سنوياً لمساعدة شعوب البلدان الأخرى. وتخلفت الولايات المتحدة فى مجال صناعات التقنيات العالية، بعد أن كانت قائدة العالم فى أغلب هذه الجوانب فى منتصف القرن، هناك بعض سمات الضمور فى الولايات المتحدة مع نهاية القرن ، قد يكون السبب نوعية القيادة، لكن يمكن أيضا اتهام تضائل الميل إلى الفكر النقدى والعمل السياسى لدى مواطنيها.

التكنولوجيا الاستبدادية والحربية

وصلت وسائل صناعة الحرب، والقتل الجماعى، وإبادة شعوب كاملة، مستويات غير مسبوقة فى القرن العشرين ، فى عام ١٩٠١ لم تكن هناك طائرة حربية ولا صواريخ، ولم تكن قدرة المدافع تتجاوز رمى القذيفة إلى عدة أميال وقتل حفنة من الناس. ومع الثلث الثانى فى القرن العشرين، تم نشر نحو ٧٠٠٠٠ رأساً نووياً، أغلبها على معززات صواريخ استراتيجية، يتم إطلاقها من مخابئ تحت الأرض أو من غواصات، وهى قادرة على الوصول افتراضياً إلى أية منطقة فى العالم، ولكل رأس من القوة ما يكفى لتدمير مدينة كبيرة ، ونشهد حالياً مخاض إجراءات مهمة للحد من الأسلحة، فى مجالى الرؤوس النووية وأجهزة الإطلاق، بواسطة الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتى السابق، لكن سيظل فى قدرتنا إبادة الحضارة الأرضية فى المستقبل المنظور، يضاف إلى ذلك أن الأسلحة الكيميائية والبيولوجية الرهيبة الفتاكة فى أيد كثيرة فى العالم.

وفى قرن يفيض بالتعصب ، والانغلاق الأيديولوجى ، والقادة المجانين ، ولا يبشر بخير بالنسبة لمستقبل البشر تم نشر كل هذه الأسلحة الفتاكة بشكل غير مسبوق. ولقد قُتل بالفعل أكثر من ١٥٠ مليون شخص فى حروب وبأوامر مباشرة من قادة قوميين فى القرن العشرين.

صارت تقنياتنا من القوة بحيث أصبح فى استطاعتنا - ليس فقط حسب أهدافنا ولكن أيضًا بغير تعمد منا - تغيير البيئة على نطاق واسع، وتهديد كثير من أجناس الكائنات على الأرض، بما فيها الجنس البشرى نفسه، والحقيقة البسيطة تتمثل فى أننا نجرى تجارب غير مسبوقة على البيئة العالمية أملين بشكل عام فى ما لا أمل فيه أن تحل المشاكل نفسها وتختفى، والجانب الوحيد المضىء هو بروتوكول اتفاقية مونتريال والاتفاقيات الدولية الملحقة به التى وافقت من خلالها الدول الصناعية فى العالم على التحكم تدريجيًا فى إنتاج مركبات الكلوروفلوروكربون والمواد الكيميائية الأخرى التى تسبب أضرارًا لطبقة الأوزون. ولكن بالنسبة لمجال خفض إطلاق ثانى أكسيد الكربون فى الغلاف الجوى ، وحل مشكلة النفايات الكيميائية والإشعاعية، وفى مجالات أخرى، مازال التقدم بطيئًا إلى درجة تدعو إلى اليأس.

تنتشر عمليات الثأر العرقية والثأر بسبب الخوف من الأجانب فى كل القارات. وبدأت محاولات منظمة لإبادة مجموعات إثنية كاملة ، الأكثر شهرة محاولات النازى فى ألمانيا، ولكن حدث هذا أيضًا فى رواندا، وفى يوجسلافيا السابقة، وفى أماكن أخرى. كانت اتجاهات مماثلة موجودة فى مجمل التاريخ البشرى، لكن فى القرن العشرين فقط جعلت التقنية القتل على هذا النطاق أمرًا يمكن تحقيقه، وللقذف الاستراتيجى بالقنابل الموجهة، والصواريخ، والمدفعية بعيدة المدى "ميزة" أن المقاتلين لا يحتاجون إلى التواجد وجها لوجه أمام الكرب الذى يصنعونه . لا يتعرضون لتأنيب الضمير ، واقتربت الميزانية العسكرية العالمية مع نهاية القرن العشرين من ترليون دولار سنويًا، تصور الخير الذى كان من الممكن أن تحصل عليه البشرية لو تم تخصيص ولو جزء من هذا المال لتحقيق هذا الخير.

شهد القرن العشرون انهيار ممالك وإمبراطوريات ونمو ديمقراطيات وإن كانت شكلية أحياناً - كما شهد أيضاً كثيراً من الدكتاتوريات الأيديولوجية والعسكرية. كانت لدى النازي قائمة بالجماعات الملعونة التي عرضوها للإبادة المنظمة : اليهود ، الشوانز جنسياً والسحاقيات ، الاشتراكيون والشيوعيون، المعوقون، والذين ينتمون إلى أصول إفريقية (ولم يكن موجوداً منهم أحد في ألمانيا). وفي النظام النازي "المعارض لإبادة الإجهاض" بشكل نضالي، كان على النساء أن ينزلن إلى مكانهن الطبيعي Kinder, Kuch, Kircher الأطفال، المطبخ، والكنيسة^(*). يالها من إهانات تلك التي قد يتلقاها النازي المتعصب في مجتمع أمريكي - يهيمن، أكثر من أي بلد آخر - على كوكب الأرض، حيث اليهود، والشوانز جنسياً، والمعوقون، وأصحاب الأصول الأفريقية يتمتعون بكافة الحقوق القانونية، والاشتراكيون يلقون تسامحاً على الأقل بشكل عام، والنساء يدخلن أماكن العمل بأعداد قياسية. لكن نحو ١١ في المائة فقط من أعضاء مجلس النواب الأمريكي نساء، بدلا من أكثر قليلاً من ٥٠ في المائة، كما يجب أن يكون عليه الأمر إذا تم تطبيق التمثيل النسبي. (الرقم المناظر في اليابان ٢ في المائة).

كان توماس جيفرسون يقول إن الديمقراطية لا تتم إلا بين أفراد متعلمين، وبغض النظر عن مدى صرامة أشكال الحماية التي يتمتع بها الناس في الدساتير أو القانون العام، فلا مهرب من أن يكون هناك دائماً إغواء - كما يرى جيفرسون - للقوة والثروة، والتجرد من المبادئ الأخلاقية لتقويض المثل الأعلى للحكومة التي تدار بواسطة المواطنين العاديين ومن أجلهم، ويتمثل الترياق في الدعم القوي للتعبير عن وجهات النظر غير الشائعة، انتشار معرفة القراءة والكتابة، المناظرات الحقيقية، اعتياد عام للتفكير النقدي، والشك في قرارات الموجودين في السلطة - وهي جميعاً من الخواص الأساسية في المنهج العلمي.

(*) بعد إيجاز وجهات النظر المسيحية التقليدية عن المرأة من أزمنة آباء الكنيسة حتى حركة الإصلاح (الإصلاح الديني أو البروتستانتية في القرن السادس عشر - المترجم)، توصل الفيلسوف الأسترالي جون باسمر "مسئولية الإنسان عن الطبيعة : المشاكل البيئية والتراث الغربي (نيو يورك : سكريبنير، ١٩٧٤)" إلى أن Kinder, Kuch, Kircher "كتوصيف لدور المرأة ليس من اختراع هتلر، لكنه شعار مسيحي نموذجي".

اكتشافات العلم

حققت كل فروع العلم تقدماً مذهلاً فى القرن العشرين، وشهدت أسس الفيزياء بالذات ثورة نجمت عن النظريتين النسبية الخاصة والنسبية العامة، وعن ميكانيكا الكم، وحدث للمرة الأولى أن تم فهم طبيعة الذرات فى هذا القرن ، حيث البروتونات والنيوترونات فى مركز النواة والإلكترونات تدور فى سحابة حولها، عندما تم إلقاء نظرة على المكونات التى تشكل البروتونات والنيوترونات، الكواركات، للمرة الأولى، وعندما ظهر للمرة الأولى بوضوح حشد من الجسيمات الأولية الغريبة قصيرة العمر بمساعدة مسرعات عالية الطاقة وأشعة كونية، وسمح الانشطار النووى والاندماج النووى بالتوصل إلى ما يناظرهما من الأسلحة النووية، ومحطات الطاقة بالانشطار النووى (نعمة غير خالصة)، وأتاحا توقع تصميم محطات طاقة بالاندماج النووى. وأتاح لنا فهم الاضمحلال الإشعاعى معرفة محددة بعمر الأرض (نحو ٤,٦ بليون عام) وعمر أصل الحياة على كوكبنا (نحو ٤ بلايين عام).

وفى مجال فيزياء الأرض، تم اكتشاف الطبقة التكتونية (*) (مجموعة من الأحزمة الناقلة تحت سطح الأرض تحمل القارات من نشوئها حتى اختفائها)، وتحرك بمعدل نحو بوصة سنوياً ، والطبقة التكتونية مهمة فى فهم طبيعة وتاريخ أشكال الأرض وطبوغرافيا قاع البحار ، وظهر نوع جديد من الجيولوجيا الكوكبية حيث يمكن مقارنة أشكال الأرض وما فى داخل الأرض بنظائرها فى الكواكب الأخرى وأقمارها، وكيمياء الصخور فى العوالم الأخرى ، ويتم معرفتها إما عن بعد أو عن طريق العينات التى يمكن إحضارها إلى الأرض بواسطة مركبات فضائية أو من الأحجار النيزكية التى أصبح من المعروف حالياً أنها جاءت من العوالم الأخرى ، ويمكن مقارنتها بالأحجار على الأرض ، وقام علم الزلازل بسبر أغوار بنية الطبقات العميقة داخل الأرض واكتشف تحت القشرة الخارجية لسطح الأرض غلافاً (**). شبه سائل، وقلباً حديدياً سائلاً، وقلباً داخلياً صلباً - والتى

(*) المتعلقة بتشوه أديم الأرض، والقوى المؤدية إليه، والأشكال الناشئة عنه (المترجم).

(**) مثل الجدار الخارجى لأتون صهر المعادن (المترجم).

يجب دراستها جميعًا إذا كنا نرغب في معرفة العمليات التي أدت إلى ظهور كوكبنا - وتم تفسير بعض حوادث الانقراض الجماعي للحياة في الماضي بأنها ناجمة عن تصاعد مادة ذائبة هائلة من الغلاف شبه السائل تدفقت إلى أعلى من خلال السطح وأنتجت بحارا من الحمم حيث كانت الأرض الصلبة موجودة من قبل. وبعض حوادث الانقراض الأخرى نجمت عن اصطدام مذنبات ضخمة أو كويكبات قريبة من الأرض مما أشعل السماء وأحدث تغييرات في الطقس ، وفي القرن المقبل - على أقل تقدير - قد يلزمنا أن نقوم بعملية جرد للمذنبات والكويكبات لنرى ما إذا كان أى منها يحمل اسمنا فوقه.

أحد أسباب الاحتفاء بالعلم في القرن العشرين اكتشاف طبيعة ووظيفة الدنا (الحامض النووي الربى منقوص الأكسجين) الجزئى الرئيسى المسئول عن الوراثة لدى البشر وفي كافة النباتات والحيوانات الأخرى، تعلمنا قراءة الشفرة الجينية ورصدنا لدى عدد متزايد من الكائنات الحية كل الجينات ودور أغلبها في الوظائف لدى تلك الكائنات. وأشرف علماء الوراثة على رسم الجينوم البشرى - وهو إنجاز ذو احتمالات هائلة على الجانبين الخير والشر، وأكثر الجوانب أهمية في قصة الدنا أن العمليات الأساسية للحياة تبدو الآن قابلة للفهم تمامًا بمصطلحات الفيزياء والكيمياء. ولا يبدو أن ذلك يتضمن أية قوة حياة أو أى روح أو نفس. وأيضًا في الفسيولوجيا العصبية^(*) : تجريبيًا ، يبدو أن العقل تعبير عن مائة تريليون وصلة عصبية في المخ، إضافة إلى بضع مواد كيميائية بسيطة.

تتيح لنا البيولوجيا الجزيئية الآن مقارنة أى جنسين، جينا بجين، وبنية مجموعة جزيئية ببنية مجموعة جزيئية أخرى، لمعرفة درجة القرابة، أظهرت هذه التجارب بشكل حاسم التشابه العميق بين كل الكائنات على الأرض وأكدت العلاقات العامة التي تم التوصل إليها سابقًا في البيولوجيا التطورية، مثال لذلك يشترك البشر والشيمبانزى في ٩٩,٦ في المائة من جيناتهم الفعالة، مما يؤكد أن الشيمبانزى هي أقرب أقاربنا، وأننا نشترك معهم في سلف حديث عام.

وفي القرن العشرين عاش الباحثون الميدانيون للمرة الأولى مع الحيوانات الرئيسية الأخرى، يلاحظون بدقة سلوكياتها في مواطنها الطبيعية، مكتشفين

(*) علم وظائف الأعصاب (المترجم) .

الشفقة، البصيرة، الأخلاق، الصيد، حرب العصابات، السياسة، استخدام الأدوات، صناعة الأدوات، الموسيقى، القومية البدائية، ومجموعة من الصفات الأخرى كان يُظن سابقاً أنها قاصرة على الإنسان.

مازال الجدل حول قدرات الشيمبانزى اللغوية قائماً، لكن هناك شيمبانزى قزميا bonobo فى أتلانطا يطلق عليه اسم كانزى يستخدم بسهولة لغة رمزية من عدة مئات من الأشكال المميزة وقد علم نفسه أيضاً صناعة أدوات حجرية.

كثير من التطورات الحديثة المثيرة للانبهار فى الكيمياء ترتبط بالبيولوجيا، لكن دعنى أشير إلى تطور يتصف بأنه أكثر وضوحاً فى أهميته: تم فهم طبيعة الرباط الكيميائى، القوى فى فيزياء الكم التى تحدد أى من الذرات يميل إلى الارتباط بأى من الذرات الأخرى، ومدى قوة ذلك الارتباط، وبأى ترتيب. وتم التوصل أيضاً إلى أن توجيه الإشعاع إلى ما يحتمل أن يكون أغلفة جوية للأرض والكواكب الأخرى يُنتج أحماضاً أمينية وقوالب البناء الأساسية للحياة، وتم اكتشاف أن الأحماض النووية والجزيئات الأخرى فى أنبوب الاختبار تستنسخ أنفسها وتنتج الطفرات، تم إحراز تقدم جوهري فى القرن العشرين فى مجال فهم وإنتاج أصل الحياة، يمكن إحالة كثير من البيولوجيا إلى الكيمياء ويمكن إحالة كثير من الكيمياء إلى الفيزياء، ولم يتأكد صحة ذلك تماماً بعد، لكن حقيقة أن هذا الأمر صحيح ولو إلى حد ما يعتبر التصور الأكثر أهمية فى مجال طبيعة الكون.

ومع الجمع بين الفيزياء والكيمياء وأكثر الكمبيوترات قوة على وجه الأرض، أُجريت محاولات لدراسة الطقس والحركة العامة لجو الأرض فى تغييرها مع الزمن، ويتم استخدام هذه الوسيلة الفعالة لتقييم النتائج المستقبلية لإطلاق ثانى أكسيد الكربون بشكل مستمر وغازات التصوب الأخرى فى جو الأرض، وفى الوقت الحاضر يتم ما هو أكثر سهولة، حيث تتيح الأقمار الصناعية الخاصة بالأرصاد التنبؤ بحال الطقس مقدماً لعدة أيام على الأقل، مما يساعد فى تجنب خسائر تصل إلى بلايين الدولارات بسبب تلف المحاصيل سنوياً.

فى بداية القرن العشرين كان علماء الفلك غارقين فى أعماق محيط من السحاب والغيوم ليس أمامهم سوى التحديق فى العوالم البعيدة، ومع نهاية القرن العشرين أصبحت التلسكوبات الضخمة تطوف فى مدارات حول الأرض ترصد

السموات بأشعة جاما وأشعة إكس والأشعة فوق البنفسجية والضوء المرئي والأشعة تحت الحمراء والموجات الراديوية.

حدث أول بث لإذاعات ماركوني عبر المحيط الأطلنطي في ١٩٠١. ولقد استعملنا الراديو للاتصال بأربع سفن فضائية وراء أكثر الكواكب المعروفة بعدا في مجموعتنا الشمسية، وللإستماع إلى بث الموجات الراديوية الطبيعية التي تصل من كواسارات quasars تبعد ما بين ٨ و ١٠ بلايين سنة ضوئية - كما هو الحال بالنسبة لما يُطلق عليه الخلفية الإشعاعية للمادة، بقايا الأشعة الراديوية الناجمة عن الانفجار الكبير Big Bang ، وهو الانفجار الهائل الذي بدأ عملية التشكيل الراهن للكون.

تم إطلاق سفن فضاء استكشافية لدراسة ٧٠ عالماً آخر وللهبوط على سطح ثلاثة منها. وشهد القرن أكثر الإنجازات أسطورية تقريباً وهو إرسال اثني عشر إنساناً إلى القمر وعودتهم آمنين ومعهم أكثر من مائة كيلو جرام من صخور القمر. وأثبتت الروبوتات الفضائية أن كوكب الزهرة - الذي تهيمن عليه ظاهرة تصوب كثيفة - تصل درجة الحرارة على سطحه إلى نحو ٩٠٠ درجة فهرنهايت، وأنه منذ ٤ بلايين سنة مضت كان للمريخ طقس مشابه لطقس الأرض، وأن الجزيئات العضوية تسقط من سماء تيتان، قمر زحل، مثل المن وهو يسقط من السماء، وأن من المحتمل أن ربع مادة المذنبات من المادة العضوية.

وأربعة من سفننا الفضائية في طريقها إلى النجوم. وتم العثور على كواكب أخرى حول النجوم الأخرى. ويوحى الأمر بأن شمسنا في الضواحي النائية لمجرة هائلة، عدسية الشكل، تحتوى على ٤٠٠ بليون شمس أخرى. وكان يُعتقد في بداية القرن أن مجرة درب اللبانة هي المجرة الوحيدة. ونعرف الآن أن هناك مائة بليون مجرة أخرى، تتباعد كل منها عن الأخرى كما لو كانت بقايا انفجار هائل، هو الانفجار الكبير. لقد تم اكتشاف قاطنين غريباء في الحديقة الكونية، لم يكن أحد يحلم بوجودها أبداً مع انسلاخ القرن - البلسارات^(١)، الكواسارات، والثقوب السوداء.

(*) نجوم تنبعث منها نبضات راديوية قوية (المترجم).

ومع نتائج الرصد قد يتم التوصل إلى إجابات عن بعض أعمق الأسئلة التي لم ترد من قبل على عقل بشرى - حول أصل وطبيعة ومصير الكون كله.

قد تكون الحضيلة الثانوية الأكثر إثارة للأسى فى الثورة العلمية هى أنه أصبح من المتعذر استعادة كثير من معتقداتنا التي نعزها كثيرًا والتي نشعر بالراحة تجاهها، وحل محل اعتقاد أسلافنا بأن الإنسان فى مركز المشهد الكونى كون بارد هائل غير متحيز حيث البشر منفيون مغمورون.

لكنى أرى أنه قد انبثق فى وعينا كون عظيم ذو نظام معقد ورائع بعيد تمامًا عما كان يمكن لأسلافنا تخيله، وإذا كان من الممكن فهم الكثير عن الكون فى صيغة بضعة قوانين بسيطة حول الطبيعة، فإن من يرغبون الإيمان بالله يمكنهم بالتأكيد أن ينسبوا تلك القوانين الجميلة إلى "سبب" تنبع منه الطبيعة كلها، وأرى أن فهم الكون كما هو فى حقيقته أفضل بكثير من مطالبة الكون بأن يتفق مع ما نرغب أن يكون عليه.

وأيًا كان الأمر سنصل إلى الفهم والحكمة الضروريتين لإدراك ما توحى به الاكتشافات العلمية للقرن العشرين وسيكون ذلك هو أكبر تحد للقرن الواحد والعشرين.

الفصل التاسع عشر

فى وادى الظلال

هل سيكون لك - عندئذ - حقيقة أم مجرد وهم عقيم؟

يوربيديز

ليونيا (نحو ٤١٠ ق.م)

واجهت الموت ست مرات حتى الآن وجهًا لوجه، وست مرات حوّل الموت نظره عني وتركني حيًا، وفى آخر الأمر، بالطبع، سيطالبني الموت بحقه - كما هو الحال معنا جميعًا - والأمْر متعلق فقط بموعد ذلك، وكيفية حدوثه.

تعلمت الكثير من مواجهاتنا معا، خاصة ما يتعلق بجمال الحياة وحدثها العذبة، وما يتعلق بكرم الأصدقاء والعائلة، وقوة التغيير فى الحب.

وفى الحقيقة، يكون الموت تقريبًا تجربة تتصف بالإيجابية وتؤدي إلى تعزيز الشخصية حتى إننى أوصى الجميع بها، بالطبع باستثناء عنصر الخطر الأساسى الذى لا يمكن التقليل من شأنه.

قد أتمنى الاعتقاد بأننى عندما أموت سوف أحيًا من جديد، بأن التفكير فى جزء تركته خلفى والشعور به وتذكره سيتسمر بعد وفاتى، ويقدر ما أرغب فى الإيمان بذلك، ورغم التراث الثقافى القديم والمنتشر فى العالم كله الذى يؤكد على وجود حياة بعد الموت، لا أعرف شيئًا يوحى بأن ذلك يتجاوز توقع الأمانى.

أتمنى أن أتقدم فى العمر تمامًا مع زوجتى آنى، التى أحبها كثيرًا. أحب أن أرى أطفالى الأصغر يتقدمون فى العمر وأن يكون لى دور فى تطورهم السلوكى والعقلى، وأتمنى أن أكون موجودًا عند وصول أحفادى الذين لم تحمل بهم أمهاتهم بعد. وهناك مشاكل علمية أتوق إلى مشاهدة حلول لها، مثل استكشاف كثير من العوالم فى منظومتنا الشمسية والبحث عن الحياة فى أماكن أخرى، وأحب أن أعرف كيف سيكون مصير النزعات المهمة فى التاريخ الإنسانى، سيان كانت مفعمة بالأمل أو مثيرة للقلق: مخاطر وعود تقنياتنا، كذلك تحرير المرأة، ونمو الهيمنة السياسية والاقتصادية والتقنية للصين، والانطلاق بين النجوم.

إذا كانت هناك حياة بعد الموت، فقد أجد تعويضًا لأغلب ما لدى من الفضول العميق وما أتوق إليه بقوة، أيا كان موعد وفاتى، أما إذا كان الموت مجرد نوم لا ينتهى لا أحلام فيه، فإن ذلك سيكون أملًا بائسًا، ربما أتاح لى هذا التصور قليلًا من الدافع الإضافى لكى أستمح حيا.

العالم بالغ الروعة ملئ بالحب والعمق الأخلاقى، لذلك لا يوجد مبرر لأن نخدع أنفسنا بحكايات بارعة تستند إلى قليل من الأدلة الصحيحة، ويبدو لى أنه من الأفضل تماما – نظرا لقابليتنا للعطب – أن ننظر إلى الموت وجها لوجه وأن نقر بالجميل كل يوم لتلك الفرصة الوجيهة ولكن العظيمة التى تمدنا بها الحياة.

لعدة سنوات بالقرب من المرأة التى أحلق أمامها، احتفظ ببطاقة بريدية ذات إطار؛ لذلك أراها كل يوم. على ظهرها رسالة مكتوبة بالقلم إلى السيد جيمس داي فى سوانسى فالى فى ويلز. تقرأ عليها:

صديقى العزيز

مجرد سطر لكى أوضح أننى على قيد الحياة وأقاوم وفى حالة رائعة. إنها لمتعة.

المخلص لك دبليو.جى.آر.

عليها توقيع بالأحرف الأولى التي يصعب فك مغالقها تقريبًا لأحد الذين يحملون اسم وليام جون روجرز، في مقدمتها صورة ملونة لباخرة أنيقة ذات أربعة مداخن عليها اسم "باخرة النجم الأبيض تيتانيك".

كان ختم البريد قد تم وضعه قبل يوم من غرق تلك السفينة الشهيرة، و وفاة أكثر من ١٥٠٠ شخص، بما فيهم السيد روجرز.

كنت وأناى نعرض هذه البطاقة البريدية لسبب ما، كنا نعرف أن كلمات "فى حالة رائعة" قد يكون تعبيرًا عن حالة مؤقتة وخادعة أكثر من غيرها. وهكذا كانت حالتنا.

كنا فى صحة جيدة ظاهريًا، أطفالنا ينمون بقوة. كنا نكتب الكتب، نشرع فى مشاريع تلفزيونية وسينمائية جديدة، نلقى المحاضرات، وواصلت من جهتي الانشغال بالبحث العلمى الأكثر إثارة.

كنت أتفرج على البطاقة البريدية ذات الإطار فى صباح ما فى أواخر ١٩٩٤، عندما لاحظت أناى علامة قبيحة سوداء وزرقاء على ذراعى حيث كانت موجودة فى هذا المكان منذ عدة أسابيع. "لماذا لم تختف؟" تساءلت، وأمام إلحاحها ذهبت على مضض إلى حد ما إلى الطبيب لإجراء بعض اختبارات الدم الروتينىة (لا يمكن للندبات السوداء الزرقاء أن تكون خطيرة، هل يمكن أن تكون كذلك؟).

عرفنا النتيجة منه بعد عدة أيام لاحقة عندما كنا فى أوستن فى تكساس، وكان مرتبكًا، حدث بالتأكد بعض الاختلاط فى المختبر. أظهر التحليل أن الدم يخص شخصًا يعانى من مرض شديد. وبإلحاح قال "أرجوك، يجب إعادة الاختبار فورًا" وهذا ما فعلته. لم يكن هناك خطأ.

كانت الخلايا الحمراء لدى - التى تحمل الأكسجين عبر الجسم، وخلاياى البيضاء، التى تحارب المرض - كلتاهما فى حالة نضوب تام ، التفسير الأكثر ترجيحًا ، كانت هناك مشكلة فى الخلايا الجذعية ، الأسلاف المشتركة لكل من خلايا الدم البيضاء والحمراء، والتى يتم إنتاجها فى نخاع العظام. تأكد التشخيص بواسطة خبراء فى هذا المجال. لقد أصابنى مرض لم أسمع به من قبل،

هو سوء النمو النخاعي myelodysplasia ومصدره غير معروف تقريباً، وكل ما صدر عنى أننى أصبت بالدهشة عندما سمعت أن فرص نجاتى صفر، قد يدركنى الموت خلال ستة أشهر. ظللت أشعر بأننى بخير ، وقد أصاب بدوار من وقت لآخر. كنت نشيطاً ووافر الإنتاج، وكانت فكرة أننى على عتبة الموت تبدو مثل دعاية غريبة.

كانت هناك طريقة واحدة فقط معروفة لعلاج قد يودى إلى الشفاء: زراعة نخاع عظام. لكن ذلك يكون ذا فعالية فقط إذا أمكننى العثور على متبرع متطابق. وحتى إذا تم ذلك، فإنه يجب إيقاف نشاط جهاز المناعة لدى بالكامل حتى لا يرفض جسمى نخاع عظام المتبرع، ومع ذلك يمكن لجهاز المناعة المكبوت بشدة أن يودى إلى قتلى بعدة طرق أخرى ، مثال لذلك، بالحد الكبير من مقاومتي للمرض حتى أسقط فريسة لأي ميكروب عابر. باختصار فكرت فى عدم فعل أى شىء وانتظار التقدم فى مجال البحث العلمى للتوصل إلى علاج جديد. لكن ذلك كان أضعف الآمال.

تلاقى كل اتجاهات بحثنا عن المكان الذى يمكن أن نتوجه إليه وهو فى مركز فريد هوتشينسون لأبحاث السرطان فى سياتل - أحد أقدم المؤسسات فى زراعة نخاع العظام فى العالم - وهو المكان الذى يحب العمل فيه كثير من الخبراء فى هذا المجال (منهم إى . دونالد توماس) الحائز على جائزة نوبل ١٩٩٠ فى الفسيولوجيا والطب ، لتحسينه التقنيات الراهنة فى مجال زراعة نخاع العظام ، كانت الكفاءة العالية لدى الأطباء وأطقم التمريض، والرعاية الممتازة، تتطابق تماماً مع النصيحة التى أوصتنا بالعلاج فى "الهوتش".

كانت الخطوة الأولى العثور على المتطوع المناسب، بعض الناس لا يجدون أحداً من هذا النوع البتة. اتصلت أنا وأنى بقريبتى الوحيدة (أختى الأصغر، كارى) اكتشفت أننى أنقل لها الأمر بطريقة ضمنية وغير مباشرة، ولم تكن كارى تعرف حتى أننى مريض، وقبل أن أوضح المشكلة تماماً، قالت: "كل ما ترغب فيه متاح. أيا كان .. كبد .. رئة .. كلها لك"، مازلت أشعر بغصة كلما فكرت فى سخاء كارى. ولم يكن هناك بالطبع ضمان بأن نخاعها العظمى سيتطابق مع نظيره عندى. وأجريت لها سلسلة من الاختبارات، ومع كل اختبار بعد الآخر كانت عوامل التطابق

الستة متماثلة لدينا. كانت مناسبة لى تمامًا ، كنت محظوظا بشكل لا يمكن تصديقه.

و"محظوظ" تعبير نسبي، فحتى مع العثور على التطابق التام، كانت فرص شفائي نحو ٣٠ في المائة ، كان ذلك يماثل لعبة الروليت الروسي بأربعة خرطوشات فى الماسورة بدلا من خرطوشة واحدة. لكنها كانت إلى حد بعيد أفضل فرصة لدى، ولقد واجهت فى الماضى احتمالات أقل بكثير.

تحركت عائلتنا كلها إلى سياتل، ومعنا والدى أنى. تمتعنا بتدفق مستمر من الزائرين - أطفال ، راشدين، حفيدي، وأقارب آخرين وأصدقاء - عندما كنت فى المستشفى وعندما أصبحت مريضا خارج المستشفى. وأنا واثق أن الدعم والحب الذى تلقيناه، وخاصة من أنى، حوّل فرص الشفاء لمصلحتى.

كان هناك - كما هو متوقع - كثير من الجوانب المرعبة. أتذكر ليلة كان على أن أستيقظ - تبعا للتعليمات الطبية - الساعة الثانية بعد منتصف الليل وأن أفتح أول عبوة من ١٢ صندوقا بلاستيكيًا تحتوى على أقراص بوسولفان busulfan ، وهى مادة علاج كيميائى قوية. وعلى الكيس كتابة تقول:

عقار علاج كيميائى
خطر على الحياة خطر على الحياة
سام
يعامل على أنه خطر على الحياة

ومرة بعد أخرى تعاطيت ٧٢ من تلك الحبوب، كانت كمية مهلكة، لو لم يكن على أن أتلقى زراعة نخاع عظام بعد ذلك بقليل، كان يمكن لهذا العلاج بكبح المناعة أن يقتلنى بمفرده، كان الأمر يبدو كما لو أنه تناول لجرعة مميتة من الزرنيخ أو من السيانيد، وتمنى أن يصل الترياق فى الوقت المناسب.

كان لعقاقير كبح جهازى المناعى آثارٌ جانبية قليلة، كنت فى حالة مستمرة من الدوار المعتدل، لكنها كانت تحت السيطرة بواسطة عقاقير أخرى ولم تكن بالغة السوء لكنها لم تكن تسمح لى بإنجاز أى عمل . فقدت كل شعورى تقريباً ، مما جعلنى أبدو - مع فقد لاحق للوزن - فى مظهر يقترب من الجثة، لكننى كنت أكثر ثباتاً عندما نظر إلى ابنتنا سام ذو أربعة الأعوام قائلاً : " قصة شعر رائعة ، بابا . " ثم أضاف " لم أكن أعرف أنك مريض. كل ما أعرفه أنك تتحسن".

كنت أتوقع أن تكون عملية الزراعة نفسها مؤلمة جداً ، لكنها لم تكن كذلك، كانت تشبه مجرد نقل دم، وخلايا نخاع العظمى لأختى تجد طريقها بنفسها إلى نخاعى العظمى، كانت بعض جوانب العلاج شديدة الألم، لكن يحدث نوع من فقد الذاكرة الصدمى، فتجد نفسك بعد انتهاء كل شىء وقد نسيت الألم تقريباً. و"لهوتش" سياسة مستنيرة للتحكم الذاتى فى العقاقير المضادة للألم، تتضمن مشتقات المورفين، لذلك كان فى استطاعتى التعامل الفورى مع الألم الشديد ، مما جعل التجربة كلها يمكن احتمالها إلى درجة كبيرة.

فى نهاية العلاج، كانت خلايا دمي الحمراء والبيضاء هى فى الغالب خلايا كارى، كان كروموسوما الجنس إكس. إكس XX بدلا من إكس. واى XY فى بقية جسمى، أصبحت لدى خلايا أنثوية وصفائح دموية أنثوية تدور فى جسمى، وانتظرت أن تظهر على بعض اهتمامات كارى : الولوج بركوب الخيل، مثلاً ، أو حب مشاهدة نصف دزينة من مسرحيات برودواى فى مناسبة واحدة ، لكن هذا لم يحدث أبداً.

أنقذت أنى وكارى حياتى سأكون مديناً دائماً لهما بحبهما لى ويحنوهما على، وبعد خروجى من المستشفى، كنت فى حاجة إلى كل أنواع الرعاية الطبية، بما فى ذلك تنظيم حصولى على العقاقير عدة مرات يومياً من خلال فتحة فى الوريد الأجوف، كانت أنى "الرعاية المخصصة" لى ، حيث تنظم عملية حصولى على الأدوية نهائياً وليلاً، وتقوم بتغيير ملابسى، وفحص الدلالات الحيوية، وإتاحة الدعم الأساسى الذى أحتاجه ، ويقال إن الأشخاص الذى يصلون إلى المستشفى بمفردهم - وهو أمر مقبول - تكون فرصتهم فى الشفاء أقل بكثير.

فى ذلك الوقت تم استبقائى من أجل الأبحاث الطبية، كان بعضها أبحاثاً تطبيقية تم تصميمها للمساعدة على الشفاء أو تخفيف آلام الأمراض القاتلة مباشرة، وبعضها أبحاث أساسية، صُممت فقط لفهم كيفية أداء الكائنات الحية لوظائفها ، ولكن مع فوائد عملية ضخمة لا يمكن التنبؤ بها، كنتائج يتم اكتشافها مصادفة.

تم استبقائى أيضاً بواسطة التأمين الطبى الذى تتيحه جامعة كورنيل وبواسطة نقابة كتاب أمريكا (كخدمة تقدم إلى بصفتى زوجا لآنى) ، وهى هيئة لكتاب السينما والتلفزيون إلخ. وهناك عشرات الملايين من الأميركيين لا يتمتعون بهذا التأمين الطبى ، فماذا تقدم لهم فى محنتهم؟

حاولت فى كتاباتى أن أوضح نوع القرابة الحميمة بيننا وبين الحيوانات الأخرى، وكم هو أمر قاسى أن نصيبهم بالألم، وكيف يفتقر إلى الأخلاق افتقاراً تاماً أن نذبحها لكى نصنع منها - مثلاً - أصابع أحمر الشفاه، لكن يظل - كما أورد الدكتور توماس فى محاضرتة بمناسبة حصوله على جائزة نوبل - "أنه لم يكن من الممكن لزراعة النخاع أن تصل إلى التطبيق السريرى بدون الأبحاث على الحيوانات، أولاً على قوارض منتجة بالاستيلاد فى المختبر ثم على أجناس منتجة بالتزاوج بين الأبعاد، خاصة الكلاب" ، وأشعر بصراع شديد فيما يتعلق بهذا الموضوع. لم أكن لأستمر حياً حتى الآن إذا لم تكن هناك أبحاث على الحيوانات.

وهكذا عادت الحياة إلى طبيعتها، عدت أنا وآنى وعائلتنا إلى إيثاكا فى نيويورك - حيث نعيش - أكملت عدة مشاريع أبحاث وأنجزت البروفة الطباعية النهائية لكتابى "عالم تحكمه العقاريت : العلم شمع فى الظلام" . قابلنا بوب زيميكيس مدير وارنر براذرز لفيلم "الاتصال" - المبنى على روايتى، التى كتبت لها مع آنى سيناريو وكنا قد أصبحنا حينئذ مشاركين فى الإنتاج، وبدأنا التفاوض حول بعض المشروعات التليفزيونية والسينمائية الجديدة، شاركت فى المراحل الأولى لتلاقى السفينة الفضائية "جاليليو" بالمشتري.

وإذا كان هناك درس تعلمته بدقة فهو أن المستقبل لا يمكن التنبؤ به، وكما اكتشف بكل أسى وليام جون روجرز، وهو يكتب بقلمه مبتهجاً على بطاقته

البريدية فى الهواء المنعش للمحيط الأطلسى الجنوبى، ليس هناك ما يدل على ما يخفيه حتى المستقبل القريب جدًا. وهكذا – بعد قضاء شهر فى البيت – وقد عاد شعرى إلى النمو واستعدت وزنى العادى، وكان تعداد خلاياى البيضاء والحمراء فى المستوى الطبيعى، وأنا أشعر بنفسى رائع تمامًا ، عاجلنى وقادنى إلى الإحباط اختبار دم آخر عادى.

”أخشى أن يكون لدى بعض الأخبار السيئة لك“ هكذا قال الطبيب. ظهر فى نخاعى العظمى تجمع جديد للمخاطر ينتج الخلايا بسرعة، وبعد يومين كانت العائلة كلها فى سياتل مرة أخرى، وأكتب هذا الفصل من سريرى فى المستشفى فى الهوتش، ومن خلال عملية مختبرية جديدة تم اكتشاف أن تلك الخلايا الشاذة ينقصها إنزيم يمكنه حمايتها من عاملين فى العلاج الكيميائى قياسيين – وهما من المواد الكيميائية التى لم أتعاظها من قبل، بعد دورة واحدة لهاتين المادتين، لم يتم العثور على أية خلايا شاذة فى نخاعى، وللتخلص من أية خلايا شاردة (قد تكون قليلة لكنها سريعة النمو جدًا)، كان لا بد أن أحصل على دورتين من العلاج الكيميائى لأفوز بمزيد من خلايا أختى. ومرة أخرى – كما كان يبدو – كانت لدى فرصة حقيقية للشفاء التام.

لدينا جميعًا الميل إلى الاستسلام لحالة من اليأس فيما يخص قدرة الجنس البشرى على التخريب وقلة تبصره.

لقد قدمت بالتأكيد ما فى وسعى (وما زلت أعتبر راسخ الأسس فى هذا المجال). لكن أحد اكتشافاتى خلال مرضى هو الجماعة الطبية غير العادية التى يعتبر الأشخاص فى مثل موقفى مدينين لها بحياتهم.

هناك أكثر من مليونى أمريكى على سجل المتطوعين لدى البرنامج القومى للمتبرعين بالنخاع، يرغبون جميعًا فى الخضوع لعملية استخراج نخاع مرهقة إلى حد ما قد يكون نافعا لبعض الغرباء عنهم تمامًا، ويتبرع ملايين آخريين بالدم إلى الصليب الأحمر الأمريكى وهيئات التبرع بالدم الأخرى بدون أية مكافأة، ولا حتى ورقة نقدية من فئة خمسة الدولارات، لإنقاذ حياة مجهولة لديهم.

يعمل العلماء والتقنيون لمدة سنوات ، فى مواجهة ظروف غير مواتية، مقابل أجور منخفضة فى أحوال كثيرة، ويدون أية ضمانات للنجاح ، لديهم كثير من الدوافع، لكن أحدها الأمل فى مساعدة الآخرين وفى شفائهم من الأمراض وإنقاذهم من الموت ، عندما نصبح مهددين بأن تغمرنا الشكوك فى طيبة الدافع البشرى ، يتمثل طوق نجاتنا فى تذكر مدى انتشار الطيبة.

صلى من أجلى خمسة آلاف شخص خلال صلاة عيد فصح فى كاتدرائية سانت جون المقدسة فى مدينة نيويورك، أضخم كنائس كرسيتيندوم، وأقام كاهن هندوسى صلاة مسائية طويلة من أجلى على ضفتى نهر الكنج، وحكى لى إمام أمريكا الشمالية عن صلواته من أجل شفائى.

كتب إلى كثير من المسيحيين واليهود ليحكوا عن صلواتهم من أجلى، وبينما لا أعتقد أنه إذا كان هناك إله، سيتغير قدره تجاهى بالصلوات، فأنا مقر بالجميل أكثر بكثير مما يمكننى التعبير عنه لكل الذين مدوا يد العون إلىّ خلال مرضى - ومنهم كثيرون - لم أقابلهم من قبل.

سألنى الكثير منهم كيف يمكن أن أواجه الموت دون يقين بالآخرة؟ كل ما أستطيع قوله أن ذلك لم يمثل لى مشكلة ، ومع التحفظات تجاه "الأرواح الواهنة"، أشارك أحد أبطالى رأيه، وهو ألبرت إينشتين:

لا أتصور إلهاً يكافئ ويعاقب مخلوقاته أو لديه رغبة مثل تلك التى نلاحظها فى أنفسنا، ولا أستطيع ولا أتوقع أن تكون لدى رغبة فى تصور شخص ينجو من موته الجسمانى، دعك من الأرواح الواهنة بسبب الخوف أو الأنانية السخيفة، يتعلق بمثل هذه الأفكار ، وأنا قانع بلغز لانهاية الحياة وبإلقاء نظرة خاطفة على البنية الرائعة للعالم الموجود، إضافة إلى النضال المكرس لفهم جزء - مهما كان ضئيلاً - من "العقل" الذى يُظهر نفسه فى الطبيعة.

ملحق

منذ كتابة هذا الفصل من عام مضى، وقعت أحداث كثيرة، تم إطلاق سراحى من الهوتش، وعدنا إلى إيثاكا، ولكن بعد عدة أشهر عاد المرض، وفى تلك المرة كان أكثر قسوة، ربما لأن جسمى كان قد أصيب بالضعف بسبب العلاجات السابقة، ولكن أيضًا لأنه فى تلك المرة كان تكيف ما قبل زراعة نخاع يتضمن تعريض الجسم كله للأشعة السينية، ومن جديد اصطحبتنى أسرتى إلى سياتل. ومرة أخرى تلقيت نفس الخبرة والرعاية الرحيمة فى الهوتش، ومرة أخرى كانت أنى رائعة فى تشجيعى والمحافظة على روحى المعنوية عالية، ومن جديد كانت أختى كارى سخية بلا حدود بنخاعها العظمى، ومرة أخرى كنت محوطًا بجماعة الخير. وفى اللحظة التى أكتب فيها، يعتبر تقدير الحالة على أفضل ما يمكن، رغم أنه قد يتغير عند الاختبار، كل خلايا نخاع العظام الملحوظة هى خلايا المتبرع إكس. إكس، خلايا أنثوية، خلايا من أختى، ولا توجد خلية واحدة إكس. واى، خلايا العائل، الخلايا الذكرية، الخلايا التى نشأ عنها المرض، يعيش الناس سنوات حتى بنسبة مئوية ضئيلة من خلاياهم العائلة، لكن لا يمكننى التأكد بشكل معقول حتى يمر نحو عامين، وحتى ذلك الحين، ليس أمامى سوى الأمل.

سياتل، واشنطن

إيثاكا، نيويورك

أكتوبر ١٩٩٦

خاتمة

بتفاؤلية مميزة في مواجهة الغموض المعذب، يكتب كارل الباب الأخير في المادة الأساسية الأصلية لعمله الضخم العميق العابر للمجالات الأكاديمية بجسارة والمدهش أيضاً.

بعد عدة أسابيع لاحقة، في أوائل ديسمبر، كان يجلس أمام مائدة الطعام في بيتنا، ينظر إلى وجبة أثيرة لديه بنظرة مرتبكة، لم تكن مغرية، في أفضل الأوقات، كانت عائلتي تفخر بأن لديها دائماً ما كنا نطلق عليه "وودار wodar"^(*)، ويمثل آلية داخلية تفحص الأفق بشكل متواصل للتقاط أول صور رادارية للكارثة التي تلوح من بعيد على نحو غير واضح، وخلال العامين اللذين قضيناهما في وادي الظلام، كان الودار الخاص بنا لا يزال في حالة أعلى إنذار ثابتة، وفي تلك الأفعوانية^(**) من الآمال المحبطة وانبعاث الآمال ثم الإحباط من جديد، كان ولو أقل القليل من التغير في جانب واحد من الحالة الجسدية لكارل كفيلاً بجعل أجراس الإنذار تدق بعنف.

مرت نظرة مشدوهة بيننا، بدأت فوراً التفكير في افتراض لطيف لتبرير فقد الشهية المفاجئ الذي أصابه، وكما هي العادة قلت إن ذلك قد لا تكون له صلة بمرضه. إنه مجرد عدم اهتمام سريع الزوال بالطعام حالة قد لا يلاحظها الشخص الذي يتمتع بصحة جيدة. احتال كارل على الأمر بابتسامة سريعة ولم يقل سوى "ربما"، ولكن منذ تلك اللحظة ولاحقاً كان عليه أن يرغم نفسه على أن يأكل وبدأت قواه تذبل بشكل ملحوظ.

(*) قد تكون الكلمة مشتقة من woden وهو إله أنجلو ساكسوني متماثل مع أودين الإله النرويجي للحكمة والحرب والذي تبعاً لأساطيرهم قد خلق الكواكب، والاستخدام هنا قد يدل على الحكمة والمقاومة في مواجهة الموقف إضافة إلى اكتشاف المخاطر المقبلة (المترجم).

(**) سكة حديد مرتفعة في مدينة الملاهي تتلوى وتنخفض وتجري فوق قضبانها عربات صغيرة (المترجم).

ورغم ذلك أصر على تنفيذ وعد سابق بتقديم محاضرتين للجمهور في وقت لاحق ذلك الأسبوع في منطقة سان فرانسيسكو باي، عندما عاد إلى فندقنا بعد المحاضرة الثانية كان في حالة إجهاد بالغ. اتصلنا بسياتل.

ألح علينا الأطباء بأن نعود إلى الهوتش فوراً، كنت في فزع من إبلاغ ساشا وسام بأننا قد لا نعود إليهما في البيت في اليوم التالي كما وعدناهما، وبدلاً من ذلك قد نقوم برحلة رابعة إلى سياتل، وهو مكان أصبح مرادفاً لدينا للفرع، أصيب الطفلان بذهول. كيف كان يمكننا تهدئة مخاوفهما بطريقة تقنعهما بأن هذه الرحلة لن تتحول - كما حدث ثلاث مرات من قبل - إلى مهمة أخرى تستغرق ستة أشهر بعيداً عن البيت، أو - كما ارتابت ساشا فوراً - أن يحدث ما هو أسوأ بكثير؟ ومرة أخرى مارست تعويذتي المشجعة: بابا يرغب في الحياة. إنه أشجع رجل عرفته وأكثر الرجال قوة. والأطباء هم أفضل ما يتوافر في العالم نعم، قد يحدث تأجيل للهانوكاه^(*) Hanukkah. لكن بمجرد أن تتحسن صحة بابا

في اليوم التالي في سياتل، أظهرت الأشعة السينية أن كارل مصاب بالتهاب رئوي سببه غير معروف، فشلت الاختبارات المتكررة في اكتشاف أى دليل على وجود سبب بكتيري، فيروسي، أو ناشئ عن الفطر، ربما كانت الالتهابات في رئتيه رد فعل متأخر بسبب جرعة الإشعاع المهلكة التي أعطيت له منذ ستة أشهر سابقة ضمن تجهيزات آخر زراعة لنخاع العظام، ولم ينتج عن جرعات الستيرويدات steroids الضخمة سوى مضاعفة آلامه ولم تنجح في شفاء رئتيه، بدأ الأطباء إعدادى لما هو أسوأ، والآن - وقد تجرأت على السير في مدخل المستشفى - واجهت أنواعاً من تعبيرات مختلفة تماماً على وجهى شخصين أليفين لدى من الفريق الطبى. فكانا إما أن يجعلاً تعاطفاً وإما أن يحول بصرهما بعيداً عني. حان الوقت لكى يأتى الطفلان إلى الغرب.

عندما رأى كارل ساشا يبدو أنها أثارت تغيراً خارقاً في حالته، ناداها قائلاً "جميلة، جميلة، ساشا"، "لست فقط جميلة لكن لديك أيضاً بهاء هائل"، قال لها إنه

(*) عيد مدته ثمانية أيام يبدأ في الخامس والعشرين من الشهر الثالث للسنة في التقويم العبرى لإحياء ذكرى النصر عام ٥٦١ قبل الميلاد للمكابيين (المترجم).

إذا نجح فى النجاة من مرضه فسوف يكون ذلك جزئياً بسبب القوة التى وهبها حضورها له، وخلال عدة ساعات تالية بدا أن ملاحظات المستشفى تسجل تحولاً، حلقت آمالى عالياً، لكن مع خلفية أفكارى لم يمكننى التخلص من فكرة أن الأطباء لا يشاركوننى حماسى. اعتبروا ذلك الاستجماع الوجيز جداً للقوى ضمن ما تعودوه، وهو ما يطلقون عليه "الصيف الهندى" (*) ، فترة راحة قصيرة للجسم قبل نزع الأخير.

"إنه جرس الموت" هكذا قال لى كارل هادئاً. "سوف أموت" ، "لا" اعترضت "سوف تتغلب على كل ذلك، تماماً كما فعلت سابقاً عندما كان الأمر ميئوساً منه". التفت إلى بنفس النظرة التى رأيتها مرات كثيرة فى المناقشات والمشادات الكلامية التى جرت بيننا خلال عشرين عاماً قضيناها نكتب معا فى حب جامع. ويمزج من معرفة المزاج الطيب والنزوع إلى الشك، ولكن كما كان الأمر دائماً، بدون أثر من الرثاء للذات ، قال بعناد "حسناً ، سنرى من هو على حق بالنسبة لذلك الأمر".

جاء سام - الذى كان عمره خمس سنوات حينئذ - لرؤية والده لمرّة أخيرة. ورغم أن كارل كان منذ ذلك الحين يكافح لى يتنفس ويجد صعوبة فى الكلام، نجح فى تهدئة نفسه حتى لا يخيف ابنه الصغير. "أحبك يا سام" هذا كل ما استطاع قوله ، رد سام مكتئباً : أحبك أيضاً داذى .

بعكس تخیلات المتعصبين الجامحة، لم تكن هناك هداية فى ساعة الاحتضار الأخيرة، ولم يكن هناك لجوء إلى مأوى فى التصورات المواسية حول سماء أو حياة بعد الموت، بالنسبة إلى كارل كان أهم ما يهتم به هو الشئ الحقيقى، وليس مجرد ما يجعلنا نشعر بأننا فى حالة أفضل، وحتى فى تلك اللحظة التى يمكن فيها الصفح عن أى شخص يتجاهل موقفنا الواقعى، لم يكن كارل يجفل. وعندما كنا نتبادل النظرات العميقة، كان ذلك يحدث بإيمان راسخ مشترك بأن حياتنا الرائعة معا كانت تنتهى إلى الأبد.

(*) فترة هدوء أو سعادة تقع قبل انتهاء شئ ما (المترجم) .

بدأ الأمر بيننا في ١٩٧٤ خلال حفل غداء أقامته نورا إفرون في مدينة نيويورك. أتذكر كم كان كارل وسيماً بكمي قميصه المطويين وابتسامته المتألقة، تناول حديثنا البايستول والرأسمالية وأثارتني قدرتي على جعله يضحك تلقائياً. لكن كارل كان متزوجاً وكنت مرتبطة برجل آخر، كنا نجتمع كأزواج، واقتربنا نحن الأربعة كثيراً من بعضنا البعض وبدأنا نعمل معاً، كانت هناك أوقات نكون خلالها أنا وكارل معاً على انفراد في حالة نشاط وخفة وإثارة بالغة، لكن لم تصدر إشارة عن أي منا إلى الآخر حول مشاعرنا الحقيقية، لم يكن هناك مجال للتفكير فيها.

في أوائل ربيع ١٩٧٧، تلقى كارل دعوة من ناسا لتكوين لجنة لاختيار مواد تسجيل فونوجرافى يتم وضعه في مركبتى الفضاء فوياجير ١ وفوياجير ٢، كان مخططاً قذف المركبتين، عند اكتمال استكشافهما الطموح للكواكب الأكثر بعداً عن الشمس وأقمارها، بواسطة الجاذبية خارج المجموعة الشمسية، وكانت تلك فرصة لإرسال رسالة إلى الكائنات التي يحتمل وجودها في عوالم أخرى وأزمنة أخرى، قد تكون أكثر تعقيداً بكثير من اللوحة التي وضعها كارل وزوجة كارل (ليندا سالزمان) ورائد الفضاء (فرانك دريك) على بيونير ١٠، لقد كانت عملاً بالغ الأهمية لكنها كانت في الأساس لوحة تعريف، كان على تسجيل فوياجير أن يتضمن تحيات بستين لغة بشرية ولغة واحدة للحيتان، رسالة سمعية تطويرية، ١١٦ صورة عن الحياة على الأرض، وتسعين دقيقة من الموسيقى باللغة التنوع من الثقافات العالمية، خطط المهندسون لتخزين بيانات حتى بليون عام على التسجيلات الفونوجرافية الذهبية.

ما طول بليون عام؟ قد تتغير القارات الأرضية بدرجة لا تتيح لنا التعرف على معالم كوكبنا، منذ ألف مليون سنة مضت كانت أكثر أشكال الحياة تعقيداً على الأرض هي البكتيريا، في غمرة سباق التسليح النووي، كان يبدو مستقبلنا - حتى في المدى القريب - مشهداً مشكوكاً فيه. والذين حصلوا من بيننا على امتياز العمل في إنجاز رسالة فوياجير أدوا المهمة بشعور بقداسة الهدف، كان من الواضح أننا - مثل نوح، كنا نصنع فلك الثقافة البشرية، الشيء الوحيد من صنع الإنسان الذي يمكن أن يبقى حتى المستقبل بالغ البعد بقدر لا يمكن تخيله.

خلال بحثي المثبط للهمة عن قطعة موسيقية صينية وحيدة تكون باللغة
الأهمية، اتصلت هاتفياً بكارل وتركت له رسالة في فندقه في توكسون حيث كان
يلقى محاضرة، بعد ساعة سمعت صوت الهاتف في شقتي في مانهاتن، رفعت
السماعة وسمعت صوتاً يقول: "عدت إلى حجرتي ووجدت رسالة تقول (أنى تتكلم).
وسألت نفسي : لماذا لم تتركى لى هذه الرسالة منذ عشر سنوات مضت؟"

بشيء من الصراحة المخادعة والمزاح، تلقيت الأمر بجذل، قلت "كنت أضمر
الحديث معك حول ذلك يا كارل" ثم بشكل أكثر اتزاناً "هل تعنى إلى الأبد؟".

قال كمن يقدم عرضاً رسمياً "نعم، إلى الأبد". "فلنتزوج".

قلت "نعم" وفي تلك اللحظة شعرنا بما يشبه اكتشافاً لقانون جديد للطبيعة.
كانت "وجدتها! eureka" ، لحظة اكتشاف حقيقة عظيمة، لحظة تكرر التأكيد عليها
خلال مواقف مستقلة جلية لا تعد ولا تحصى عبر العشرين سنة التالية، لكنها كانت
أيضاً تسليمًا بالمسئولية التامة، بمجرد دخولك هذا العالم الرائع ، كيف يمكنك أن
تقنع فى أى وقت بأن تكون خارجه من جديد؟ كان ١ يونيو عيد حبنا، ومن ذلك
الحين فصاعداً، إذا حدث فى أى وقت أن تجاوز أحدنا الحد تجاه الآخر، كانت
تعويذة ١ يونيو كفيلة عادة بأن تعيد المخطئ إلى عقله أو عقلها.

فى وقت سابق كنت قد سألت كارل ما إذا كان يمكن لكائنات العوالم الأخرى
المفترضة التى ستكون موجودة بعد بليون عام من الآن أن تفسر موجات المخ
لشخص متأمل. "من يعرف؟ بليون عام زمن طويل، طويل جداً" هكذا أجاب. "إذا
كان هناك احتمال أن يكون ذلك ممكناً فلما لا نجرب؟".

بعد يومين من المكالمات التى غيرت حياتنا، دخلت إلى مختبر فى مستشفى
بيليفى فى مدينة نيويورك حيث تم توصيلى بكمبيوتر يحول كل البيانات من
مخى وقلبى إلى صوت. أصبح لدى سجل عقلى مدته ساعة للمعلومات التى رغبت
فى نقلها، بدأت بالتفكير فى تاريخ الأرض والحياة التى كانت الأرض تمدها
بالبقاء. وبأقصى جهد لدى حاولت التفكير فى بعض من تاريخ الأفكار والتنظيم
الاجتماعى البشرى. فكرت فى الورطة التى وجدت حضارتنا نفسها فيها وفى

العنف والفقر الذين جعلوا هذا الكوكب جحيمًا لكثير من سكانه، وبالقرب من النهاية سمحت لنفسى بعرض ما كان يبدو وقوعًا فى الحب.

اتقدت الحمى الآن لدى كارل، ظللت أقبله وأحك وجهى بخده الملتهب غير الحليق، كانت حرارة جلده تعيد الطمأنينة بشكل غير منتظم، أردت أن أفعل ما أفعله حتى يصبح وجوده الجسمانى النابض بالحياة ذكرى حسية محفورة فى الذهن بشكل يتعذر محوه، كنت ممزقة بين إنهاكه بمواصلة المقاومة ورغبتي فى تحريره من أجهزة التعذيب الداعمة للحياة ومن القوى الشريرة التى عذبتة لمدة عامين.

استدعيت أخته كارى - التى أعطته الكثير من نفسها لمنع الوصول إلى هذه النتيجة - وأبناءه البالغين دوريون وجيريمى ونيكولاس والحفيد تونيو، كانت أسرتنا مجتمعة قد أقامت صلاة شكر معًا فى منزلنا فى إيثاكا منذ نحو عدة أسابيع فقط. وبالتهليل الجماعى كانت أفضل صلاة شكر حضرتها طوال عمري. خرجنا منها جميعًا بنوع من التوهج - كانت هناك ثقة متبادلة وتقارب فى هذا التجمع الذى أتاح لنا مزيدًا من الشعور بالتوحد. أضع الآن السماعاة بالقرب من أذن كارل حتى يمكنه سماعهم وهم يودعونه أحدهم بعد الآخر، جاءت على عجل صديقتنا الكاتبة المنتجة ليندا أويست من لوس أنجلوس لتكون معنا، لقد كانت ليندا هناك فى تلك الأمسية الساحرة عند نورا عندما تقابلت أنا وكارل، وشهدت بشكل مباشر، أكثر من أى شخص آخر، كلا من أنشطة تعاوننا الشخصية والاحترافية، ولأنها كانت المنتج الأصلى لفيلم "التواصل"، كانت تعمل معنا عن قرب خلال ستة عشر عامًا وهى المدة التى استغرقتها عملية إعداد المشروع للإنتاج.

كانت ليندا قد لاحظت أن التوهج الصامد لحبنا أنتج نوعًا من الهيمنة على من حولنا، الذين لم يواثهم الحظ فى بحثهم عن زفيق الروح. ومع ذلك - بدلاً من أن تستاء من علاقتنا - اعتزت بها ليندا كنظرية وجود لدى عالم رياضيات، نظرية توضح أن شئ ما قابل للوجود، اعتادت تسميتى بمس بليس. كنت وكارل نعتز بتلك الأوقات التى قضيناها معها ضاحكين، نتناقش حتى وقت متأخر من الليل حول العلم، الفلسفة، الإشاعات، الثقافة الشعبية، وكل شئ. والآن ها هى المرأة

التي خلّقت معنا، التي كانت معي في اليوم المسبب للدوار يوم اخترت ثوب زفافي، كانت هناك بجانبنا ونحن نودع بعضنا إلى الأبد.

لعدة أيام وليال تبادلت أنا وساشا الهمس في أذن كارل، قالت له ساشا كم تحبه وحكت له عن كافة الوسائل التي ستستخدمها في حياتها لتكريمه "رجل شجاع وحياة رائعة" كررت القول له : "إنجاز بارع. بكل زهو حبنا وبهجته، أتركك ترحل بدون خوف. ١ يونيو. إلى الأبد".

في الوقت الذي أجرى فيه التغييرات اللازمة تأكيدًا على أن واجب تكريم كارل قد يكون ضروريًا، فإن ابنه جيريمي في الدور العلوي يعطى سام الدرس المسائي في الكمبيوتر. ساشا في غرفتها تنجز الواجب المدرسي المنزلي، تكون مركبتا الفضاء فوياجير - بمفاجأتها عن العالم الصغير المزينة بالموسيقى والحب - قد تجاوزتا أبعد الكواكب في المجموعة الشمسية، في طريقهما إلى بحر فضاء ما بين النجوم. وهما تندفعان بسرعة أربعين ألف ميل في الساعة نحو النجوم إلى مصير يمثل ما نحلم به، أجلس محوطة بعلب الكرتون المليئة برسائل بريدية من أشخاص من العالم كله يعبرون عن حزنهم لوفاة كارل، ويرجع كثير منهم فضل إدراكاتهم الجديدة إليه، يقول بعضهم إن اتخاذ كارل قدوة لهم ألهمهم بالعمل من أجل العلم والعقل ضد قوى الخرافة والتطرف، تشعرني هذه الأفكار بالراحة وتبعدني عن أحزاني، وتتيح لي أن أشعر - بدون اللجوء لما هو خارق للطبيعة - بأن كارل مازال حيًا.

آن درويان

١٤ فبراير ١٩٩٧

إيثاكا ، نيويورك

المؤلف في سطور

كارل ساجان

- بروفييسور "دافيد دونكان" للفلك وعلوم الفضاء .
- حصل على ٢٢ درجة فخرية من الجامعات الأمريكية لمساهماته في مجالات العلم والأدب والتعليم والمحافظة على البيئة ، وعلى كثير من الجوائز لأعماله حول النتائج بعيدة المدى للحرب النووية والحد من التسليح النووي .
- شارك مشاركة بارزة في رحلات سفن الفضاء "مارينر" و "فايكنج" و"فوياجير" و "جاليليو" إلى الكواكب ، وكان مستشاراً لوكالة الفضاء الأمريكية "ناسا" منذ الخمسينيات ، وتمت تسمية الكويكب "٢٧٠٩ ساجان" على اسمه .
- أسهم في اكتشافات مهمة حول أسرار درجات الحرارة العالية على كوكب الزهرة والتغيرات الموسمية على كوكب المريخ .
- من أشهر كتبه "الكون" الذي عرض على هيئة مسلسل تلفزيوني قبل نشره وشاهده أكثر من ٥٠٠ مليون مشاهد في أكثر من ٦٠ بلداً . وبيع من الكتاب أكثر من خمسة ملايين نسخة في ٨٠ دولة .
- كان أستاذا لعلم الفلك وعلم الفضاء في جامعة دافيد دنكان ومدير معمل دراسات الكواكب في جامعة كورنيل ، وكان مؤسساً مشاركاً ورئيساً للجمعية الكوكبية ، وهي من أكبر المنظمات المعنية بالفضاء في العالم .
- يعتبر هذا الكتاب الثلاثين في سلسلة الكتب التي كتبها ساجان أو شارك في كتابتها أو حررها ، ومنها "تنينات عدن" الذي حصل به على جائزة بولتزر ، و"الحياة الذكية في الكون" و "مخ بروكا" و "عالم تحكمه العفاريات" ورواية "اتصال" التي أصبحت فيلماً مهماً .

المترجم فى سطور

عزت عامر

- محرر علمى ومترجم عن الإنجليزية والفرنسية ، ينشر فى العديد من المجالات والصحف العربية .
- ينشر مقالات علمية بانتظام فى مجلة " العربى " الكويتية .
- عمل محرراً لصفحة العلم والتكنولوجيا فى صحيفة " العالم اليوم " المصرية ، ومسئولاً عن العلم والتكنولوجيا ومحرر صفحة طبية فى صحيفة "الاقتصادية" السعودية .
- صدر له عن المجلس الأعلى للثقافة ترجمة لكتاب فرانسيس كريك "ياله من سباق محموم " ، وقيد النشر فى المجلس أيضاً كتاب " الشفرة الوراثية وكتاب التحولات " لجونسون يان وكتاب " الانفجار الأعظم " لجيمس ليدسى .
- نشر تغطيات صحافية عن مؤتمرات علمية وطبية فى مصر والسعودية ودبى والنمسا وبلجيكا .
- نُشر له ديوانان " مدخل إلى الحداثق الطاغورية " و " قوة الحقائق البسيطة " ومجموعة قصصية " الجانب الآخر من النهر " .
- مهندس طيران متخرج فى كلية الهندسة - جامعة القاهرة ١٩٦٩ .

المشروع القومى للترجمة

المشروع القومى للترجمة مشروع تنمية ثقافية بالدرجة الأولى ، ينطلق من الإيجابيات التى حققتها مشروعات الترجمة التى سبقته فى مصر والعالم العربى ويسعى إلى الإضافة بما يفتح الأفق على وعود المستقبل، معتمداً المبادئ التالية :

- ١- الخروج من أسر المركزية الأوروبية وهيمنة اللغتين الإنجليزية والفرنسية .
- ٢- التوازن بين المعارف الإنسانية فى المجالات العلمية والفنية والفكرية والإبداعية .
- ٣- الانحياز إلى كل ما يؤسس لأفكار التقدم وحضور العلم وإشاعة العقلانية والتشجيع على التجريب .
- ٤- ترجمة الأصول المعرفية التى أصبحت أقرب إلى الإطار المرجعى فى الثقافة الإنسانية المعاصرة، جنباً إلى جنب المنجزات الجديدة التى تضع القارئ فى القلب من حركة الإبداع والفكر العالميين .
- ٥- العمل على إعداد جيل جديد من المترجمين المتخصصين عن طريق ورش العمل بالتنسيق مع لجنة الترجمة بالمجلس الأعلى للثقافة .
- ٦- الاستعانة بكل الخبرات العربية وتنسيق الجهود مع المؤسسات المعنية بالترجمة .

المشروع القومي للترجمة

١ - اللغة العليا (طبعة ثانية)	جون كوين	ت : أحمد درويش
٢ - الوثنية والإسلام	ك. مادهو باننيكار	ت : أحمد فؤاد بليغ
٣ - التراث المسروق	جورج جيمس	ت : شوقي جلال
٤ - كيف تتم كتابة السيناريو	انجا كارييتكوفا	ت : أحمد الحضري
٥ - ثريا في غيبوبة	إسماعيل قصيح	ت : محمد علاء الدين منصور
٦ - اتجاهات البحث اللساني	ميلكا إفيتش	ت : سعد مصلوح / وفاء كامل فايد
٧ - العلوم الإنسانية والفلسفة	لوسيان غولمان	ت : يوسف الأنطكي
٨ - مشعلو الحرائق	ماكس فريش	ت : مصطفى ماهر
٩ - التغيرات البيئية	أندرو س. جودي	ت : محمود محمد عاشور
١٠ - خطاب الحكاية	جيرار جينيت	ت : محمد معصم وعبد الجليل الأزدي وعمر حلي
١١ - مختارات	فيسوفا شيمبوريسكا	ت : هناء عبد الفتاح
١٢ - طريق الحرير	ديفيد براونستون وأيرين فرانك	ت : أحمد محمود
١٣ - ديانة الساميين	روبرتسن سميث	ت : عبد الوهاب غلوب
١٤ - التحليل النفسي والأدب	جان بيلمان نويل	ت : حسن المودن
١٥ - الحركات الفنية	إدوارد لويس سميث	ت : أشرف رفيق عفيفي
١٦ - أثينة السوداء	مارتن برنال	ت : بإشراف / أحمد عثمان
١٧ - مختارات	فيليب لاركين	ت : محمد مصطفى بدوي
١٨ - الشعر النسائي في أمريكا اللاتينية	مختارات	ت : طلعت شاهين
١٩ - الأعمال الشعرية الكاملة	جورج سفيريس	ت : نعيم عطية
٢٠ - قصة العلم	ج. ج. كراوثر	ت: يمني طريف الخولي / بدوي عبد الفتاح
٢١ - خوذة وألف خوذة	صمد بهرنجي	ت : ماجدة العناني
٢٢ - مذكرات رحالة عن المصريين	جون أنتيس	ت : سيد أحمد علي الناصري
٢٣ - تجلي الجميل	هانز جيورج جادامر	ت : سعيد توفيق
٢٤ - ظلال المستقبل	باتريك بارنر	ت : بكر عباس
٢٥ - مثوى	مولانا جلال الدين الرومي	ت : إبراهيم الدسوقي شتا
٢٦ - بين مصر العام	محمد حسين هيكل	ت : أحمد محمد حسين هيكل
٢٧ - التنوع البشري الخلاق	مقالات	ت : نخبة
٢٨ - رسالة في التسامح	جون لوك	ت : منى أبو سنه
٢٩ - الموت والوجود	جيمس ب. كارس	ت : بدر الدين
٣٠ - الوثنية والإسلام (ط٢)	ك. مادهو باننيكار	ت : أحمد فؤاد بليغ
٣١ - مصادر دراسة التاريخ الإسلامي	جان سوفاجيه - كلود كاين	ت : عبد الستار الطرجي / عبد الوهاب غلوب
٣٢ - الانقراض	ديفيد روس	ت : مصطفى إبراهيم فهمي
٣٣ - التاريخ الاقتصادي لأفريقيا الغربية	أ. ج. هويكتز	ت : أحمد فؤاد بليغ
٣٤ - الرواية العربية	روجر آلن	ت : حصة إبراهيم المنيف
٣٥ - الأسطورة والحداثة	بول . ب . ديكسون	ت : خليل كلفت

٢٦ - نظريات السرد الحديثة	والاس مارتن	ت : حياة جاسم محمد
٢٧ - واحدة سيوة وموسيقاها	بريجيت شيفر	ت : جمال عبد الرحيم
٢٨ - نقد الحداثة	ألن تورين	ت : أنور مغيث
٢٩ - الإغريق والحسد	بيتر والكوت	ت : منيرة كروان
٤٠ - قصائد حب	آن سكستون	ت : محمد عيد إبراهيم
٤١ - ما بعد المركزية الأوربية	بيتر جران	ت : عاطف أحمد / إبراهيم قنحي / محمود ملحد
٤٢ - عالم ماك	بنجامين باربر	ت : أحمد محمود
٤٣ - اللهب المزدوج	أوكتاڤيو پاث	ت : المهدي أخريف
٤٤ - بعد عدة أصياف	ألدوس هكسلي	ت : مارلين تادرس
٤٥ - التراث المغفور	روبرت ج دنيا - جون ف آ فاين	ت : أحمد محمود
٤٦ - عشرون قصيدة حب	بابلو نيرودا	ت : محمود السيد علي
٤٧ - تاريخ النقد الأدبي الحديث ج١	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
٤٨ - حضارة مصر الفرعونية	فرانسوا دوما	ت : ماهر جويجاتي
٤٩ - الإسلام في البلقان	ه . ت . نوريس	ت : عبد الوهاب علوب
٥٠ - ألف ليلة وليلة أو القول الأسير	جمال الدين بن الشيخ	ت : محمد برادة وعثمانى الميود ويوسف الأنطكى
٥١ - مسار الرواية الإسبانية أمريكية	داريو بيانوبيا وخ. م بينياليستي	ت : محمد أبو العطا
٥٢ - العلاج النفسى التدمي	بيتر . ن . نوفاليس وستيفن . ج . روجسيفيتز وروجر بيل	ت : لطفى فطيم وعادل دمرداش
٥٣ - الدراما والتعليم	أ . ف . ألنجلتون	ت : مرسى سعد الدين
٥٤ - المفهوم الإغريقى للمسرح	ج . مايكل والتون	ت : محسن مصيلحي
٥٥ - ما وراء العلم	جون بولكنجهوم	ت : على يوسف على
٥٦ - الأعمال الشعرية الكاملة (١)	فديريكو غرسية لوركا	ت : محمود على مكى
٥٧ - الأعمال الشعرية الكاملة (٢)	فديريكو غرسية لوركا	ت : محمود السيد ، ماهر البطوطى
٥٨ - مسرحيتان	فديريكو غرسية لوركا	ت : محمد أبو العطا
٥٩ - المحبرة	كارلوس مونييث	ت : السيد السيد سهيم
٦٠ - التصميم والشكل	جوهانز ايتن	ت : صبرى محمد عبد الغنى
٦١ - موسوعة علم الإنسان	شارلوت سيمور - سميث	مراجعة وإشراف : محمد الجوهري
٦٢ - لذة النص	رولان بارت	ت : محمد خير البقاعى ،
٦٣ - تاريخ النقد الأدبي الحديث ج٢	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
٦٤ - برتراند راسل (سيرة حياة)	آلان وود	ت : رمسيس عوض .
٦٥ - فى مدح الكسل ومقالات أخرى	برتراند راسل	ت : رمسيس عوض .
٦٦ - خمس مسرحيات أندلسية	أنطونيو جالا	ت : عبد اللطيف عبد الحليم
٦٧ - مختارات	فرناندو بيسوا	ت : المهدي أخريف
٦٨ - نتاشا العجوز وقصص أخرى	فالنتين راسيوتين	ت : أشرف الصباغ
٦٩ - العالم الإسلامى فى أولئ القرن العشرين	عبد الرشيد إبراهيم	ت : أحمد قزاد متولى وهويدا محمد فهمى
٧٠ - ثقافة وحضارة أمريكا اللاتينية	أوخينيو تشانج روبريجت	ت : عبد الحميد غلاب وأحمد حشاد
٧١ - السيدة لا تصلح إلا للرمى	داريو فو	ت : حسين محمود

- ٧٢ - السياسي العجوز ت . س . إليوت
- ٧٣ - نقد استجابة القارئ جين . ب . توميكنز
- ٧٤ - صلاح الدين والمالوك في مصر ل . ا . سيمينوفا
- ٧٥ - فن التراجم والسير الذاتية أندريه موروا
- ٧٦ - چاك لاكان وإغواء التحليل النفسي مجموعة من الكتاب
- ٧٧ - تاريخ النقد الأدبي الحديث ج ٢ رينيه ويليك
- ٧٨ - العولة : النظرية الاجتماعية والثقافة الكوتية رونالد روبرتسون
- ٧٩ - شعرية التأليف بورييس أوسبنسكى
- ٨٠ - بوشكين عند «نافورة الدموع» ألكسندر بوشكين
- ٨١ - الجماعات المتخيلة بندكت أندرسن
- ٨٢ - مسرح ميجيل ميجيل دى أونامونو
- ٨٣ - مختارات غوتفريد بين
- ٨٤ - موسوعة الأدب والنقد مجموعة من الكتاب
- ٨٥ - منصور الحلاج (مسرحية) صلاح زكى أقطاي
- ٨٦ - طول الليل جمال مير صادقى
- ٨٧ - نون والقلم جلال آل أحمد
- ٨٨ - الابتلاء بالغرب جلال آل أحمد
- ٨٩ - الطريق الثالث أنتونى جينز
- ٩٠ - وسم السيف (قصص) نخبة من كتاب أمريكا اللاتينية
- ٩١ - المسرح والتجريب بين النظرية والتطبيق باربر الاسوستكا
- ٩٢ - أساليب ومضامين المسرح كارلوس ميجيل
- ٩٣ - محدثات العولة مايك فيذرستون وسكوت لاش
- ٩٤ - الحب الأول والصحبة صمويل بيكيت
- ٩٥ - مختارات من المسرح الإسباني أنطونيو بويزو بايخو
- ٩٦ - ثلاث زنبقات ووردة قصص مختارة
- ٩٧ - هوية فرنسا (المجلد الأول) فرنان برودل
- ٩٨ - الهم الإنسانى والابتزاز الصهيونى نماذج ومقالات
- ٩٩ - تاريخ السينما العالمية ديفيد روبنسون
- ١٠٠ - مساطة العولة بول هيرست وجراهام تومبسون
- ١٠١ - النص الروائى (تقنيات ومناهج) بيرنار فاليت
- ١٠٢ - السياسة والتسامح عبد الكريم الخطيبى
- ١٠٣ - قبر ابن عربى يليه آباء عبد الوهاب المؤدب
- ١٠٤ - أوبرا ماهوجنى برتوات بريشت
- ١٠٥ - مدخل إلى النص الجامع جيرارچينيت
- ١٠٦ - الأدب الأندلسى د. ماريا خيسوس روبييرامتى
- ١٠٧ - مبرة القدائى فى الشعر الأمريكى المعاصر نخبة
- ت : فؤاد مجلى
- ت : حسن ناظم وعلى حاكم
- ت : حسن بيومى
- ت : أحمد درويش
- ت : عبد المقصود عبد الكريم
- ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
- ت : أحمد محمود ونورا أمين
- ت : سعيد القانمى وناصر حلاوى
- ت : مكارم القمري
- ت : محمد طارق الشرقاوى
- ت : محمود السيد على
- ت : خالد المعالى
- ت : عبد الحميد شيحة
- ت : عبد الرازق بركات
- ت : أحمد فتحى يوسف شتا
- ت : ماجدة العنانى
- ت : إبراهيم الدسوقى شتا
- ت : أحمد زايد ومحمد محيى الدين
- ت : محمد إبراهيم مبروك
- ت : محمد هناء عبد الفتاح
- ت : نادية جمال الدين
- ت : عبد الوهاب علوب
- ت : فوزية العشماوى
- ت : سرى محمد محمد عبد اللطيف
- ت : إينوار الخراط
- ت : بشير السباعى
- ت : أشرف الصباغ
- ت : إبراهيم قنديل
- ت : إبراهيم فتحى
- ت : رشيد بنحو
- ت : عز الدين الكتانى الإدريسى
- ت : محمد بنيس
- ت : عبد الفقار مكاوى
- ت : عبد العزيز شبيب
- ت : أشرف على دعور
- ت : محمد عبد الله الجعيدى

١٠٨ - ثلاث دراسات عن الشعر الأندلسي	مجموعة من النقاد	ت : محمود علي مكي
١٠٩ - حروب المياه	جون بولوك وعادل درويش	ت : هاشم أحمد محمد
١١٠ - النساء في العالم النامي	حسنة بيجوم	ت : منى قطان
١١١ - المرأة والجريمة	فرانسيس هينكسون	ت : ريهام حسين إبراهيم
١١٢ - الاحتجاج الهادئ	أرلين علوي ماركليود	ت : إكرام يوسف
١١٣ - راية التمرد	سادى بلانت	ت : أحمد حسان
١١٤ - مسرحيات حماد كوني وسكان المستعم	وول شويتكا	ت : نسيم مجلى
١١٥ - غرفة تخص المرء وحده	فرجينيا وولف	ت : سميرة رمضان
١١٦ - امرأة مختلفة (درية شفيق)	سينثيا تلسون	ت : نهاد أحمد سالم
١١٧ - المرأة والجنوسة في الإسلام	ليلي أحمد	ت : منى إبراهيم ، وهالة كمال
١١٨ - النهضة النسائية في مصر	بث بارون	ت : ليس النقاش
١١٩ - النساء والأسرة وقوانين الطلاق	أميرة الأزهرى سنيل	ت : بإشراف/ رؤوف عباس
١٢٠ - الحركة النسائية والتطور في الشرق الأوسط	ليلي أبو لغد	ت : نخبة من المترجمين
١٢١ - الليل الصغير في كتلة المرأة العربية	فاطمة موسى	ت : محمد الجندى ، وإيزابيل كمال
١٢٢ - نظام العبودية القديم ونموذج الإنسان	جوزيف فوجت	ت : منيرة كروان
١٢٣ - الإمبراطورية العثمانية وملقاتها الدواية	نيتل الكسندر وفناتوليننا	ت : أنور محمد إبراهيم
١٢٤ - الفجر الكائب	جون جراي	ت : أحمد فؤاد بابع
١٢٥ - التحليل الموسيقي	سيدريك ثورپ ديفي	ت : سمحة الخولي
١٢٦ - فعل القراءة	فولفغانج إيسر	ت : عبد الوهاب علوب
١٢٧ - إرهاب	صفاء فتحى	ت : بشير السباعي
١٢٨ - الأدب المقارن	سوزان باسنيث	ت : أميرة حسن نويرة
١٢٩ - الرواية الإسبانية المعاصرة	ماريا دولورس أسيس جاروت	ت : محمد أبو العطا وآخرون
١٣٠ - الشرق يصعد ثانية	أندرية جوندر فرائك	ت : شوقي جلال
١٣١ - مصر القديمة (التاريخ الاجتماعي)	مجموعة من المؤلفين	ت : لويس بقطر
١٣٢ - ثقافة العولة	مايك فينرستون	ت : عبد الوهاب علوب
١٣٣ - الخوف من المرايا	طارق على	ت : طلعت الشايب
١٣٤ - تشريح حضارة	باري ج. كيمب	ت : أحمد محمود
١٣٥ - المختار من نقد ت. س. إليوت (ثلاثة أجزاء)	ت. س. إليوت	ت : ماهر شفيق فريد
١٣٦ - فلاحو الباشا	كينيث كرونو	ت : سحر توفيق
١٣٧ - متكرات ضابط في الحلة الفرنسية	جوزيف ماري مواريه	ت : كاميليا صبحي
١٣٨ - عالم التليفزيون بين الجمال والعنف	إيفالينا تارونى	ت : وجيه سمعان عبد المسيح
١٣٩ - باريسيفال	ريشارد فاچنر	ت : مصطفى ماهر
١٤٠ - حيث تلتقى الأنهار	هربرت ميسن	ت : أمل الجبورى
١٤١ - اثنتا عشرة مسرحية يونانية	مجموعة من المؤلفين	ت : نعيم عطية
١٤٢ - الإسكندرية : تاريخ ودليل	أ. م. فورستر	ت : حسن بيومى
١٤٣ - قضايا التنظير في البحث الجملي	ديريك لايدار	ت : عدلى السمرى
١٤٤ - صاحبة اللوكاندة	كارلو جولدوني	ت : سلامة محمد سليمان

١٤٥ - موت أرتيميو كروث	كارلوس فويتنتس	ت : أحمد حسان
١٤٦ - الورقة الحمراء	ميجيل دى ليس	ت : على عبد الرؤوف البمبي
١٤٧ - خطبة الإدانة الطويلة	تاتكريد دورست	ت : عبد الغفار مكاوي
١٤٨ - القصة القصيرة (النظرية والتقنية)	إتريكي أندرسون إمبرت	ت : على إبراهيم على منوفى
١٤٩ - النظرية الشعرية عند إليوت وألونيس	عاطف فضول	ت : أسامة إسبر
١٥٠ - التجربة الإغريقية	روبرت ج. ليتمان	ت: منيرة كروان
١٥١ - هوية فرنسا (مج ٢ ، ج ١)	فرنان برودل	ت : بشير السباعي
١٥٢ - عدالة الهنود وقصص أخرى	نخبة من الكتاب	ت : محمد محمد الخطابي
١٥٣ - غرام الفراغة	فيولين فاتويك	ت : فاطمة عبد الله محمود
١٥٤ - مدرسة فرانكفورت	فيل سليتر	ت : خليل كلفت
١٥٥ - الشعر الأمريكي المعاصر	نخبة من الشعراء	ت : أحمد مرسى
١٥٦ - المدارس الجمالية الكبرى	جى أنبال وآلان وأوبيت فيرمو	ت : مى التمساني
١٥٧ - خسرو وشيرين	النظامى الكنجوى	ت : عبد العزيز بقوش
١٥٨ - هوية فرنسا (مج ٢ ، ج ٢)	فرنان برودل	ت : بشير السباعي
١٥٩ - الإيديولوجية	ديفيد هوكس	ت : إبراهيم فتحى
١٦٠ - آلة الطبيعة	بول إيرليش	ت : حسين بيومى
١٦١ - من المسرح الإسباني	اليفاندرو كاسونا وأنطونيو جالا	ت : زيدان عبد الحليم زيدان
١٦٢ - تاريخ الكنيسة	يوحنا الاسيوى	ت : صلاح عبد العزيز محبوب
١٦٣ - موسوعة علم الاجتماع ج ١	جوردون مارشال	ت بإشراف : محمد الجوهري
١٦٤ - شامبوليون (حياة من نور)	جان لاکوتير	ت : نبيل سعد
١٦٥ - حكايات الثعلب	أ. ن أفانا سيفا	ت : سهير المصادفة
١٦٦ - العلاقات بين التبتين والطمانين في إسرائيل	يشعياهو ليفمان	ت : محمد محمود أبو خدير
١٦٧ - في عالم طاغور	رابندراناث طاغور	ت : شكرى محمد عياد
١٦٨ - دراسات في الأدب والثقافة	مجموعة من المؤلفين	ت : شكرى محمد عياد
١٦٩ - إبداعات أنبية	مجموعة من المبدعين	ت : شكرى محمد عياد
١٧٠ - الطريق	ميفيل دلييس	ت : بسام ياسين رشيد
١٧١ - وضع حد	فرانك بيجو	ت : هدى حسين
١٧٢ - حجر الشمس	مختارات	ت : محمد محمد الخطابي
١٧٣ - معنى الجمال	واتر ت. ستيس	ت : إمام عبد الفتاح إمام
١٧٤ - صناعة الثقافة السوداء	ايليس كاشمور	ت : أحمد محمود
١٧٥ - التليفزيون في الحياة اليومية	لورينزو فيلشس	ت : وجيه سمعان عبد المسيح
١٧٦ - نحو مفهوم للاقتصاديات البيئية	توم تيتنبرج	ت : جلال البنا
١٧٧ - أنطون تشيخوف	هنرى ثروايا	ت : حصة إبراهيم منيف
١٧٨ - مختارات من الشعر اليوناني الحديث	نخبة من الشعراء	ت : محمد حمدي إبراهيم
١٧٩ - حكايات أيسوب	أيسوب	ت : إمام عبد الفتاح إمام
١٨٠ - قصة جاويد	إسماعيل فصيح	ت : سليم عبدالأمير حمدان
١٨١ - النقد الأدبي الأمريكي	فنسنت. ب. ليتش	ت : محمد يحيى

١٨٢ - العنف والتبوءة	و . ب . بيتس	ت : ياسين طه حافظ
١٨٣ - جان كوكتو على شاشة السينما	رينيه جيلسون	ت : فتحى العشرى
١٨٤ - القاهرة .. حالة لا تنام	هانز إيندورفر	ت : دسوقي سعيد
١٨٥ - أسفار العهد القديم	توماس تومسن	ت : عبد الوهاب علوب
١٨٦ - معجم مصطلحات هيجل	ميخائيل أنود	ت : إمام عبد الفتاح إمام
١٨٧ - الأرضة	بُردج علوى	ت : علاء منصور
١٨٨ - موت الأدب	الفين كرنان	ت : بدر الديب
١٨٩ - العمى والبصيرة	بول دى مان	ت : سعيد القانمى
١٩٠ - محاورات كونفوشيوس	كونفوشيوس	ت : محسن سيد فرجاني
١٩١ - الكلام رأسمال	الحاج أبو بكر إمام	ت : مصطفى حجازى السيد
١٩٢ - سياحت نامه إبراهيم بك جا	زين العابدين المراعى	ت : محمود سلامة علاوى
١٩٣ - عامل المنجم	بيتر أبراهامز	ت : محمد عبد الواحد محمد
١٩٤ - مختارات من النقد الأنجلو - أمريكى	مجموعة من النقاد	ت : ماهر شفيق فريد
١٩٥ - شتاء ٨٤	إسماعيل فصيح	ت : محمد علاء الدين منصور
١٩٦ - المهلة الأخيرة	فالنتين راسبوتين	ت : أشرف الصباغ
١٩٧ - الفاروق	شمس العلماء شبلى النعمانى	ت : جلال السعيد الحفناوى
١٩٨ - الاتصال الجماهيرى	إدوين إمري وآخرون	ت : إبراهيم سلامة إبراهيم
١٩٩ - تاريخ يهود مصر فى الفترة العثمانية	يعقوب لنداوى	ت : جمال أحمد الرفاعى وأحمد عبد اللطيف حماد
٢٠٠ - ضحايا التنمية	جيرمى سيبوك	ت : فخرى لبيب
٢٠١ - الجانب الدينى للفلسفة	جوزايا رويس	ت : أحمد الأنصارى
٢٠٢ - تاريخ النقد الألبى الحديث ج١	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
٢٠٣ - الشعر والشاعرية	ألفاف حسين حالى	ت : جلال السعيد الحفناوى
٢٠٤ - تاريخ نقد العهد القديم	زالمان شانزار	ت : أحمد محمود هويدى
٢٠٥ - الجينات والشعوب واللغات	لويجى لوقا كافاللى - سفورزا	ت : أحمد مستجير
٢٠٦ - الهيوالية تصنع علماً جديداً	جيمس جلايك	ت : على يوسف على
٢٠٧ - ليل إفريقي	رامون خوتاسنديز	ت : محمد أبو العطا عبد الرؤوف
٢٠٨ - شخصية العربى فى المسرح الإسرائيلى	دان أوربان	ت : محمد أحمد صالح
٢٠٩ - السرد والمسرح	مجموعة من المؤلفين	ت : أشرف الصباغ
٢١٠ - مثنويات حكيم سنائى	سنائى الغزنوى	ت : يوسف عبد الفتاح قرچ
٢١١ - فردينان دوسوسير	جوناثان كلر	ت : محمود حمدى عبد الغنى
٢١٢ - قصص الأمير مرزيان	مرزيان بن رستم بن شروين	ت : يوسف عبد الفتاح قرچ
٢١٣ - مصر منذ قديم نبلين حتى رجل عبد الناصر	ريمون فلاور	ت : سيد أحمد على الناصرى
٢١٤ - قواعد جديدة للمنهج فى علم الاجتماع	أنتونى جيندز	ت : محمد محمود محى الدين
٢١٥ - سياحت نامه إبراهيم بك جا	زين العابدين المراعى	ت : محمود سلامة علاوى
٢١٦ - جوانب أخرى من حياتهم	مجموعة من المؤلفين	ت : أشرف الصباغ
٢١٧ - مسرحيتان طبيعيتان	صمويل بيكيت	ت : نادية البنهاوى
٢١٨ - راويلا	خوليو كورتازان	ت : على إبراهيم على منوفى

٢١٩ - بقايا اليوم	كانزو ايشجورو	ت : طلعت الشايب
٢٢٠ - الهيولية فى الكون	بارى باركر	ت : على يوسف على
٢٢١ - شعرية كفاقى	جريجورى جوزدانيس	ت : رفعت سلام
٢٢٢ - فرانز كافكا	رونالد جراى	ت : نسيم مجلى
٢٢٣ - العلم فى مجتمع حر	بول فيرابنر	ت : السيد محمد نقادى
٢٢٤ - دمار يوغسلافيا	برانكا ماجاس	ت : منى عبد الظاهر إبراهيم السيد
٢٢٥ - حكاية غريق	جابريل جارتيا ماركث	ت : السيد عبد الظاهر عبد الله
٢٢٦ - أرض المساء وقصائد أخرى	ديفيد هريت لورانس	ت : طاهر محمد على البربرى
٢٢٧ - المسرح الإسباني فى القرن السابع عشر	موسى مارديا ديف بوركى	ت : السيد عبد الظاهر عبد الله
٢٢٨ - علم الجمالية وعلم اجتماع الفن	جانيت وولف	ت : مارى تيريز عبد المسيح وخالد حسن
٢٢٩ - مازق البطل الوحيد	نورمان كيماي	ت : أمير إبراهيم العمرى
٢٣٠ - عن الذباب والفئران والبشر	فرانسواز جاكوب	ت : مصطفى إبراهيم فهمى
٢٣١ - الدرافيل	خايمى سالوم بيدال	ت : جمال أحمد عبد الرحمن
٢٣٢ - مابعد المعلومات	توم ستيتز	ت : مصطفى إبراهيم فهمى
٢٣٣ - فكرة الاضمحلال	أرثر هيرمان	ت : طلعت الشايب
٢٣٤ - الإسلام فى السودان	ج. سبنسر تريمنجهام	ت : فؤاد محمد عكود
٢٣٥ - ديوان شمس تبريزى ج ١	جلال الدين الرومى	ت : إبراهيم الدسوقي شتا
٢٣٦ - الولاية	ميشيل تود	ت : أحمد الطيب
٢٣٧ - مصر أرض الوادى	روبين فيدين	ت : عنايات حسين طلعت
٢٣٨ - العولمة والتحرير	الانكتاد	ت : ياسر محمد جاد الله وعيسى منبولى أحمد
٢٣٩ - العربى فى الأدب الإسرائيلى	جيلرافر - رايبوخ	ت : نادية سليمان حافظ وإيهاب صلاح فايق
٢٤٠ - الإسلام والغرب وإمكانية الحوار	كامى حافظ	ت : صلاح عبد العزيز محمود
٢٤١ - فى انتظار البرابرة	ك. م كويتز	ت : ابتسام عبد الله سعيد
٢٤٢ - سبعة أنماط من الغموض	وليام إمبسون	ت : صبرى محمد حسن عبد النبى
٢٤٣ - تاريخ إسبانيا الإسلامية (مج ١)	ليفى بروفنسال	ت : مجموعة من المترجمين
٢٤٤ - الغليان	لاورا إسكييل	ت : نادية جمال الدين محمد
٢٤٥ - نساء مقاتلات	إليزابيتا أنيس	ت : توفيق على منصور
٢٤٦ - قصص مختارة	جابريل جرثيا ماركث	ت : على إبراهيم على منوفى
٢٤٧ - الثقافة الجماهيرية والحدائق فى مصر	ولتر أرمبرست	ت : محمد الشرقاوى
٢٤٨ - حقول عدن الخضراء	أنطونيو جالا	ت : عبد اللطيف عبد الحليم
٢٤٩ - لغة التمزق	دراجو شتامبيوك	ت : رفعت سلام
٢٥٠ - علم اجتماع العلوم	دومنيك فينك	ت : ماجدة أباطة
٢٥١ - موسوعة علم الاجتماع ج ٢	جوربون مارشال	ت : بإشراف : محمد الجوهري
٢٥٢ - رائدات الحركة النسوية المصرية	مارجو بدران	ت : على بدران
٢٥٣ - تاريخ مصر الفاطمية	ل. أ. سيمينوفا	ت : حسن بيومى
٢٥٤ - الفلسفة	ديف روينسون وجودى جروفز	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٢٥٥ - أفلاطون	ديف روينسون وجودى جروفز	ت : إمام عبد الفتاح إمام

٢٥٦ - ديكارت	ديف روينسون وجوئى جروفز	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٢٥٧ - تاريخ الفلسفة الحديثة	وليم كلى رايت	ت : محمود سيد أحمد
٢٥٨ - الفجر	سير أنجوس فريزر	ت : عبادة كحيلة
٢٥٩ - مختارات من الشعر الأرمنى	نخبة	ت : فاروچان كازانچيان
٢٦٠ - موسوعة علم الاجتماع ج ٢	جوردون مارشال	ت : ياشراف : محمد الجوهري
٢٦١ - رحلة فى فكر زكى نجيب محمود	زكى نجيب محمود	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٢٦٢ - مدينة المعجزات	إدوارد منونتا	ت : محمد أبو العطا عبد الرؤوف
٢٦٣ - الكشف عن حافة الزمن	جون جرين	ت : على يوسف على
٢٦٤ - إبداعات شعرية مترجمة	هوراس / شلى	ت : لويس عوض
٢٦٥ - روايات مترجمة	أوسكار وايلد وصموئيل جونسون	ت : لويس عوض
٢٦٦ - مدير المدرسة	جلال آل أحمد	ت : عادل عبد المنعم سويلم
٢٦٧ - فن الرواية	ميلان كونديرا	ت : بدر الدين عروكي
٢٦٨ - ديوان شمس تبريزى ج ٢	جلال الدين الرومى	ت : إبراهيم السنوقى شتا
٢٦٩ - وسط الجزيرة العربية وشرقها ج ١	وليم جيفور بالجريف	ت : صبرى محمد حسن
٢٧٠ - وسط الجزيرة العربية وشرقها ج ٢	وليم جيفور بالجريف	ت : صبرى محمد حسن
٢٧١ - الحضارة الفريية	توماس مى . باترسون	ت : شوقى جلال
٢٧٢ - الأديرة الأثرية فى مصر	س. س. والترز	ت : إبراهيم سلامة
٢٧٣ - الاستعمار والثورة فى الشرق الأوسط	جوان آر. لوك	ت : عنان الشهاوى
٢٧٤ - السيدة بريارا	رومولو جلاجوس	ت : محمود على مكى
٢٧٥ - س. س. إليوت شاعرًا وثقافيًا وكاتبًا مسرحيًا	أقلام مختلفة	ت : ماهر شفيق فريد
٢٧٦ - فنون السينما	فرانك جوتيران	ت : عبد القادر التلمسانى
٢٧٧ - الهينات : الصراع من أجل الحياة	بريان فورد	ت : أحمد فوزى
٢٧٨ - البدايات	إسحق عظيموف	ت : طريف عبد الله
٢٧٩ - الحرب الباردة الثقافية	فرانسيس ستونر سوندرز	ت : طلعت الشايب
٢٨٠ - من الألب الهندى الحديث والمعاصر	بريم شند وأخرون	ت : سمير عبد الحميد
٢٨١ - الفريوس الأعلى	مولانا عبد الحليم شرر الكهنوى	ت : جلال الحفناوى
٢٨٢ - طبيعة العلم غير الطبيعية	لويس وابيرت	ت : سمير حنا صائق
٢٨٣ - السهل يحترق	خوان روافو	ت : على البمبى
٢٨٤ - هرقل مجنونًا	يوريبيدس	ت : أحمد عثمان
٢٨٥ - رحلة الخواجة حسن نظامى	حسن نظامى	ت : سمير عبد الحميد
٢٨٦ - سياحت نامه إبراهيم بك ج ٢	زين العابدين المراهى	ت : محمود سلامة علاوى
٢٨٧ - الثقافة والعمل والنظام العالمى	أنتونى كينج	ت : محمد يحيى وأخرون
٢٨٨ - الفن الروائى	ديفيد لودج	ت : ماهر البطوطى
٢٨٩ - ديوان منجوهري الدامقانى	أبو نجم أحمد بن قوس	ت : محمد نور الدين
٢٩٠ - علم اللغة والترجمة	جورج مونا	ت : أحمد زكريا إبراهيم
٢٩١ - المسرح الإسباني فى القرن العشرين ج ١	فرانشيسكو رويس رامون	ت : السيد عبد الظاهر
٢٩٢ - المسرح الإسباني فى القرن العشرين ج ٢	فرانشيسكو رويس رامون	ت : السيد عبد الظاهر

٢٩٣ - مقدمة للأدب العربي	روجر آلان	ت : نخبة من المترجمين
٢٩٤ - فن الشعر	برالو	ت : رجاء ياقوت صالح
٢٩٥ - سلطان الأسطورة	جوزيف كامبل	ت : بدر الدين حب الله الديب
٢٩٦ - مكبث	وايم شكسبير	ت : محمد مصطفى بدوي
٢٩٧ - فن النحويين اليونانية والسورانية	ديونيسيوس ثراكس - يوسف الأهواني	ت : ماجدة محمد أنور
٢٩٨ - مأساة العبيد	أبو بكر ثقافا بلويه	ت : مصطفى حجازي السيد
٢٩٩ - ثورة التكنولوجيا الحيوية	جين ل. ماركس	ت : هاشم أحمد فؤاد
٣٠٠ - أسطورة برومئوس مج ١	لويس عوض	ت : جمال الجزيري وبهاء جاهين
٣٠١ - أسطورة برومئوس مج ٢	لويس عوض	ت : جمال الجزيري ومحمد الجندي
٣٠٢ - فنجنشتين	جون هيتون وجودي جروفز	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٣٠٣ - بوذا	جين هوب وورن فان لون	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٣٠٤ - ماركس	ريوس	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٣٠٥ - الجلد	كروزيو مالابارته	ت : صلاح عبد الصبور
٣٠٦ - العناسة - النقد الكانطي لتاريخ	جان - فرانسوا ليوتار	ت : نبيل سعد
٣٠٧ - الشعر	ديفيد بابينو	ت : محمود محمد أحمد
٣٠٨ - علم الوراثة	ستيف جونز	ت : ممدوح عبد المنعم أحمد
٣٠٩ - الذهن والمخ	انجوس چيلاتي	ت : جمال الجزيري
٣١٠ - يونج	ناجي هيد	ت : محيي الدين محمد حسن
٣١١ - مقال في المنهج الفلسفي	كوانجود	ت : فاطمة إسماعيل
٣١٢ - روح الشعب الأسود	وايم دي بويز	ت : أسعد حليم
٣١٣ - أمثال فلسطينية	خاير بيان	ت : عبد الله الجعدي
٣١٤ - الفن كعدم	جينس مينيك	ت : هويدا السباعي
٣١٥ - جرامشي في العالم العربي	ميشيل بروندينو	ت : كاميليا صبحي
٣١٦ - محاكمة سقراط	أ. ف. ستون	ت : نسيم مجلى
٣١٧ - بلاغ	شير لايموفا - زنيكين	ت : أشرف الصباغ
٣١٨ - الأدب الروسي في السنوات العشر الأخيرة	نخبة	ت : أشرف الصباغ
٣١٩ - صور نريدا	جايتير ياسيففاك وكريستوفر نوريس	ت : حسام نايل
٣٢٠ - لمعة السراج لحضرة التاج	مؤلف مجهول	ت : محمد علاء الدين منصور
٣٢١ - تاريخ إسبانيا الإسلامية (مج ١، ٢، ٣)	ليفي برو فنسال	ت : نخبة من المترجمين
٣٢٢ - وجهات نظر حية في تاريخ الفن العربي	دبليو. إيوجين كلينباور	ت : خالد مطلق حمزة
٣٢٣ - فن الساتورا	تراث يوناني قديم	ت : هاتم سليمان
٣٢٤ - اللعب بالنار	أشرف أسدي	ت : محمود سلامة علاوي
٣٢٥ - عالم الآثار	فيليب بوسان	ت : كريستين يوسف
٣٢٦ - المعرفة والمصلحة	جورجين هابرماس	ت : حسن صقر
٣٢٧ - مختارات شعرية مترجمة	نخبة	ت : توفيق علي منصور
٣٢٨ - يوسف وزليخة	نور الدين عبد الرحمن بن أحمد	ت : عبد العزيز بقوش
٣٢٩ - رسائل عيد الميلاد	تد هيوز	ت : محمد عيد إبراهيم

- ٢٣٠ - كل شيء عن التمثيل الصامت مارفن شبرد
٢٣١ - عندما جاء السردين ستيفن جراي
٢٣٢ - رحلة شهر العسل وقصص أخرى نخبة
٢٣٣ - الإسلام في بريطانيا نبيل مطر
٢٣٤ - لقطات من المستقبل آرثر س. كلارك
٢٣٥ - عصر الشك ناتالي ساروت
٢٣٦ - متون الأهرام نصوص قديمة
٢٣٧ - فلسفة الولاء جوزايا رويس
٢٣٨ - نظرات حائرة وقصص أخرى من الهند نخبة
٢٣٩ - تاريخ الأدب في إيران ج٢ علي أصغر حكمت
٢٤٠ - اضطراب في الشرق الأوسط بيرش بيربروجلو
٢٤١ - قصائد من رلكه راينر ماريا رلكه
٢٤٢ - سلامان وأبسال نور الدين عبد الرحمن بن أحمد
٢٤٣ - العالم البرجوازي الزائل نادين جورديمر
٢٤٤ - الموت في الشمس بيتر بلانجوه
٢٤٥ - الركض خلف الزمن بونه نداني
٢٤٦ - سحر مصر رشاد رشدي
٢٤٧ - الصبية الطائشون جان كوكتو
٢٤٨ - المتصورة الأولى في الألب التركي جا محمد فؤاد كوبريلي
٢٤٩ - دليل القارئ إلى الثقافة الجادة آرثر والدرون وآخرين
٢٥٠ - بانوراما الحياة السياحية أقلام مختلفة
٢٥١ - مبادئ المنطق جوزايا رويس
٢٥٢ - قصائد من كفافيس قسطنطين كفافيس
٢٥٣ - الفن الإسلامي في الأندلس (منسية) ياسيليو بابون مالدونالد
٢٥٤ - الفن الإسلامي في الأندلس (نباتية) ياسيليو بابون مالدونالد
٢٥٥ - التيارات السياسية في إيران حجت مرتضى
٢٥٦ - الميراث المر بول سالم
٢٥٧ - متون هيرميس نصوص قديمة
٢٥٨ - أمثال الهوسا العامة نخبة
٢٥٩ - محاورات بارمنديس أفلاطون
٢٦٠ - أنثروبولوجيا اللغة أندريه جاكوب ونويلا باركان
٢٦١ - التصحر : التهديد والمواجهة آلان جرينجر
٢٦٢ - تلميذ باينبرج هاينرش شبورال
٢٦٣ - حركات التحرر الأفريقي ريتشارد جيسون
٢٦٤ - حدائق شكسبير إسماعيل سراج الدين
٢٦٥ - سام باريس شارل بودلير
٢٦٦ - نساء يركضن مع النتاب كلاريسا بنكولا
٢٦٧ - القلم الجريء نخبة
- ت : سامي صلاح
ت : سامية دياب
ت : علي إبراهيم علي منوفي
ت : بكر عباس
ت : مصطفى فهمي
ت : فتحى العشري
ت : حسن صابر
ت : أحمد الأنصاري
ت : جلال السعيد الحفناوي
ت : محمد علاء الدين منصور
ت : فخرى لبيب
ت : حسن حلمي
ت : عبد العزيز بقروش
ت : سمير عبد ربه
ت : سمير عبد ربه
ت : يوسف عبد الفتاح فرج
ت : جمال الجزيري
ت : بكر الحلو
ت : عبد الله أحمد إبراهيم
ت : أحمد عمر شاهين
ت : عطية شحاتة
ت : أحمد الأنصاري
ت : نعيم عطية
ت : علي إبراهيم علي منوفي
ت : علي إبراهيم علي منوفي
ت : محمود سلامة علاوي
ت : بدر الرفاعي
ت : عمر الفاروق عمر
ت : مصطفى حجازي السيد
ت : حبيب الشاروني
ت : ليلى الشرييني
ت : عاطف معتمد وآمال شاوور
ت : سيد أحمد فتح الله
ت : صبري محمد حسن
ت : نجلاء أبو عجاج
ت : محمد أحمد حمد
ت : مصطفى محمود محمد
ت : البراق عبد الهادي رضا

٣٦٨ - المصطلح السردى	جيرالد برنس	ت : عابد خزندار
٣٦٩ - المرأة فى أدب نجيب محفوظ	فوزية العشماوى	ت : فوزية العشماوى
٣٧٠ - الفن والحياة فى مصر الفرعونية	كلير لا لويت	ت : فاطمة عبد الله محمود
٣٧١ - المتصوفة الأولون فى الأدب التركى ج٢	محمد فؤاد كوبرلى	ت : عبد الله أحمد إبراهيم
٣٧٢ - عاش الشباب	وانغ مينغ	ت : وحيد السعيد عبد الحميد
٣٧٣ - كيف تعد رسالة دكتوراه	أمبرتو إيكو	ت : على إبراهيم على منوفى
٣٧٤ - اليوم السادس	أندريه شديد	ت : حمادة إبراهيم
٣٧٥ - الخلود	ميلان كونديرا	ت : خالد أبو اليزيد
٣٧٦ - الغضب وأحلام السنين	نخبة	ت : إيوار الخراط
٣٧٧ - تاريخ الأدب فى إيران ج٤	على أصغر حكمت	ت : محمد علاء الدين منصور
٣٧٨ - المسافر	محمد إقبال	ت : يوسف عبد الفتاح فرج
٣٧٩ - ملك فى الحديقة	سنيل بات	ت : جمال عبد الرحمن
٣٨٠ - حديث عن الخسارة	جوتتر جراس	ت : شيرين عبد السلام
٣٨١ - أساسيات اللغة	ر. ل. تراسك	ت : رانيا إبراهيم يوسف
٣٨٢ - تاريخ طبرستان	بهاء الدين محمد إسفنديار	ت : أحمد محمد نادى
٣٨٣ - هدية الحجاز	محمد إقبال	ت : سمير عبد الحميد إبراهيم
٣٨٤ - القصص التى يحكيها الأطفال	سوزان إنجيل	ت : إيزابيل كمال
٣٨٥ - مشترى العشق	محمد على بهزادراد	ت : يوسف عبد الفتاح فرج
٣٨٦ - نفاهاً عن التاريخ الألبى النسوى	جانيت تود	ت : ريهام حسين إبراهيم
٣٨٧ - أغنيات وسوناتات	چون دن	ت : بهاء چاهين
٣٨٨ - مواعظ سعدى الشيرازى	سعدى الشيرازى	ت : محمد علاء الدين منصور
٣٨٩ - من الأدب الباكستانى المعاصر	نخبة	ت : سمير عبد الحميد إبراهيم
٣٩٠ - الأرشيفات والمدن الكبرى	نخبة	ت : عثمان مصطفى مثمان
٣٩١ - الحافلة الليكيا	مايف بينشى	ت : منى الدروبي
٣٩٢ - مقامات ورسائل أندلسية	فرناندو دى لاجرانخا	ت : عبد اللطيف عبد الحليم
٣٩٣ - فى قلب الشرق	ندوة لويس ماسينيون	ت : زينب محمود الخضيرى
٣٩٤ - القوى الأربع الأساسية فى الكون	بول ديفيز	ت : هاشم أحمد محمد
٣٩٥ - آلام سياوش	إسماعيل فصيح	ت : سليم حمدان
٣٩٦ - السافاك	تقى نجارى راد	ت : محمود سلامة علاوى
٣٩٧ - نيتشه	لورانس جين	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٣٩٨ - سارتر	فيليب تودى	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٣٩٩ - كامى	ديفيد ميروفتس	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٤٠٠ - مومو	مشتياثيل إنده	ت : باهر الجوهري
٤٠١ - الرياضيات	زيادون ساردر	ت : معنوح عبد المنعم
٤٠٢ - هوكنج	ج . ب . ماك ايفوى	ت : معنوح عبد المنعم
٤٠٣ - ربة المطر والملابس تصنع الناس	تودور شتورم	ت : صامد حسن بكر
٤٠٤ - تعويذة الحسى	ديفيد إيرام	ت : ظبية خميس
٤٠٥ - إيزابيل	أندريه جيد	ت : حمادة إبراهيم
٤٠٦ - المستعربون الإسبان فى القرن ١٩	مانويلا مانتاناريس	ت : جمال أحمد عبد الرحمن
٤٠٧ - الأدب الإسبانى المعاصر بقلم كتبه	أقلام مختلفة	ت : طلعت شاهين
٤٠٨ - معجم تاريخ مصر	جوان فوشركنج	ت : عنان الشهاوى
٤٠٩ - انتصار السعادة	برتراند راسل	ت : إلهامى عمارة

٤١٠ - خلاصة القرن	كارل بوير	ت : الزواوى بغودة
٤١١ - همس من الماضى	جينيفر أكرمان	ت : أحمد مستجير
٤١٢ - تاريخ إسبانيا الإسلامية (مج ٢، ٣)	ليفى برونسسال	ت : نخبة
٤١٣ - أغنيات المنفى	ناظم حكمت	ت : محمد البخارى
٤١٤ - الجمهورية العالمية للأدب	ياسكال كازانوفا	ت : أمل الصبان
٤١٥ - صورة كوكب	فريدريش دورنيمات	ت : أحمد كامل عبد الرحيم
٤١٦ - مبادئ النقد الأدبى والعلم والشعر	أ. أ. رتشاردز	ت : مصطفى بدوى
٤١٧ - تاريخ النقد الأدبى الحديث ج ٥	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
٤١٨ - سيلات الزمر الحكمة فى مصر العثمانية	جين هاثواى	ت : عبد الرحمن الشيخ
٤١٩ - العصر الذهبى للإسكندرية	جون ماريو	ت : نسيم مجلى
٤٢٠ - مكرو ميجاس	فولتير	ت : الطيب بن رجب
٤٢١ - الولاء والقيادة فى المجتمع الإسلامى	روى متحدة	ت : أشرف محمد كيلانى
٤٢٢ - رحلة لاستكشاف أفريقيا ج ١	نخبة	ت : عبد الله عبد الرازق إبراهيم
٤٢٣ - إسراءات الرجل الطيف	نخبة	ت : وحيد النقاش
٤٢٤ - لوائح الحق ولوامع العشق	نور الدين عبد الرحمن الجامى	ت : محمد علاء الدين منصور
٤٢٥ - من طاوروس حتى فرح	محمود طلوعى	ت : محمود سلامة علاوى
٤٢٦ - الظليل وتسمى أخرى من أفغانستان	نخبة	ت : محمد علاء الدين منصور وعبد الحفيظ يعقوب
٤٢٧ - بانديراس الطاغية	باى إنكلان	ت : ثريا شلبى
٤٢٨ - الخزائن الخفية	محمد هوتك	ت : محمد أمان صافى
٤٢٩ - هيجل	ليود سبنسر وأندرجى كروز	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٤٣٠ - كانط	كرستوفر وانت وأندرجى كليموفسكى	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٤٣١ - فوكو	كريس هيروكس وزوران جفتيك	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٤٣٢ - ماكياثلى	باتريك كيرى وأوسكار زاريت	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٤٣٣ - جويس	ديفيد نوريس وكارل قلنت	ت : حمدي الجابرى
٤٣٤ - الرمانسية	لويكان هيث وچوون بورهام	ت : عصام حجازى
٤٣٥ - توجهات ما بعد الحداثة	نيكولاس زديرچ	ت : ناجى رشوان
٤٣٦ - تاريخ الفلسفة (مج ١)	فردريك كوبلستون	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٤٣٧ - رحالة هندي فى بلاد الشرق	شيلى النعمانى	ت : جلال السعيد الحفناوى
٤٣٨ - بطلات وضحايا	إيمان خضياء الدين بيبرس	ت : عايدة سيف الدولة
٤٣٩ - موت المراهب	صدر الدين عيني	ت : محمد علاء الدين منصور وعبد الحفيظ يعقوب
٤٤٠ - قواعد اللهجات العربية	كرستن بروستاد	ت : محمد الشرقاوى
٤٤١ - رب الأشياء الصغيرة	أرونداتى روى	ت : فخرى لبيب
٤٤٢ - حتشبسوت (المرأة الفرعونية)	فوزية أسعد	ت : ماهر جويجاتى
٤٤٣ - اللغة العربية	كيس نورستينج	ت : محمد الشرقاوى
٤٤٤ - أمريكا اللاتينية : الثقافات القديمة	لاورىيت سيجورث	ت : صالح علمانى
٤٤٥ - حول وزن الشعر	پرويز ناتل خانلرى	ت : محمد محمد يونس
٤٤٦ - التحالف الأسود	ألكسندر كوكيرن وجيفرى سانت كلير	ت : أحمد محمود

٤٤٧ - نظرية الكم	ج. پ. ماك ايفوى	ت : ممدوح عبد المنعم
٤٤٨ - علم نفس التطور	بيلان ايفانز - أوسكار زاريت	ت : ممدوح عبد المنعم
٤٤٩ - الحركة النسائية	مجموعة	ت : جمال الجزيري
٤٥٠ - ما بعد الحركة النسائية	صوفيا فوكا - ريببكارايت	ت : جمال الجزيري
٤٥١ - الفلسفة الشرقية	ريتشارد أوزبورن / بورن فان لون	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٤٥٢ - لينين والثورة الروسية	ريتشارد إيجناتزى / أوسكار زاريت	ت : محي الدين مزيد
٤٥٣ - القاهرة : إقامة مدينة حديثة	جان لوك أرنو	ت : خليوم طوسون وفؤاد الدمان
٤٥٤ - خمسون عاماً من السينما الفرنسية	رينيه بريدال	ت : سوزان خليل
٤٥٥ - تاريخ الفلسفة الحديثة (مج ٥)	فريدريك كويلستون	ت : محمود سيد أحمد
٤٥٦ - لا تنسنى	مريم جعفرى	ت : هويدا عزت محمد
٤٥٧ - النساء في الفكر السيلسي الغربي	سوزان مولر أوكين	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٤٥٨ - الموريستيون الأندلسيون	خوايو كارو باروخا	ت : جمال عبد الرحمن
٤٥٩ - نهر ملهم للاقتصاديات الموارد الطبيعية	توم تيتنبرج	ت : جلال البنا
٤٦٠ - الفاشية والنازية	ستوارت هود - ليتزا جانستز	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٤٦١ - لكأن	داريان ليدر - جودى جروفر	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٤٦٢ - طه حسين من الأزم إلى السوربون	عبد الرشيد الصادق محمودى	ت : عبد الرشيد الصادق محمودى
٤٦٣ - الدولة المارقة	ويليام بلوم	ت : كمال السيد
٤٦٤ - ديمقراطية القلة	ميكايل بارنتى	ت : حصة منيف
٤٦٥ - قصص اليهود	لويس جنزيرج	ت : جمال الرفاعى
٤٦٦ - حكايات حب ويطولات فرعونية	فيولن فانويك	ت : فاطمة محمود
٤٦٧ - التفكير السياسى	ستيفن ديلا	ت : ربيع وهبة
٤٦٨ - روح الفلسفة الحديثة	جوزايا رويس	ت : أحمد الأنصارى
٤٦٩ - جلال الملوك	نصوص حبشية قديمة	ت : مجدى عبد الرازق
٤٧٠ - الأراضى والجودة البيئية	نخبة	ت : محمد السيد النة
٤٧١ - رحلة لاستكشاف أفريقيا ج ٢	نخبة	ت : عبد الله الرازق إبراهيم
٤٧٢ - نون كيخوتى (القسم الأول)	ميجيل دى ثريانتس سايدرا	ت : سليمان العطار
٤٧٣ - نون كيخوتى (القسم الثانى)	ميجيل دى ثريانتس سايدرا	ت : سليمان العطار
٤٧٤ - الأدب والنسوية	بام موريس	ت : سهام عبد السلام
٤٧٥ - صوت مصر : أم كلثوم	فرجينيا دانيلسون	ت : عادل هلال عنانى
٤٧٦ - أرض العجايب بعيدة : بيم تونسى	ماريلين بوث	ت : سحر توفيق
٤٧٧ - تاريخ الصين	هيلدا هوخام	ت : أشرف كيلانى
٤٧٨ - الصين والولايات المتحدة	ليو شيه تشنج ولى شى لونغ	ت : عبد العزيز حمدي
٤٧٩ - المقهى (مسرحية صينية)	لاوشه	ت : عبد العزيز حمدي
٤٨٠ - تساي ون جى (مسرحية صينية)	كو موروا	ت : عبد العزيز حمدي
٤٨١ - عبادة النبى	روى متحدة	ت : رضوان السيد
٤٨٢ - موسوعة الأساطير والرموز الارمنية	روبير جاك تيبو	ت : فاطمة محمود
٤٨٣ - النسوية وما بعد النسوية	سارة چامبل	ت : أحمد الشامى
٤٨٤ - جمالية التلقى	هانسن روبرت يابوس	ت : رشيد بنحو

٤٨٥ - التوبة (رواية)	نذير أحمد الدهلوى	ت : سمير عبد الحميد إبراهيم
٤٨٦ - الذاكرة الحضارية	يان أسمن	ت : عبد الحليم عبد الغنى رجب
٤٨٧ - الرحلة الهندية إلى الجزيرة العربية	رفيع الدين المراد آبادى	ت : سمير عبد الحميد إبراهيم
٤٨٨ - الحب الذى كان وقصائد أخرى	نخبة	ت : سمير عبد الحميد إبراهيم
٤٨٩ - هُسرل : الفلسفة علماً دقيقاً	هُسُرل	ت : محمود رجب
٤٩٠ - أسمار اليفاء	محمد قدرى	ت : عبد الوهاب علوب
٤٩١ - نصوص قصصية من روائع الأدب الأفريقى	نخبة	ت : سمير عبد ربه
٤٩٢ - محمد على مؤسس مصر الحديثة	جى فارجيت	ت : محمد رفعت عواد
٤٩٣ - خطابات إلى طالب الصوتيات	هارولد بالمر	ت : محمد صالح الضالع
٤٩٤ - كتاب الموتى (الخروج فى النهار)	نصوص مصرية قديمة	ت : شريف الصيفى
٤٩٥ - اللوبى	إدوارد تيفان	ت : حسن عبد ربه المصرى
٤٩٦ - الحكم والسياسة فى أفريقيا جا	إكوانو بانولى	ت : مجموعة من المترجمين
٤٩٧ - العثمانية والنوع والدولة فى الشرق الأوسط	نادية العلى	ت : مصطفى رياض
٤٩٨ - النساء والنوع فى الشرق الأوسط الحديث	جوديث تاكر ومارجريت مريونز	ت : أحمد على بدوى
٤٩٩ - تقاطعات : الأمة والمجتمع والجنس	نخبة	ت : فيصل بن خضراء
٥٠٠ - فى طفراتى (دراسة فى السيرة الذاتية العربية)	تيتز روكى	ت : طلعت الشايب
٥٠١ - تاريخ النساء فى الغرب	آرثر جولد هامر	ت : سحر قراج
٥٠٢ - أصوات بديلة	هدى الصدة	ت : هالة كمال
٥٠٣ - مختارات من الشعر الفارسي الحديث	نخبة	ت : محمد نور الدين عبد المنعم
٥٠٤ - كتابات أساسية ج١	مارتن هايدجر	ت : إسماعيل المصدق
٥٠٥ - كتابات أساسية ج٢	مارتن هايدجر	ت : إسماعيل المصدق
٥٠٦ - ربما كان قديساً	آن تيلر	ت : عبد الحميد فهمى الجمال
٥٠٧ - سيدة الماضى الجميل	بيتر شيفر	ت : شوقى فهمى
٥٠٨ - المولوية بعد جلال الدين الرومى	عبد الباقي جلبنارلى	ت : عبد الله أحمد إبراهيم
٥٠٩ - الفقر والإحسان فى عهد سلاطين المماليك	أدم صبرة	ت : قاسم عبده قاسم
٥١٠ - الأرملة الماكرة	كارلو جولدونى	ت : عبد الرازق عيد
٥١١ - كوكب مرقع	آن تيلر	ت : عبد الحميد فهمى الجمال
٥١٢ - كتابة النقد السينمائى	تيموثى كوريجان	ت : جمال عبد الناصر
٥١٣ - العلم الجسور	تيد أنتون	ت : مصطفى إبراهيم فهمى
٥١٤ - مدخل إلى النظرية الأدبية	جونثان كوار	ت : مصطفى بيومى عبد السلام
٥١٥ - من التقليد إلى ما بعد الحداثة	قندوى مالطى دوجلاس	ت : قندوى مالطى دوجلاس
٥١٦ - إرادة الإنسان فى شفاء الإدمان	آرنولد واشنطنون - وديونا باوندى	ت : صبرى محمد حسن
٥١٧ - نقش على الماء وقصص أخرى	نخبة	ت : سمير عبد الحميد إبراهيم
٥١٨ - استكشاف الأرض والكون	إسحق عظيموف	ت : هاشم أحمد محمد
٥١٩ - محاضرات فى المثالية الحديثة	جوزايا رويس	ت : أحمد الأنصارى
٥٢٠ - الولوج الفرنسى بمصر من الطم إلى الشروع	أحمد يوسف	ت : أمل الصبيان
٥٢١ - قاموس تراجم مصر الحديثة	آرثر جولد سميث	ت : عبد الوهاب بكر

٥٢٢ - إسبانيا فى تاريخها	أميركو كاسترو	ت : على إبراهيم منوفى
٥٢٣ - الفن الطليطلى الإسلامى والمبدع	باسيليو بابين مالونانو	ت : على إبراهيم منوفى
٥٢٤ - الملك لير	وليم شكسبير	ت : محمد مصطفى بدوى
٥٢٥ - موسم صيد فى بيروت وقصص أخرى	دنيس جونسون رزيفز	ت : نادية رفعت
٥٢٦ - علم السياسة البيئية	ستيفن كرول ووليم رانكين	ت : محيى الدين مزيد
٥٢٧ - كافكا	ديفيد زين ميروفتس وروبرت كرمب	ت : جمال الجزيرى
٥٢٨ - تروتسكى والماركسية	طارق على وفل إيفانز	ت : جمال الجزيرى
٥٢٩ - بدائع العلامة إقبال فى شعره الأردى	محمد إقبال	ت : حازم محفوظ وحسين نجيب المصرى
٥٣٠ - مدخل عام إلى فهم النظريات التراثية	رينيه جينو	ت : عمر الفاروق عمر
٥٣١ - ما الذى حدث فى «حدث» ١١ سبتمبر؟	چاك دريدا	ت : صفاء فتحى
٥٣٢ - المغامر والمستشرق	هنرى لورنس	ت : بشير السباعى
٥٣٣ - تعلم اللغة الثانية	سوزان جاس	ت : محمد الشرقاوى
٥٣٤ - الإسلاميون الجزائريون	سيقرين لوبا	ت : حمادة إبراهيم
٥٣٥ - مخزن الأسرار	نظامى الكنجوى	ت : عبد العزيز بقوش
٥٣٦ - الثقافات وقيم التقدم	صمويل هنتنجتون	ت : شوقى جلال
٥٣٧ - للحب والحرية	نخبة	ت : عبد الغفار مكاوى
٥٣٨ - النفس والآخر فى قصص بيرسف الشارونى	كيت دانيلز	ت : محمد الحديدى
٥٣٩ - خمس مسرحيات قصيرة	كاريل تشرشل	ت : محسن مصيلحى
٥٤٠ - توجهات بريطانية - شرقية	السير رونالد ستورس	ت : رؤوف عباس
٥٤١ - هى تتخيل وهلاوس أخرى	خوان خوسيه مياس	ت : مروة رزق
٥٤٢ - قصص مختارة من الألب اليونانى الحديث	نخبة	ت : نعيم عطية
٥٤٣ - السياسة الأمريكية	باتريك بروجان وكريس جرات	ت : وفاء عبد القادر
٥٤٤ - ميلانى كلاين	نخبة	ت : حمدي الجابرى
٥٤٥ - ياله من سباق محموم	فرانسيس كريك	ت : عزت عامر
٥٤٦ - ريموس	ت.ب. وايزمان	ت : توفيق على منصور
٥٤٧ - بارت	فيليب ثودى وأن كودس	ت : جمال الجزيرى
٥٤٨ - علم الاجتماع	ريتشارد أوزبرن ويورن فان لون	ت : حمدي الجابرى
٥٤٩ - علم العلامات	بول كويلى وايتاجانز	ت : جمال الجزيرى
٥٥٠ - شكسبير	نيك جروم وييرو	ت : حمدي الجابرى
٥٥١ - الموسيقى والعولة	سايمون ماندى	ت : سمحه الخولى
٥٥٢ - قصص مثالية	ميجيل دى ثريانتس	ت : على عبد الرعوف البمبى
٥٥٣ - مدخل للشعر الفرنسى الحديث والمعاصر	دانيل لوفرس	ت : رجاء ياقوت
٥٥٤ - مصر فى عهد محمد على	عفاف لطفى السيد مارسوه	ت : عبد السميع عمر زين الدين
٥٥٥ - إستراتيجية الأمريكية للقرن الحادى والعشرين	أناتولى أوتكين	ت : أنور محمد إبراهيم ومحمد نصر العن الجبالى
٥٥٦ - چان بودريار	كريس هوروكس وزوران جيفتك	ت : حمدي الجابرى
٥٥٧ - الماركيز دى ساد	ستوارت هود وجراهام كرولى	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٥٥٨ - الدراسات الثقافية	زيودين ساردار ويورين فان لون	ت : وفاء عبد القادر
٥٥٩ - الماس الزائف	تشا تشاجى	ت : عبد الحى أحمد سالم

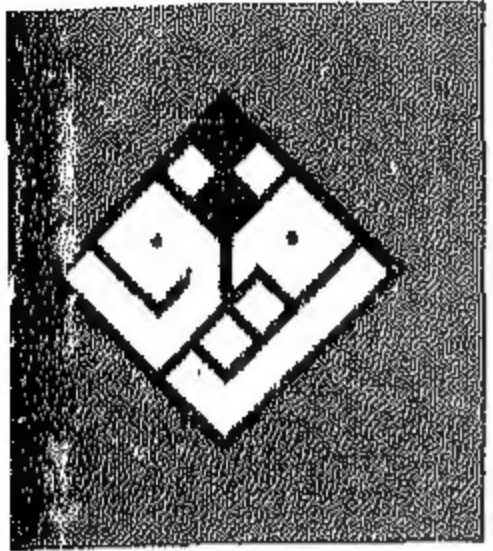
٥٦٠ - ملصقة الجرس
٥٦١ - جناح جبريل
٥٦٢ - بلايين ويلايين

نخبة
محمد إقبال
كارل ساجان

ت : جلال السعيد الحفناوي
ت : جلال السعيد الحفناوي
ت : عزت عامر

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رقم الإيداع ١٤٨٩٥ / ٢٠٠٣



Billions & Billions

Thoughts on Life and Death at the Brink of the Millennium

CARL SAGAN

« هذا الكتاب »

إنه من أعمال كارل ساجان « الأكثر شجاعة »
« تفيض كتابته بالتفاؤل، والوضوح، والشفقة ».

ف. ت. لوديردال - سينتينيل

« يستعين ساجان بالضوء المسلط على شهرته ليلقي ضوءاً على
هاوية النفايات التي قد يدفعنا إليها الغباء، والجشع، والتلهف
على القوة. وكل هذه الأمور والقضايا المهمة مثارة في بلايين
وبلايين ».

واشنطن بوست بوك وورلد

« لم يستمر عالم الفلك كارل ساجان حياً ليشهد الألفية، لكنه قد
يكون مع الأكثر مما فعل أى عالم مشهور آخر ليجعلنا مستعدين
لاستقبال هذه الألفية ».

أتلانتا جورنال أند كونستيتيوشن

« يمكن تشبيه بلايين وبلايين بـ « الربيع الصامت » للجيل المعاصر.
وشهد التاريخ الإنسانى عدداً من الرواد ذوى عقول جبارة أعطونا
نظريات حول الكون والتطور تتعارض مع العقيدة الدينية. توصل
جاليليو إلى أن الأرض تدور حول الشمس، وليس العكس. وتحدى
داروين نظرية الخلق بكتابة تطور الأنواع، والآن، أعطى ساجان
العالم أحدث تحدياته: بلايين وبلايين ».

سان أنطونيو إكسبريس - نيوز

Bibliotheca Alexandrina



0446844